محمد مرتضى القزويني

خفايا أموية

دار العلوم

خفايا أموية

خفايا أموية

تأليف

محمد مرتضى القزويني

دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

حارة حريك - بئر العبد - مقابل البنك اللبناني الفرنسي
ص.ب: ٦٠٨٠ شوران - بيروت - لبنان - تلفون: ٨٢١٢٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ـ الرحمٰن الرحيم ـ مالك يوم الدين ـ أياك نعبد وأياك نستعين ـ أهدنا الصراط المستقيم ـ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ـ

صدق الله العلي العظيم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أمينه في خلقه وسيد رسله محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

اللهم أرنا الحق حقاً فنتبعه وأرنا الباطل باطلاً فنجتنبه.

لا شك أن الحقيقة تظهر في كل قضية تصارع فيها الحق والباطل. وان الباطل، يزهق في نهاية المطاف.

وبما أن الله عز وجل يقف وراء الحق بل هو الحق فكل من كان مع الحق ينتصر، ومن كان مع الله كان الله معه.

وهذا الكتاب الذي بين يديك يهدف إلى تبيين بعض الحقائق التاريخية التي سترها البعض أو تغافل عنها.

وأسسوا بناءً على هذا التغافل قضايا وهمية وباطلة طالما جعلت أفكار القراء والباحثين في خضم الصراع.

ففي أثناء مطالعة التاريخ يواجه القارىء كثيراً من الحقائق والروايات التي بلغت حد التواتر في مثالب بعض الأمراء والملوك، (الأمويين والعباسيين)، وغيرهم.

ويصل القارىء أحياناً إلى أن بعضهم خرج عن الدين وتزندق أو

خالف القرآن والسنة الشريفة وعمل في ظلم العباد وأراق الدماء البريئة وأبطل الحدود واستباح الأموال والأعراض وعمل على تشويه سمعة الاسلام والمسلمين في أنظار شعوب العالم الأخرىٰ.

وبما ان الاسلام دين السلام والعافية والحرية والعدالة والمساواة وهو دين الله الذي جعله للناس كافة، الذي يهدف لإدخال العالم تحت لواءه.

ومن المؤكد أن رسول الله ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السّلام كانوا يسعون أولاً لادخال الاسلام في القلوب عن طريق إظهار الحقائق والمفاهيم الاسلامية والتعاليم الربانية.

ودخول الاسلام إلى القلب يجعل الايمان أرسخ وأقوىٰ من إسلام الهويات.

﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾[1].

لذلك كتبت هذه الصفحات لتوضيح بعض الحقائق وليظهر الحق وليتبين الصراط المستقيم لمن أراد الحقيقة.

وان الاسلام ليس إسلام اللهو واللعب ومجالس الغناء والرقص والسهرات والتطرب مع المخنثين والجواري التي تملأ القصور.

وإن الإسلام ليس إسلام القتل والتنكيل وإراق الدماء وإحراق المدن ونهبها وسلبها.

بل الإسلام دين الرحمة ودين الكرامة والعدالة والمساواة ودين التقوى والورع والايمان والعمل الصالح.

وقد استعرضت في هذا الكتاب أحوال وأخبار أمراء الدولة الأموية، من معاوية بن أبي سفيان إلى مروان الحمار وهم الأمراء الذين ما ذكروا إلا وتبادرت إلى الأذهان مجالس الشراب واللهو والطرب إلى غيرها من الأمور المستقبحة.

---

(١) سورة الحجرات آية ١٤.

ومن جانب آخر اقترن اسم أهل البيت والائمة عليهم السّلام بالنزاهة والعفاف والعبادة والخضوع لله عز وجل والإيمان والعمل الصالح.

ولا شك أن رسول الله ﷺ والأئمة الأطهار هُم الذين ساروا بهذه السيرة الطيبة، ولو فتّشت التاريخ ما وجدت لهم فعل قبيح بل كانوا رحمة للعالمين وهم الدين القويم والصراط المستقيم الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

وليميّز اللهُ الخبيث من الطيب ولتعلو الشجرة الطيبة على الشجرة الخبيثة، ولتعطي ثمارها للأمة والأجيال جيلاً بعد جيل.

وأرجو من الله عز وجل أن يكون هذا السفر من تلك الثمار الطيبة.

﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾[1].

قم المشرفة

محمد مرتضى القزويني

الاثنين ١٧/ج١/ ١٤١٢هـ

٢٥/ ١١/ ١٩٩١م

---

(١) سورة الاسراء آية ٨١.

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق(*)

يقول الشهرستاني: «أعظم خلاف وقع بين الأمة خلاف الامامة إذ ما سُلَّ سيفٌ في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سُلَّ عل الامامة في كل زمان»(١).

وهنا لا نريد أن نذكر الخلاف وأدلة أطراف النزاع. بل المهم هو أن نفهم ما حدث في بداية العصر الإسلامي، فنتيجةً لهذا الخلاف ارتقىٰ عرش الخلافة من لم يكن يحلم بالوصول إليها.

وهم بنو أمية. وسوف نبيّن بعض الخصوصيات عنهم في تعريف خاص بهم.

ولذلك اضطرت السياسة في ذلك اليوم لتوجيه الناس نحو الطاعة للخليفة وصاحب ذلك المقام وإن فعل ما فعل من الأمور القبيحة أو لعنه رسول الله ﷺ أو دعا عليه(٢).

فجعلت السياسة تستأجر بعض الرجال لوضع الأحاديث على لسان رسول الله ﷺ في وجوب الطاعة للسلطان المتغلب وإن كان فاسقاً أو ظالماً.

(*) نهج البلاغة الكلمات القصار.

(١) الملل والنحل للشهرستاني ص ١٤.

(٢) أخرج مسلم في صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في معاوية (لا أشبع الله بطنه).

وبهذه الأحاديث يمكن أن يكون للسلطان الحجة في أن يفعل ما يريد وليس لأحدٍ أن يعترض عليه أو يقوم في وجهه وإن فعل ما فعل.

فجاءت السياسة بهذه الأحاديث.

منها حديث الأمر بطاعة الأمراء.

أخرجه البخاري من حديث أنس.

«اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة»[١].

ومنها ما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

«عليك بالطاعة من منشطك ومكرهك... الحديث»[٢].

وأخرج من حديث أبي ذر.

«أوصاني النبي ﷺ أن أسمع وأطيع ولو لعبد مجدع الأطراف»[٣].

وفي حديث الشعبي للحجاج.

«إن الله إذا استرعا عبداً خلقه كتب له الحسنات ومحىٰ عنه السيئات»[٤].

والحديث «إن من قام بالخلافة ثلاثة أيام لم يدخل النار»[٥].

وأمثال هذه الأحاديث.

وبناءً على هذه الأحاديث وغيرها أسسوا أساساً في وجوب طاعة السلطان مهما فعل.

ولا شك أن الدنانير والدراهم كانت تلعب دوراً هاماً في تأسيس هذا الحكم.

وهنا أذكر رأي الامام أبي حامد الغزالي المتوفى سنة٥٠٥هـ «أن

---

(١) صحيح البخاري.

(٢) و (٣) صحيح مسلم.

(٤) و (٥) المستطرف ص ٨٨ باب السلطان.

السلطان الظالم الجاهل مهما ساعدته الشوكة وعسر خلعه وكان في الاستبدال به فتنة ثائرة لا تطاق وجب تركه ووجبت الطاعة له كما تجب طاعة الامراء» إذ قد ورد في الأمر بطاعة الامراء والمنع من سل اليد عن مساعدتهم أوامر وزواجر.

فالذي نراه أن الخلافة منعقدة للمتكفل بها.

وان الولاية نافذة للسلاطين من أقطار البلاد والمبايعين للخليفة.

والقول الوجيز إنا نراعي الصفات والشروط في السلاطين تشوفاً إلى مزايا المصالح. ولو قضينا ببطلان الولايات الآن لبطلت المصالح رأساً. فكيف يفوت رأس المال في طلب الربح؟ بل الولاية الآن لا تتبع إلا الشوكة.

فمن بايعه صاحب الشوكة فهو الخليفة. ومن استبد بالشوكة وهو مطيع للخليفة في أصل الخطبة والسكة فهو سلطانٌ نافذ الحكم والقضاء في أقطار الأرض ولاية نافذة الأحكام»[1] انتهىٰ.

وانهالت هذه الفتاوى قبل الإمام الغزالي وبعده على الأمة من دون تحقيق في أصلها والدواعي التي أدت إلى ظهورها.

نعم يمكن المناقشة في بعض الروايات وهي أنها فرضت طاعة أولي الأمر ومستندها الاية الكريمة ﴿**اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾[2].

فهل أولوا الأمر كل من تسلط على هذا المقام؟ أو من نصبه رسول الله ﷺ في ذلك المقام؟.

وهنا لا نريد أن نخوض في بحث الامامة وليس من شأن هذا الكتاب الخوض فيها بل يبحث عنها في الكتب الكلامية والعقائدية.

إلا أنني وجدت أن هذه الأخبار تتعارض مع صريح القرآن الكريم والسنة الشريفة.

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي ج ٢ ص ١٢٩.

(٢) سورة النساء آية ٥٩.

فالقرآن الكريم عبر آيات عديدة في شأن الظالمين بعد أن وبخهم ولم يجعل لهم من ولي ولا نصير، حث على عدم مناصرتهم وطاعتهم بل حث على الابتعاد عنهم والتبرأ منهم ومن أعمالهم.

إليك بعض الآيات:

الآية: **﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾**[1].

والآية: **﴿واتقوا فتنةً لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾**[2].

والآية: **﴿وسكنتم مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾**[3].

والآية: **﴿ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه﴾**[4].

مضافاً إلى أن هذه الأخبار تتعارض مع الآية الكريمة: **﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً﴾**[5].

ومن المؤكد أن بعض الأمراء والخلفاء كانوا يقتلون الناس ظلماً وبغير حق. ومن خلال استعراض أحوالهم سوف تتعرّف على كثيرٍ من تلك الحقائق.

فالله قد جعل لولي المقتول سلطاناً فهذه الآية تتعارض مع أحاديث الطاعة للسلطان الظالم ذي الشوكة.

والآية الأخرىٰ: **﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ـ وجزٰؤا سيئةٍ سيئةٌ مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله أنه لا يحب الظالمين ـ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ـ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم﴾**[6].

---

(١) هود ١١٣.
(٢) الأنفال ٢٥.
(٣) ابراهيم ٤٥.
(٤) الطلاق ١.
(٥) الاسراء ٣٣.
(٦) الشورى ٣٨ـ ٤١.

هذا مضافاً إلى أن القرآن الكريم صرح أن الظالم ليس من شأنه أن يتولىٰ الأمر وأن يعهد له الله رعاية خلقه. أي يستحيل أن يكون خليفة لله ولرسوله.

﴿وإذا ابتلىٰ ابراهيمَ ربهُ بكلماتٍ فأتمهن قال أني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾[1].

والعجب كل العجب من الإمام الغزالي بعد ما ذكر رأيه في وجوب الطاعة من السلطان الظالم ذكر بعدها أخبار في وجوب الاجتناب من السلطان ووجوب منابذته[2].

وذكر الحديث: «فمن نابذهم نجا ومن اعتزلهم سلم أو كاد أن يسلم ومن وقع معهم في دنياهم فهو منهم»[3].

والحديث: «سيكون من بعدي أمراء يكذبون ويظلمون فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ولم يرد عليّ الحوض»[4].

إذن أخبار الطاعة معارضة مع صريح القرآن الكريم والسنة الشريفة وكل ما عارض القرآن الكريم يضرب به عرض الجدار.

لكن المحقق والمتتبع للتاريخ ومن خلال مطالعته للتاريخ يعرف الدواعي التي أدت إلى نشوء هذا التيار واختلاق هذه الأخبار.

ونعيد للقارىء الكلمة الأولىٰ وهي كلمة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

---

(١) البقرة ١٢٤.

(٢) إحياء علوم الدين ج٢ ص ١٣١.

(٣) أخرجه الطبراني.

(٤) أخرجه النسائي والترمذي وصححه الحاكم.

بنو أميّة

تسلط بنو أمية على الحكم في سنة ٤٠هـ إلى سنة ١٣٢هـ وهي اثنان وتسعون سنة.

حكم خلالها أربعة عشر حاكماً. أنظر جدول بني أمية.

وقد أخبر رسول الله ﷺ بذلك عندما رآهم في منامه واهتم لذلك فأنزل الله تعالىٰ: **﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنةً للناس والشجرة الملعونة﴾**[١].

ففي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن الحسين بن علي عليه السلام أن رسول الله ﷺ أصبح وهو مهموم فقيل: مالك يا رسول الله؟

فقال: أني أُريت في المنام كأن بني أمية يتعاورون منبري هذا. فقيل: يارسول الله لا تهتم فإنها دنيا تنالهم[٢].

فأنزل الله تعالى: **﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾**.

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: رأيت ولد الحكم بن أبي العاص على المنابر كأنهم القردة وأنزل الله في ذلك: **﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة﴾** يعني الحكم وولده[٣].

---

(١) الاسراء ٦٠.

(٢) و (٣) تفسير الميزان ج ١٣ ص ١٤٨.

وأخرج عن عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأبيك وجدك: أنكم الشجرة الملعونة في القرآن[1].

وفي تفسير هذه الآية الشريفة أكثر من عشرة طرق أنها نزلت في بني أمية أو بني الحكم بن أبي العاص. وقد ذكرت في مجاميع الحديث.

وبنو أمية صنفان: الأعياص والعنابس.

فالأعياص: العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص.

والعنابس: حرب وأبو حرب وسفيان وأبو سفيان.

فبنو مروان وعثمان من الأعياص ومعاوية وابنه من العنابس.

واستأثر بنو أمية خلال سنوات حكمهم بالأموال الطائلة المجتمعة في بيت المال وبالمناصب الرئيسية في البلاد.

ويعتبر بنو أمية أول من بث العصبية في الإسلام وفرق بين العرب والموالي وبين العشائر على نطاق الدولة.

وأول من سن الملاهي والغناء والطرب والشراب في الإسلام.

وأول من كان يَهَبُ من بيت المال الأموال الطائلة للمغنين والمخنثين والشعراء.

وقد ابتليت الأمة بهم وبولاتهم. ففي أيامهم هدموا الكعبة المشرفة بعدما ضربوها بالمنجنيق واحترق جانب منها.

وأباحوا مدينة الرسول ﷺ لجيشهم ثلاثة أيام فحدث من الجرائم ما لا يعلمه إلا الله. وانتهكت حرمة المسجد النبوي الشريف.

وفي أيامهم قتلوا المئات من الأبرياء الصالحين والمصلحين وعلى رأسهم سيدا شباب أهل الجنة الحسن والحسين عليهما السّلام وعشرين رجلاً من أهل بيت النبوة ما على وجه الأرض لهم من شبيه.

---

(١) المصدر السابق.

وقتل بعدهم زيد بن علي بن الحسين عليهم السّلام وغيرهم.

وبلغ بهم الأمر أن كانوا يختمون في أعناق الصحابة والتابعين على أنهم عبيد وخول للخليفة كما تختم الحيوانات وجعلوا الخليفة أعلى منزلة من رسول الله ﷺ.

وقد ذكر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ذلك في خطبة، قال: «وأَيـمُ اللهِ لتجدُنَّ بني أميَّةَ لكم أربابَ سُوءٍ بعدي كالنابِ[1] الضَّروس، تَعذِمُ[2] بفيها. وتخبط بيدها وتزبنُ[3] برجلها وتمنع دَرَّها، لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم إلا نافعاً لهم أو غير ضائرٍ بهم. ولا يُزالُ بلاؤهم عنكم حتى لا يكون انتصارُ أحَدِكُم منهم إلا كانتصار العبد من ربه والصاحب من مستصحبه تَرِدُ عليكم فتنتهم شوهاء مخشية وقِطعاً جاهلية، ليس فيها منارُ هدىً ولا علمٌ يُرىٰ». نهج البلاغة[4].

وكانت تقع مفاخرات بين بني هاشم وبني أمية قبل الإسلام وبعده وكان يقع التفاضل فيها بين عبد شمس وأمية وحرب وأبي سفيان ومعاوية وبين هاشم وعبد المطلب وأبو طالب ورسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب عليه السلام.

ومما لا شك فيه كان ينتصر الجانب الهاشمي على الجانب الأموي دائماً. وقد أورد الشريف الرضي رضي الله عنه في نهج البلاغة كتاباً لأمير المؤمنين عليه السلام إلى معاوية جاء فيه:

«ولكن ليس أمية كهاشم ولا حرب كعبد المطلب ولا أبو سفيان كأبي طالب ولا المهاجر كالطليق ولا الصريح كاللصيق ولا المحق كالمبطل ولا المؤمن كالمُدغِل ولبئس الخلف خلفٌ يتبع سلفاً هوىٰ في نار جهنم ـ ومنها ـ ولما أدخل اللهُ العرب في دينه أفواجاً. وأَسلمت له هذه الأمةُ طوعاً

---

(١) الناب: الناقة المسنة. والضروس: السيئة الخلق.

(٢) تعذم: أكل بجفاء أو عض.

(٣) تزبن: تضرب.

(٤) نهج البلاغة خطبة ٩٣.

وكرهاً، كنتم ممن دخل في الدين: إما رغبةً وإمَّا رهبَةً على حين فازَ أهل السَّبقِ بسبقهم وذهب المهاجرون الأولون بفضلهم». نهج البلاغة[1].

وفي كتاب آخر له عليه السلام إلى معاوية: «ومنا النبيُّ ومنكم المكذب ومنا أسد الله ومنكم أسدُ الاحلاف ومنا سيدا شباب أهل الجنة ومنكم صبية النار ومنا خيرُ نساء العالمين ومنكم حمالة الحطب» نهج البلاغة[2].

والمكذب هو أبو سفيان بن حرب وأسد الأحلاف عتبة بن ربيعة وصبية النار أولاد عقبة بن أبي مُعَيط وهي الكلمة التي قالها النبي صلى الله عليه وآله لعقبة حين قتله صبراً يوم بدر وقال كالمستعطف له عليه السلام: من للصبية يا محمد؟ قال: النار وعقبة بن أبي معيط من بني أمية.

ومن الذين قُتلوا في الإسلام جد معاوية عتبة بن ربيعة وأخوه شيبه بن ربيعة وخاله الوليد بن عتبة وأخو معاوية حنظلة بن أبي سفيان ومن عشيرته عقبة بن أبي معيط والعاص بن سعيد بن أمية ومعاوية بن المغيرة بن أبي العاص.

وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وآله أبا سفيان في سبعة مواطن في يوم دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله أهل الطائف ويوم العير ويوم أحد ويوم الأحزاب ويوم الحديبية ويوم الجمل الأحمر ويوم العقبة[3].

ومما يدل على عدم دخول الايمان في قلب أبي سفيان ما رواه أحمد بن عبد العزيز أن أبا سفيان قال لعثمان: بأبي أنت! أنفق ولا تكن كأبي حجر، وتداولوها يا بني أمية تداول الولدانِ للكُرة. والله ما من جنة ولا نار ـ وكان الزبير حاضراً، فقال عثمان لأبي سفيان: اعزُب، فقال: يا بني أها هنا أحد!

قال الزبير: نعم والله لا كتمتها عليك[4].

---

(١) نهج البلاغة كتاب ١٧

(٢) نهج البلاغة كتاب ٢٨.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٦ ص ٢٩٠.

(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٢ ص ٤٤.

وفي خبر عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

إذا بلغ بنو أبي العاص أربعين رجلاً اتخذوا دين الله دغلاً وعباد الله خولاً ومال الله دولاً[1].

وقد نزلت سورة محمد ﷺ وهي على نوعين كما ورد في أخبار عديدة، فنوعٌ وهي آيات المتقين والصالحين وآيات الجنة والثواب ونوع ثان وهي آيات الفاسقين والكافرين وآيات النار والعذاب.

وقد ورد في أخبار عديدة أنها نزلت في أهل البيت عليهم السلام وبني أمية منها ما رواه الفقيه الشافعي عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي قال:

أخرج بن مردويه عن علي رضي الله عنه قال: سورة محمد آية فينا وآية في بني أمية»[2].

وروى الحافظ الحسكاني الحنفي قال: حدثنا الحاكم أبو عبد الله الحافظ (بأسناده المذكور) عن علي عليه السلام قال:

«سورة محمد ﷺ آية فينا وآية في بني أمية»[3].

وروى الحافظ الحسكاني الحنفي أيضاً قال: حدثنا المنتصر بن نصر بن تميم الواسطي (بأسناده المذكور) عن ابن عباس في تفسير هذه الآية:

﴿فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾[4].

قال: تولوا (أي بني أمية) أمر هذه الأمة، فعملوا بالتجبر والمعاصي وتقطعوا أرحام نبيهم محمد ﷺ وأهل بيته[5].

وقد ابتدأت دولتهم في بادىء أمرها بالخديعة والمكر وشراء الضمائر

---

(١) البداية والنهاية ج ٦ ص ٢٤٢.
(٢) تفسير الدر المنثور ج ٦ ص ٤٦.
(٣) شواهد التنزيل ج ٢ ص ١٧١.
(٤) سورة محمد ص ٢٢.
(٥) شواهد التنزيل ج ٢ ص ١٧٦ و ١٧٧.

بالدنانير والدراهم ثم احكمت سيطرتها بالقوة والسيف. فعندما أخذ معاوية البيعة ليزيد قام أحد الخطباء وقال إن هلك هذا (أشار إلى معاوية) فهذا (وأشار إلى يزيد) ومن أبىٰ فهذا (وأشار إلى سيفه).

ودام عهد الإرهاب والتعسف إلى نهاية أيام هشام بن عبد الملك وبعدها دب الاضطراب والتفكك في أنحاء الدولة بسبب مجون الخليفة واستياء الناس من بني أمية وأفعالهم إلى أن آل الأمر إلى هلاك الخليفة وسقوط الدولة في سنة ١٣٢هـ.

وقد شهدت دولتهم ثورات عديدة من أشهرها:

ثورة سيد شباب أهل الجنة الحسين بن علي عليهما السّلام في كربلاء.

وثورة أهل المدينة بقيادة عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة.

وثورة أهل مكة بقيادة عبد الله بن الزبير.

وثورة أهل العراق بقيادة المختار بن أبي عبيدة الثقفي.

وثورة أهل العراق بقيادة مصعب بن الزبير.

وثورة أهل الكوفة بقيادة زيد بن علي عليهما السّلام.

وثورة أهل العراق بقيادة بني المهلب بن أبي صفرة.

وثورات أخرى للخوارج.

وذهب ضحية هذه الثورات آلاف القتلى والجرحى وإحراق المدن الآهلة بالسكان.

وضاع خلال العهد الأموي كثير من التراث النبوي الشريف بتعريض الرواة للقتل والتشريد والاضطهاد وإدخال التحريف في الأحاديث النبوية الشريفة.

لكن الذي هون الخطب وجود السلالة النبوية الطاهرة التي استطاعت الحفاظ على هذا التراث الشريف ونقله إلى الأجيال المتأخرة بأيدٍ مأمونة وألسُنٍ صادقة.

الأمويون

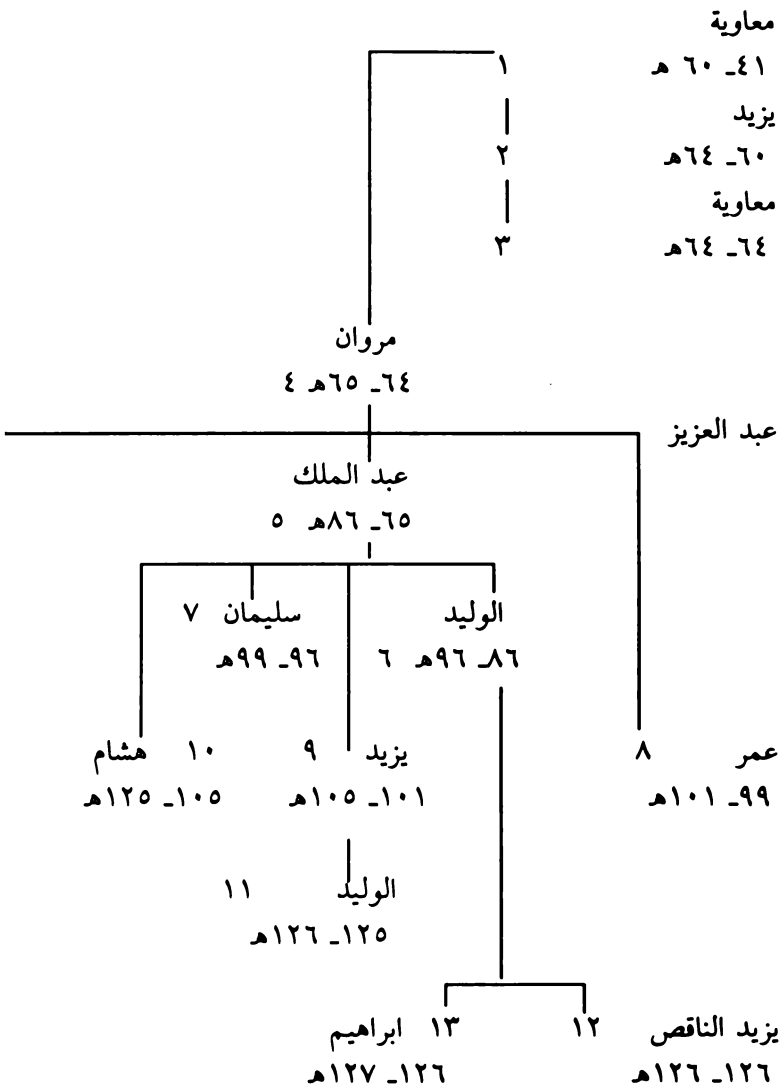

مروان الحمار
١٢٧ـ ١٣٢هـ

معاوية بن أبي سفيان

٤١ـ ٦٠هـ

معاوية بن صخر بن حرب بن أمية ابن عبد شمس.

وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس.

وأبو سفيان (صخر بن حرب) هو الذي قاد قريشاً في حروبها إلى النبي ﷺ وهو رئيس عبد شمس بعد قتل عتبة بن ربيعة ببدر.

استخلفه عمر على دمشق بعد وفاة أخيه يزيد بن أبي سفيان في سنة عشرين، فلم يزل والياً على الشام عشرين سنة أي إلى سنة ٤١هـ حيث صالح الإمام الحسن بن علي عليهما السّلام وفي هذه السنة استطاع أن يخضع أرجاء الدولة الإسلامية لسيطرته بأساليبه الخاصة التي سوف نتعرض إليها.

ومات في سنة ستين للهجرة وعاش ثمانياً وسبعين سنة.

امتاز معاوية بالدهاء والمكر والخديعة، وكان يتظاهر بالحلم وسعة الصدر.

وقد نابذ معاوية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وأظهر له البغض والخلاف والانحراف طيلة أيامه وشق عصا المسلمين وخرج على الإمام وجيش الجيوش لحربه وأغار على بلاد المسلمين غارات عديدة.

وقتل بعض الصحابة الأجلاء ومن التابعين والهاشميين وغيرهم.

وقد امتاز عهده بكثرة الكذب على رسول الله ﷺ وأظهر سب أمير المؤمنين عليه السلام وأهل بيت النبوة.

وامتاز عهده بابتعاد الصحابة عن القيادة خوفهم من التلوث بسيرة الخليفة وتنزهاً عن الأعمال المشينة التي ارتكبها.

كما امتاز عهده باستبداد الولاة والحكام على البلاد خصوصاً في الحجاز والعراق.

النبي ﷺ يصف معاوية:

لا يستطيع أي مسلم أن يقدح في مقولة رسول الله ﷺ وهو الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحىٰ وهو الأمين الذي قال عنه القرآن الكريم: **﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ولقطعنا منه الوتين﴾**[1].

فكلام رسول الله ﷺ هو كلام الله عز وجل **﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾**[2].

ولا ريب أن رسول الله ﷺ كان يعرف الصحابة معرفة جيدة بأحوالهم وما هم عليه من النفاق أو الإيمان وما سيؤل إليه أمرهم بعده ﷺ.

وقد ذكر رسول الله ﷺ معاوية في عدة أماكن ولعنه وقد ذكرنا بعضها لا على سبيل الحصر، منها:

١ـ روىٰ صاحب كتاب الغارات عن الأعمش عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

سيظهر على الناس رجل من أمتي، عظيم السّرْم، واسع البُلعوم، يأكل ولا يشبع، يحمل وزر الثَّقَلين، يطلب الإمارة يوماً. فإذا أدركتموه فابقروا بطنه.

قال وكان في يد رسول الله ص قضيب، قد وضع طرفه في بطن معاوية[3].

٢ـ **استدعا رسول الله ﷺ معاوية وبعث إليه يستدعيه فوجدوه يأكل، ثم**

---

(١) سورة الحاقة آية ٤٥

(٢) سورة الحشر آية ٧

(٣) شرح نهج البلاغة ج ٤ ص ١٠٨.

بعث فوجدوه يأكل فقال ﷺ: «اللهم لا تشبع بطنه»[1].

٣ـ عن نصر بن عاصم الليثي عن أبيه قال:

أتيت مسجد رسول الله ﷺ والناس يقولون: نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله! فقلت ما هذا؟

قالوا: معاوية قام الساعة، فأخذ بيد أبي سفيان، فخرجا من المسجد، فقال رسول الله ﷺ: «لعن الله التابع والمتبوع رب يومٍ لأمتي من معاوية ذي الاستاه»! قالوا: يعني الكبير العَجُز[2].

٤ـ روى العلاء بن حريز القشيري أن رسول الله ﷺ قال لمعاوية: «لتتخذن يا معاوية البدعة سنة والقبح حسناً أكلُك كثير وظلمك عظيم»[3].

فأي خير كانت ترجوه الأمة من معاوية بعدما وصفه رسول الله ﷺ بهذه الأوصاف ونعته بهذه النعوت.

الزندقة والالحاد

إذا اطلعت على ما ذكره رسول الله ﷺ في شأن معاوية وأحواله وما سيؤل إليه أمره في العاقبة.

فإنك سوف تجد في سيرة هذا الرجل سقطات عديدة ظهرت على أفعاله وبعض كلماته، فنذكر هنا بعض فلتاته مما أدىٰ بكثير من الصحابة والتابعين إلى الطعن في دينه ووصفه بالزندقة والإلحاد في دين الله.

وقد بلغ به التمادي والطغيان إلى حدٍ جعله يتعرض لمقام النبوة والرسالة بالإهانة والاحتقار.

فلم يَر مانعاً من ذلك التعرض وهو الذي تعرض من قبل لمحاربة وصي رسول الله ﷺ وإمام المسلمين وأعلن بسبه وسب الصفوة الطاهرة من

---

(١) شرح نهج البلاغة ج ٤ ص ٥٥.

(٢) و (٣) شرح نهج البلاغة ج ٤ ص ٧٩.

أهل البيت عليهم السّلام على منابر المساجد في أرجاء البلاد الإسلامية.

مضافاً إلى أنه كان يرىٰ أن الأمر لا يعدو الملك. كما يظهر من الكتابات المتبادلة بينه وبين أمير المؤمنين عليه السلام.

فهو كان يرى أن بني هاشم غلبتهم على الملك بمقام النبوة. لذلك كان يسعىٰ بشتى الوسائل والطرق أن يجعل الأمر في بني أمية وهو ما وصل إليه أخيراً.

من تلك الأخبار ما رواه الزبير بن بكار وغيره.

روى الزبير بن بكار في الموفقيات وهو من المنحرفين عن علي بن أبي طالب عليه السلام. قال:

قال المطرّف بن المغيرة بن شعبة: دخلت مع أبي على معاوية، وكان أبي يأتيه فيتحدث معه، ثم ينصرف إليّ فيذكر معاوية وعقله، ويَعجب بما يرىٰ منه،

إذ جاء ذات ليلة، فأمسك عن العشاء، ورأيته مغتماً فانتظرته ساعة، وظننت أنه لأمر حدث فينا.

فقلت: مالي أراك مغتماً منذ الليلة؟.

فقال: يا بُنيّ، جئت من عند أكفر الناس وأخبثهم،

قلت: وما ذاك؟.

قال: قلت له وقد خلوتُ به: إنك قد بلغتَ سناً يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً، وبسطت خيراً فإنّك قد كبرت، ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم، فوصلت أرحامهم فوالله ما عندهم شيء تخافه، وإن ذلك مما يبقىٰ لك ذكره وثوابه.

فقال: هيهات، هيهات! أي ذِكر أرجو بقاءه! مَلَكَ أخو تيم فعدَل، وفعل ما فعل، فما عدا أن هَلَكَ حتى هلك ذكرهُ، إلا أن يقول قائل: أبو بكر؛ ثم ملك أخو عديّ، فاجتهد وشمّر عشر سنين، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره؛ إلا أن يقول قائل: عمر، وإن ابن أبي كبشةَ ليُصَاح به كلَّ

يوم خمس مرات «أشهد أن محمداً رسول الله»؛ فأي عمل يبقى؟ وأيّ ذكر يدوم بعد هذا لا أبالك! لا والله إلا دَفنا دفناً[1].

فهل تبقى لمعاوية حرمة بعدما أظهر ما كان يضمره في صدره. فهو يهدف لطمس أعلام الإسلام ولدفن الشهادتين وذكر سيد البشر وخير الخلق وخاتم النبيين محمد ﷺ الذي أبا الله إلا أن نذكره كل يوم على المآذن وفي صلواتنا اليومية عدة مرات. **﴿يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾**[2].

وروى أحمد بن أبي طاهر في كتاب «أخبار الملوك».

أن معاوية سمع المؤذن يقول: «أشهد أن لا إله إلا الله» فقالها ثلاثاً فقال: أشهد أن محمداً رسول الله!.

.فقال: لله أبوك يا ابن عبد الله. لقد كنت عالي الهمة، ما رضيت لنفسك إلا أن يقرن اسمك باسم رب العالمين[3].

وهل هذا إلا كلامُ ملحدٍ لا يؤمن برسالة خاتم الأنبياء.

٢ـ وروى ان من أفعاله لُبسه الحرير وشربه من آنية الذهب والفضة حتى أنكر عليه ذلك أبو الدَّرداء، فقال له:

أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشارب فيهما ليُجرجر في جوفه نار جهنم»؟ وقال معاوية: أما أنا فلا أرىٰ بذلك بأساً، فقال أبو الدرداء: من عذيري من معاوية! أنا أخبره عن رسول الله ﷺ وهو يخبرني عن رأيه: لا أساكنك بأرضٍ أبداً[4].

ومن الأخبار ما رواه الواقدي أن معاوية لما عاد من العراق إلى الشام بعد بيعة الحسن عليه السلام واجتماع الناس إليه خطب فقال: أيها الناس، إن رسول الله ﷺ قال لي: «إنك ستلي الخلافة من بعدي، فأخترت الأرض المقدسة، فإن فيها الابدال، وقد اخترتكم، فالعنوا أبا تراب. فلعنوه، فلما

---

(١) شرح نهج البلاغة ج ١٠ ص ١٠١.
(٢) سورة التوبة آيه ٣٢
(٣) و (٤) شرح نهج البلاغة ج ٥ ص ١٣٠.

كان من الغد كتب كتاباً، ثم جمعهم فقرأه عليهم وفيه:

هذا كتابٌ كتبه أمير المؤمنين معاوية، صاحب وحي الله الذي بعث محمداً نبياً. وكان أُمياً لا يقرأ ولا يكتب فاصطفىٰ له من أهله وزيراً كاتباً أميناً، فكان الوحي ينزل على محمد وأنا أكتبه، وهو لا يعلم ما أكتب، فلم يكن بيني وبين الله أحدٌ من خلقه.

فقال له الحاضرون كلهم: صدقت يا أمير المؤمنين[1].

وروىٰ أن معاوية بذل لسمرة بن جُندب مائة ألف درهم حتى يروى أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب ﴿**ومن الناس من يعجبك قولُهُ في الحياة الدنيا ويُشهدُ الله على ما في قلبه وهو ألدُّ الخصام، وإذا تَوَلّى سعىٰ في الأرض ليفسد فيها ويُهلِكَ الحرثَ والنسل واللهُ لا يحب الفساد**﴾[2].

وإن الآية الثانية نزلت في ابن مُلجَم وهي قوله تعالىٰ: ﴿**ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله**﴾[3] فلم يقبل، فبذل له مائتي ألف درهم فلم يقبل، فبذل له ثلاثمائة ألف فلم يقبل، فبذل له أربعمائة ألف فقبل، وروى ذلك[4].

وهل يقدح ما رواه سَمُرة بن جندب في حق أمير المؤمنين وقائد الغرّ المحجلين والقرآن ينادي: ﴿**وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته**﴾[5].

ومنها ما روى أن النعمان بن بشير الانصاري جاء في جماعة من الأنصار إلى معاوية، فشكوا إليه فقرهم. وقالوا: لقد صدق رسول الله ﷺ في قوله لنا: «ستلقون بعدي أثرةً» فقد لقيناها.

قال معاوية: فماذا قال لكم؟ قالوا: قال لنا: «فاصبروا حتى تردوا عليّ الحوض».

---

(١) شرح نهج البلاغة ج ٤ ص ٧٢.

(٢) سورة البقرة ٢٠٤، ٢٠٥.

(٣) سورة البقرة ٢٠٧.

(٤) شرح نهج البلاغة ج ٤ ص ٧٣.

(٥) الانعام ١١٥.

قال: فافعلوا ما أمركم به عساكم تلاقونه غداً عند الحوض كما أخبركم، وحرمهم ولم يعطهم شيئاً[1].

ومن هذا الخبر تعرف أن هذا الرجل كان ينكر الآخرة أو ينكر النبوة أو ينكر لقاء رسول الله الأنصار يوم القيامة على الحوض وهذا مما يوجب خروجه عن الدين الحنيف واتصافه بالزندقة والإلحاد في دين الله.

ودعا يزيد يوماً الأخطل النصراني وقال له: أهج الأنصار.

قال: افرقُ من أمير المؤمنين: فقال: لا تخف شيئاً أنا لك بذلك. فهجاهم فقال:

لعن الاله من اليهود عصابةً ... بالجزع بين صُليصلٍ وصِرارِ
قومٌ إذا هَدَر العصيرُ رأيتهم ... حمراً عيونهم من المُصطارِ
خلوا المكارم لستم من أهلها ... وخُذوا مساحيكم بني النجار
إن الفوارس يعلمون ظهوركم ... أولاد كلِّ مقبح أكَّار
ذهبت قريشٌ بالمكارم والعُلا ... واللؤم تحت عمائم الأنصار[2]

- ومنها أنه في سنة خمسين من الهجرة أمر معاوية بمنبر رسول الله ﷺ أن يحمل إلى الشام فحركَ فكسفت الشمس حتى رؤيت النجوم بادية يومئذ. فأعظم الناس ذلك.

فقال: لم أرد حمله إنما خفت أن يكون قد أرضّ فنظرت إليه[3].

قاتل البررة

إتخذ معاوية موقفاً عنيداً من الرسالة وأهل البيت وأمير المؤمنين عليه السلام. الذين كانوا يمثلون الشجرة الطيبة.

وبما أن هذه الشجرة كان لها من المحبين والموالين الكثير. لذلك نشب النزاع والصراع بين الشجرة الطيبة والخبيثة.

---

(١) شرح نهج البلاغة ج ٦ ص ٣٢.
(٢) الأغاني ج ١٥ ص ١٠٧ بولاق ١٣/١٤٨.
(٣) تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٧٧.

وقد استطاع خلال فترة حكمه أن ينال من ثمار تلك الشجرة الطيبة. فقتل من استطاع قتله في الحروب ومنهم من قتله غيلةً ومنهم من قتله مسموماً.

وهنا نذكر بعض الذين قتلهم معاوية وهم الصفة والخيرة من الصحابة خلال حروبه وغاراته. منهم:

١ـ عمّار بن ياسر

عن عبد الرحمن بن عوف قال حدثني شيخ من أسلم شهد صفين مع القوم قال: والله إن الناس على سكناتهم فما راعنا إلا صوت عمار بن ياسر حين اعتدلت الشمس أو كادت أن تعتدل وهو يقول:

«أيهاً من رائح إلى الجنة كالظمآن يُروىٰ الماء؟

ما الجنة إلا تحت أطراف العوالي. اليوم ألقىٰ الأحبة محمداً وحزبه يا معشر المسلمين: أصدقوا الله فيهم فإنهم والله أبناء الأحزاب دخلوا في هذا الدين كارهين حين أذلتهم حدُّ السيوف وخرجوا منه طائعين حتى أمكنتهم الفرصة».

وكان يومئذ ابن تسعين سنة[1].

وقال عمار حين نظر إلى راية عمرو بن العاص: إن هذه الراية قد قاتلتنا ثلاث عركات وما هي بأشدهن ثم حمل وهو يقول:

نحن ضربناكم على تنزيله ... واليوم نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحقُّ إلى سبيله ... يا ربِّ إني مؤمنٌ بقيله

ثم استسقىٰ عمار واشتد ظمأه، فأتته امرأة طويلة اليدين بضياح من لبن وقال: «الجنة تحت الأسنة، اليوم ألقي الأحبة محمداً وحزبهم والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا أنا على الحق وأنهم على الباطل ثم حمل وحمل عليه أبو العادية الفزاري لعنه الله فقتله.

وجاء في زيارة أمير المؤمنين عليه السلام «وعمار يجاهد وينادي بين

---

(١) الاختصاص للمفيد ص ٦٣.

الصفين الرواح الرواح إلى الجنة ولما استسقىٰ فسقي اللبن، كبر وقال: قال لي رسول الله ﷺ آخر شرابك من الدنيا ضياح من لبن وتقتلك الفئة الباغية فأعترضه أبو العادية فقتله»[1].

وعمار الذي نزل بشأنه القرآن الكريم عندما اتفقت قريش على تعذيب آل ياسر وآحراق دارهم وتعذيبهم بأشد أنواع العذاب وقد شهدت بطحاء مكة تلك المجزرة العظيمة عندما انهالوا على ياسر وسمية وعمار بالضرب بأسنة الحراب ووضعوا على صدورهم الصخور الثقال وهم في ذلك محتسبون صابرون ومرّ عليهم رسول الله ﷺ وهو يصبرهم ويعدهم الجنة. قال ﷺ: «صبراً يا آل ياسر إن موعدكم الجنة».

فقتل ياسر وقتلت زوجته سمية وكانا أول شهيدين في الإسلام.

وبعدما رأى عمار مقتل أمه وأبيه أمام عينيه فاضطر أن يذكر آلهة قريش بخير فأطلقوه وجاء مسرعاً إلى رسول الله ﷺ باكياً وأخبره بما قال، فقال له رسول الله ﷺ كيف تجد قلبك يا عمار؟

قال أنه مطمئن بالايمان يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ فما عليك فإن عادوا إليك فعد لما يريدون.

فأنزل الله تعالىٰ فيه: ﴿**إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان**﴾[2]. وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «عمار مع الحق والحق مع عمار يدور معه كيفما دار». وهو القائل يوم كان النبي ﷺ يبني المسجد في المدينة:

لا يستوي من يعمر المساجدا يدأب فيها قائماً وقاعدا
ومن يُرىٰ عن الغبار حائدا

فقال له عثمان: «لقد سمعت ما تقول يا ابن سمية والله إني سأعرض هذه العصا لأنفك فلما سمعهم رسول الله ﷺ قال: «مالهم ولعمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار. إن عمار جلدة ما بين عيني وأنفي»[3].

---

(١) زيارة أمير المؤمنين في عيد الغدير.
(٢) النحل ١٠٦
(٣) سيرة المصطفى.

وكان مقتل عمار رضوان الله عليه خير دليل لمن لم يدرك كنه بني أمية وحقيقتهم ومن هو معاوية.

وقد أحدث مقتله بلبلة في جيوش الفئة الباغية وصدقت عليهم كلمة رسول الله ﷺ: «انه يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار» لكن ترى البعض يتعامىٰ ويغض النظر عن أحاديث رسول الله ﷺ ويعتبر أن مقتل عمار كان اجتهاداً من معاوية **﴿فإنها لا تعمىٰ الأبصار ولكن تعمىٰ القلوب التي في الصدور﴾**[1] [2].

٢ـ حجر بن عدي الكندي وأصحابه

كان حجر أحد رجال أهل الكوفة الموالين لأمير المؤمنين عليه السلام، فحبسه زياد بن سمية وبعث به إلى معاوية فحبس في مرج عذراء على مقربة من دمشق.

ثم بعث زياد في أثرهم رسالة إلى معاوية يقول فيها: «فإن كانت لك حاجة في هذا المصر فلا تردنّ حجراً وأصحابه إلي.

فبعث معاوية هدبة بن فياض القضاعي من بني سلامان بن سعد والحصين بن عبد الله الكلابي وأبا شريف البدي فأتوهم عند المساء.

فقال الخثعمي وهو من أصحاب حجر حين رأى الأعور مقبلاً: يُقتل نصفنا وينجو نصفنا.

فقال سعد بن نمران: اللهم اجعلني ممن ينجو وأنت عني راض، فقال عبد الرحمن بن حسان العنزي: اللهم اجعلني ممن تكرمَ بهوانهم وأنت عني راض، فطالما عرضت نفسي للقتل فأبى الله إلا ما أراد.

فجاء رسول معاوية إليهم بتخلية ستة وبقتل ثمانية، فقال لهم رسول معاوية: إنا قد أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من علي بن أبي طالب عليه السلام واللعن له، فإن فعلتم تركناكم وإن أبيتم قتلناكم وإن أمير المؤمنين يزعم أن

---

(١) الحج ٤٦.

(٢) ترجمة عمار وقعة صفين، ذيل المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين/ الطبري.

دماءكم قد حلت له بشهاده أهل مصركم عليكم، غير أنه قد عفىٰ عن ذلك، فأبرؤا من هذا الرجل نُخلِ سبيلكم.

قالوا: اللهم إنا لسنا فاعلي ذلك فأمر بقبورهم فحفرت وأدنيت أكفانهم وأقاموا الليل كله يصلون. فلما أصبحوا قال أصحاب معاوية: يا هؤلاء لقد رأيناكم البارحة قد أطلتم الصلاة وأحسنتم الدعاء فأخبرونا ما قولكم في عثمان.

قالوا: هو أول من جار في الحكم وعمل بغير الحق.

فقال أصحاب معاوية: أمير المؤمنين كان أعلم بكم ثم قاموا إليهم فقالوا: تبرؤون من هذا الرجل؟.

قالوا: بل نتولاه ونتبرأ ممن تبرأ منه، فأخذ كل رجل منهم رجلاً يقتله.

ثم إن حجراً قال لهم: دعوني أتوضأ قالوا له: توضأ. فلما توضأ قال لهم: دعوني أصلي ركعتين، فأيمُنُ الله ما توضأت قط إلا صليت ركعتين.

قالوا: ليصلي، فصلىٰ ثم انصرف فقال: والله ما صليت صلاة قط أقصر منها ولولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لأحببت أن أستكثر منها.

ثم قال اللهم إنا نستعديك على أمتنا فإن أهل الكوفة شهدوا علينا وإن أهل الشام يقتلوننا. أما والله لئن قتلتموني بها إني لأول فارس من المسلمين هلك في واديها وأول رجل من المسلمين نبحته كلابها.

فمشى إليه الأعور هُدبة بن فياض بالسيف فأرعدت خصائله.

فقال: زعمت أنك لا تجزع من الموت فأنا أدعك فأبرأ من صاحبك.

فقال: ما لي لا أجزع وأنا أرىٰ قبراً محفوراً وكفناً منشوراً وسيفاً مشهوراً وإني إن جزعت من القتل لا أقول ما يسخط الرب فقتله وأقبلوا يقتلونهم واحداً واحداً حتى قتلوا ستة.

وجاؤوا بعبد الرحمن بن حسان العنزي وكريم بن عفيف الخثعمي إلى

معاوية. فوهب معاوية كريم بن عفيف لابن عم له بعد محاورة بينهما، ثم أقبل على عبد الرحمن العنزي فقال: إيهٍ يا أخا ربيعة. ما قولك في علي بن أبي طالب؟.

قال: دعني ولا تسألني فإنه خير لك.

قال: والله لا أدَعك حتى تخبرني عنه؟.

فقال عبد الرحمن العنزي: أشهد أنه كان من الذاكرين الله كثيراً ومن الآمرين بالحق والقائمين بالقسط العافين عن الناس.

قال: فما قولك في عثمان؟

: قال هو أول من فتح باب الظلم وارتج أبواب الحق. قال: قتلت نفسك. قال: بل إياك قتلت ولا ربيعة بالوادي.

فبعث به معاوية إلى زياد وكتب إليه: «أما بعد فإن هذا العنزي شرَ من بعثت فعاقِبهُ عقوبة هو أهلها واقتله شر قتلةٍ».

فلما قدم به على زياد بعث به زياد إلى قس الناطق، فدفن حياً رضوان الله عليه ودخل الكوفة ذل عظيم بمقتل حجر وأصحابه رضوان الله عليهم[1].

وذكر الطبري في تاريخه أن معاوية قال عند موته: «يوم لي من ابن الأدبر طويل» ثلاث مرات وهو يعني بابن الأدبر حجراً[2].

وقد قالت هند ابنة زيد بن مخرمة الانصارية ترثي حجراً وقيل الرثاء لابنة حجر رضوان الله عليه:

ترفع أيها القمرُ المنيرُ ... تبصر هل ترىٰ حجراً يسيرُ
يسير إلى معاوية بن حرب ... ليقتله كما زعم الأمير
تجبرت الجبابر بعد حجرٍ ... وطابَ لها الخورنق والسدير
وأصبحت البلاد لها مَحُولاً ... كأن لم يُحيها مُزنٌ مَطِيرُ

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٠٤.

(٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٠٨.

ألا يا حجر حجر بني عَدي تلقتك السلامة والسرور
أخاف عليك ما أردىٰ عدياً وشيخاً في دمشق له زئير
ألا يا ليت حجراً مات موتاً ولم ينحر كما نحر البعير
فإن تهلك فكل زعيم قوم من الدنيا إلى هُلكٍ يصيرُ[1]

٣ـ محمد بن أبي بكر

كان والياً للإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام على مصر. وكان معاوية قد ولىٰ عمرو بن العاص مصراً على أن يقتل محمد بن أبي بكر ويُدخلها تحت لواءه، فسار عمرو بن العاص لمحمد بن أبي بكر وجعل على مقدمته معاوية بن حديج، وخرج محمد بن أبي بكر لقتاله، وجعل على مقدمته كنانة بن بشر بن عتاب وبعد معركة قصيرة ما دامت سوىٰ ساعات تفرق عنه أصحابه، وقتل كنانة بن بشر فآوى محمد بن أبي بكر إلى خربة فأمسكوا به، وكاد يموت من العطش. فقال محمد: اسقوني ماءً.

فقال له معاوية بن حديج لا سقاك الله قطرة أبداً،

ثم قال له والله لأقتلنك يا ابن أبي بكر فيسقيك الله الحميم والغساق.

فقال له محمد: يا ابن اليهودية ليس ذلك إليك، ثم قال له معاوية أتدري ما أصنع بك؟ أدخلك في جوف حمار ثم أحرقه عليك بالنار.

فقال محمد: إن فعلتم بي ذلك، فطال ما فُعل ذلك بأولياء الله، وإني لأرجو أن تحرقني هذه النار التي تحرقني بها إن يجعلها الله عليّ بلاداً وسلاماً كما جعلها على خليله ابراهيم عليه السلام وأن يجعلها عليك وعلى أوليائك كما جعلها على نمرود وأولياءه إن الله يحرقك ومن ذكرته قبل وإمامك، يعني معاوية، وهذا وأشار إلى عمرو بن العاص، بنار تلظى عليكم كلما خبت زادهم الله سعيراً.

قال له معاوية: إني إنما أقتلك بعثمان. فقال له محمد: وما أنت وعثمان إن عثمان عمل بالجور ونبذ حكم القرآن وقد قال تعالىٰ: ﴿**ومن لم**

---

(١) الأغاني ج ١٧ ص ١٣٦ مقتل حجر بن عدي.

يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾[1] فنقمنا ذلك عليه فقتلناه، وحسّنت أنت له ذلك ونظراؤك فقد برأنا الله إن شاء الله من ذنبه وأنت شريكه في إثمه وعظيم ذنبه وجاعلك على مثاله.

قال: فغضب معاوية فقدمه فقتله ثم ألقاه في جيفة حمار ثم أحرقه رضوان الله عليه.

وقد ذكر الواقدي أنه بعد مقتل كنانة بن بشر لم يجد محمد بن أبي بكر مقاتلاً فاختبأ عند جبلة بن مسروق فدلّ عليه معاوية بن حديج فأحاط به فخرج محمد فقاتل حتى قتل رضوان الله عليه[2].

وقد جزع أمير المؤمنين عليه السلام لموته جزعاً شديداً ونعاه إلى الناس وترحم عليه.

٤ـ مالك بن الحارث الأشتر

كان من خلص أصحاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وكان يعتبر الساعد الأيمن للإمام، وقد وقف مع الإمام في حروبه كلها وقفة البطل وخصوصاً في صفين وبعد عودة الإمام من صفين إلى الكوفة، ولما انقضىٰ أمر الحكومة بين الامام أمير المؤمنين عليه السلام ومعاوية كتب أمير المؤمنين عليه السلام إلى مالك بن الحارث الأشتر وهو يومئذ بنصيبين: «أما بعد فإنك ممن استظهرته على إقامة الدين وأقمع به نخوة الأثيم وأشد به الثغر المخون وكنت وليت محمد بن أبي بكر مصر فخرجت عليه بها خوارج وهو غلام حدث ليس بذي تجربة للحرب ولا بمجرب للأشياء فأقدم علي لننظر في ذلك فيما ينبغي واستخلف على عملك أهل الثقة والنصيحة من أصحابك والسلام».

فأقبل مالك إلى علي عليه السلام حتى دخل عليه فحدثه حديث أهل مصر وخبرهُ خبر أهلها وقال: ليس لها غيرك، أخرج رحمك الله فإني إن لم

---

(١) المائدة ٤٧

(٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٧٩.

أوصك اكتفيت برأيك واستعن بالله على ما أهمك فاخلط الشدة باللين وارفق ما كان الرفق أبلغ واعتزم بالشدة حين لا يغنى عنك إلا الشدة.

قال الراوي: فخرج الأشتر من عند أمير المؤمنين فأتى رحله فتهيأ للخروج إلى مصر. وأتت معاوية عيونه فأخبروه بولاية الأشتر.

فعظم ذلك على معاوية وكان قد طمع في مصر فعلم أن الأشتر إن قدمها كان أشد عليه من محمد بن أبي بكر.

فبعث معاوية إلى الجايستار (رجل من أهل الخراج) فقال له أن الأشتر قد وُلي مصر فإن أنت كفيتنيه لم آخذ منك خراجاً ما بقيت فأحتل له بما قدرت عليه.

فخرج الجايستار حتى أتى القلزم، وأقام به وخرج الأشتر من العراق إلى مصر، فلما انتهى إلى القلزم استقبله الجايستار. فقال: هذا منزل وهذا طعام وعلف وأنا رجل من أهل الخراج، فنزل به الأشتر، فأتاه الدهقان بعلف وطعام حتى إذا طعم أتاه بشربة من عسل قد جعل فيها سماً، فسقاه إياه، فلما شربها مات رضوان الله عليه شهيداً.

ثم أقبل الذي سقاه السم إلى معاوية فأخبره بشهادة الأشتر فقام معاوية خطيباً وقال: أما بعد فإنه كانت لعلي بن أبي طالب يدان يمينان قُطعت أحداها في صفين (يعني عمار بن ياسر) وقطعت الأخرى اليوم (يعني الأشتر) وكان يقول إن لله جنوداً من عسل[1].

٥ـ عمرو بن الحمق الخزاعي

كان عمرو من خلص شيعة علي بن أبي طالب عليه السلام وهو الذي خاطب الإمام وقال: والله ما جئتك لمالٍ من الدنيا تعطينيه ولا لالتماس السلطان ترفع به ذكري. إلا لأنك ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وأولىٰ الناس بالناس وزوج فاطمة سيدة نساء العالمين وأبو الذرية التي بقيت لرسول الله صلى الله عليه وآله وأعظم سهماً للإسلام من المهاجرين والأنصار.

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٧١.

والله لو كلفتني نقل الجبال الرواسي ونزح البحور الطوامي أبداً حتى يأتي عليّ يومي وفي يدي سيفي أهزُّ به عدوّك وأقوي به وليك ويعلو به الله كعبك ويفلج به حجتك، ما ظننت أني أديت من حقك كل حقّ الذي يجب لك عليّ.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: اللهم نوّر قلبه باليقين وأهده الصراط المستقيم ليت في شيعتي مائة مثلك[1].

هذا وقد شهد له رسول الله ﷺ بالجنة في بدء إسلامه عندما مرّ به أصحاب رسول الله ﷺ وقد بعثهم في بعث. فقالوا: يا رسول الله ما معنا زاد ولا نهتدي الطريق. فقال ﷺ إنكم ستلقون رجلاً صبيح الوجه يطعمكم من الطعام ويسقيكم من الشراب ويهديكم الطريق هو من أهل الجنة.

فأقبلوا حتى انتهوا إلي (عمرو) في آخر النهار، يقول عمرو: فأمرت فتياني فنحروا جزوراً وحلبوا من اللبن فبات القوم يطعمون من اللحم ما شاؤوا ويسقون من اللبن، ثم أصبحوا، فقلت: ما أنتم بمنطلقين حتى تطعموا أو تزودوا. فضحك رجلٌ منهم مع صاحبه، فقلت: ولم ضحكت؟ فقال: أبشر ببشرىٰ الله ورسوله ﷺ، فقلت: وما ذاك؟ قال: فقال: بعثنا رسول الله ﷺ في هذا الفج وأخبرناه أنه ليس لنا زاد ولا هداية الطريق، فقال ﷺ ستلقون رجلاً صبيح الوجه يطعمكم من الطعام ويسقيكم من الشراب ويدلكم على الطريق من أهل الجنة، فلم نلق من يوافق نعت رسول الله ﷺ غيرك.

قال عمرو: فركبت معهم فأرشدتهم الطريق ثم انصرفت إلى فتياني وأوصيتهم بإبل، ثم سرت كما أنا إلى رسول الله ﷺ، حتى بايعت وأسلمت وأخذت لنفسي ولقومي أماناً من رسول الله ﷺ، إناآمنون على أموالنا ودمائنا إذا شهدنا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ وأقمنا الصلاة وآتينا الزكاة وَأقمِنا سهم الله ورسوله ﷺ. فإذا فعلتم ذلك فأنتم آمنون على أموالكم ودمائكم، لكم بذلك ذمة الله ورسوله ﷺ لا نعتدي عليكم من مال ولا دم.

---

(١) كتاب صفين لنصر بن مزاحم ص ٥٦ من الطبع الحجري.

فأقمت مع رسول الله ﷺ ما أقمت وغزونا معه غزوات وقبض الله رسوله ﷺ وكان عمرو بن الحمق الخزاعي من شيعة علي بن أبي طالب عليه السلام. فلما صار الأمر إلى معاوية بعد استشهاد الإمام عليه السلام انحاز عمرو بن الحمق إلى شهر زور من الموصل وكتب إليه معاوية كتاباً يعطيه فيه الأمان ويمنيه ويعده الخير وأمره بالقدوم إليه.

فلم يقدم عمرو بن الحمق على معاوية معرفةً منه به فبعث إليه من قتله وجاء برأسه إلى معاوية، وبعث معاوية بالرأس إلى زوجته، فوضع الرأس في حجرها، فقالت: سترتموه عني طويلاً وأهديتموه إلى قتيلاً فأهلاً وسهلاً من هدية غير قالية ولا مقلية، طلب الله بدمه وعجل الويل من نقمه فقد أتىٰ (معاوية) أمراً فرياً وقتل باراً تقياً[1].

وكان رأس عمرو بن الحمق الخزاعي أول رأس طيف به في الإسلام. وقد حمل إلى معاوية في دمشق.

٦ـ الذين قتلوا في الغارات

بعث معاوية بسر بن أرطأة بعد تحكيم الحكمين وعلي بن أبي طالب عليه السلام يومئذ حي ووجه مع بسر جيشاً وبعث برجل من غامد ووجه معه جيشاً آخر وبعث الضحاك بن قيس الفهري في جيش آخر.

وأمرهم أن يسيروا في البلاد فيقتلوا كل من وجدوه من شيعة علي بن أبي طالب عليه السلام وأصحابه وأن يغيروا على سائر عماله ويقتلوا أصحابه، ولا يكفُّوا أيديهم عن النساء والصبيان، فمضىٰ بُسر لذلك على وجهه، حتى انتهىٰ إلى المدينة فقتل بها أناساً من أصحاب علي عليه السلام وهدم بها دوراً من دور القوم ومضىٰ إلى مكة فقتل نفراً من آل أبي لهب ثم أتى السَّراة، فقتل بها من أصحابه وأتى نجران، فقتل عبد الله بن عبد المدان الحارثي وابنه، وكانا من أصهار بني العباس ثم أتى اليمن وعليها عبيد الله بن العباس عاملاً لعلي بن أبي طالب وكان غائباً وقيل بل هرب لما بلغه خبر بُسر فلم

---

(١) مقتل عمرو بن الحمق / تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٨٧، الأغاني ج ١٧ ص ١٣٦، عيون الأخبار ج ١ ص ١٤٧.

يصادفه بُسر، ووجدوا ابنين له صبيين، فأخذهما بُسرٌ لعنه الله وذبحهما بيده بمديةٍ كانت معه، ثم انكفأ راجعاً إلى معاوية وفعل ذلك سائر من بعث به فقصد الغامدي إلى الأنبار فقتل ابن حسان البكري وقتل رجالاً ونساء من الشيعة[1].

ولما بلغ الخبر لأمير المؤمنين عليه السلام خطب خطبة بليغة في فضل الجهاد وذكر خبر غارة الغامدي على الأنبار منها: «وهذا أخو غامدٍ وقد وردت خيله الأنبار وقد قتل حسان بن حسان البكري وأزال خيلكم عن مسالحها ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرىٰ المعاهدة فينتزع حجلها وقلبها وقلائدها ورُعُثها ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام ثم انصرفوا وافرين ما نال رجلاً منهم كلمٌ ولا أريق لهم دم، فلو أن امرءاً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً بل كان به عندي جديراً[2].

٧ ـ الصحابة الذين قتلوا في صفين

١ـ عمار بن ياسر.
٢ـ عبد الله بن بديل بن ورقاء.
٣ـ خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين.
٤ـ سعد بن الحارث بن الصمة.
٥ـ أبو عمرة بشير بن عمرو بن محصن.
٦ـ هاشم بن عتبة بن أبي وقاص.
٧ـ أبو فضالة الأنصاري.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي بن أبي طالب عليه السلام: «أنت تقاتل من بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين».

فقد وصف رسول الله صلى الله عليه وآله معاوية وأصحابه بالقاسطين وقد وصفهم في مكان آخر بالفئة الباغية عندما بشر عمار بشهادته في سبيل الله.

---

(١) الأغاني ج ١٦ ص ٢٦٦ بولاق ١٥/٤٤.
(٢) نهج البلاغة خطبة ٢٧.

ومن الصحابة الذين قتلوا في صفين خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين الذي شهد له رسول الله ﷺ أن شهادته تعدل شهادتين.

فعن عمارة بن خزيمة بن ثابت قال: شهد خزيمة بن ثابت الجمل وهو لا يَسُل سيفاً وشهد صفين وكان يقول: «أنا لا أضل أبداً حتى يقتل عمار فأنظر من يقتله فأني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقتله الفئة الباغية». قال: فلما قتل عمارَ بن ياسر أبو العادية طعنه برمح فسقط وكان يومئذ يقاتل في مَحفَّة. فقتل يومئذ وهو ابن أربع وتسعين فلما وقع أكبَّ عليه رجل آخر فأحتز رأسه. فأقبلا يختصمان فيه، كلاهما يقول: أنا قتلته. فقال عمرو بن العاص: والله أن يختصمان إلا في النار، فسمعها منه معاوية. فلما انصرف الرجلان قال معاوية لعمرو: ما رأيت مثل ما صنعت، قومٌ بذلوا أنفسهم دوننا، تقول لهما إنكما تختصمان في النار. فقال عمرو: هو والله ذاك، والله إنك لتعلمه ولوَددت اني مت قبل هذا بعشرين سنة[1].

وبهذا المختصر يكتفي القارىء بمعرفة واقع معاوية الدموي وما نالته يداه من التلطخ بدماء الأبرياء والأتقياء من الصحابة والتابعين الذين ساروا على سُنة رسول الله ﷺ وأخذوا بقوله الشريف في إتباع العترة الطاهرة: «أني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي»، لكن معاوية كان ينتهج منهج الطغاة، إذ كانت التصفية الجسدية هي الوسيلة المفضلة عند الطغاة والظلمة للتخلص من أعدائهم ومعارضيهم في العهد الأموي والعباسي والتاريخ يشهد بذلك وسوف نعرض لك خلال مطالعة الكتاب من تلك النماذج.

والسبب أن الظلمة والطغاة كانوا يفتقرون إلى الأدلة والبراهين لتبرير أعمالهم وتصرفاتهم، وكانوا مطية طائعة لهوىٰ النفس والرغبات والشهوات. وقد قال رسول الله ﷺ: «أخوف ما أخاف على أمتي أتباع الهوىٰ وطول الأمل أما أتباع الهوىٰ فيصدّ عن الحق وأما طول الأمل فينسي الآخرة». هذا مضافاً إلى خوفهم من أصحاب المبادىء الإلهية بأعتبارهم حملة الدليل القاطع والبرهان الساطع وحملة القرآن والسنة الشريفة.

---

(١) ذيل المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين/ نهاية الطبري ج ٨ ص ١٥

وقد صنف أبو الفرج الاصفهاني كتابه مقاتل الطالبيين وهو كتاب جمع فيه من قتل من آل أبي طالب، والمطالع لهذا الكتاب يخرج بهذه النتيجة. أن هذه الذرية الطيبة وهؤلاء العظماء راحوا ضحية لمطامع وشهوات الحكام والأمراء في العهد الأموي والعباسي. وكانوا ممن نالته سياسة التصفية الجسدية.

حب الجاه

امتاز معاوية بحبه للجاه والمقام والكرسي.

فكل الويلات التي جرها على الأمة، والمظالم التي ارتكبها والمجازر التي سوّد بها صفحات التاريخ كانت نتيجة لتلك الغريزة. وهي التي ذكرها القرآن الكريم في الآية الشريفة **﴿وتلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين..﴾**[1].

وقد أشار القرآن إلى أمر مهم في الآية. وهو أنه جعل إرادة العلو في الأرض مقرونه للإفساد في الأرض. وما من أحدٍ صار عبداً لهذه الغريزة والشهوة ونال منها إلا أتبعه الافساد في الأرض، والتاريخ يشهد بذلك.

نرى في التاريخ الكثير ممن طلب السلطة بغير الحق ونال منها قرن عمله بالافساد في الأرض ومعاوية واحد من أولئك الكثيرين الذين تجلت فيهم غريزة العلو والاستعلاء على الآخرين وفرض السيطرة على رقاب الناس الذين تناسوا هذه الآية الكريمة وقد قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في خطبته الشقشقية في نهج البلاغة: **«بلى والله لقد سمعوها ووعوها ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجها، أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء إلا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس أولها ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز»**[2].

وفي مكان آخر يقول: **«ما لعليٍ ولنعيم يفنىٰ ولذة لا تبقىٰ»**[3].

---

(١) القصص ٨٣

(٢) نهج البلاغة خطبة ٣

(٣) نهج البلاغة خطبة ٢٢٤

ولا عجب فأمير المؤمنين أحد الخمسة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، الذين برأهم الله من العيوب والرذائل.

وقد اخترت هنا بعض الصور ليتعرف القارىء الكريم على معاوية وما في نفسه من غرائز وشهوات. ففي أيام امارته للشام:

روىٰ أبو محمد الاموي قال خرج عمر بن الخطاب إلى الشام فرأىٰ معاوية في موكب يتلقاه وراح إليه في موكب فقال له عمر: يا معاوية تروح في موكب وتغدو في مثله وبلغني أنك تصبح في منزلك وذوو الحاجات ببابك.

قال: يا أمير المؤمنين إن العدو بها قريب منا ولهم عيون وجواسيس فأردت يا أمير المؤمنين أن يروا للإسلام عزاً[1].

وأي عز للإسلام من وقوف ذوي الحاجات بباب السلطان، لكن لو قال: «فأردت أن يروا حب السلطان للجاه» كان أصدق.

وأغلظ له رجل فحلُم عنه فقيل له: أتحلم عن هذا؟ فقال:

إنني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يَحولوا بيننا وبين سلطاننا[2].

وكان معاوية يتنقل بين كور الشام فنزل منزلاً فبسط له على ظهر أَجار مشرف على الطريق، قال الراوي هو عبد الله بن مسعدة فقعدت معه فمرت القطرات والرحائل والجواري والخيول.

فقال معاوية: يا ابن مسعدة إن أبا بكر لم يرد الدنيا ولم ترده الدنيا، وأما عمر أو قال ابن ختمة فأرادته الدنيا ولم يردها، وأما عثمان فأصاب من الدنيا وأصابت منه وأما نحن فتمرغنا فيها (ثم كأنه ندم) فقال والله إنه لملك آتانا الله إياه[3].

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٤٤.
(٢) عيون الأخبار ج ١ ص ١٤.
(٣) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٤٧.

والعجب كل العجب من قوله إنه لملك آتانا الله إياه ونسي كم أهرق من دماء المسلمين للوصول إلى الملك.

وذُكر أنه كان أول من اتخذ الحرس وكان صاحب أمره سرجون الرومي[1].

ولم يكن لمعاوية رادع عن ارتكاب أية جريمة في سبيل الوصول إلى شهواته وإن كانت الجريمة هي قتل أعوانه وأصحابه الذين ناصروه على بغيه وعدوانه.

فعندما أراد أن يأخذ العهد ليزيد، قال لأهل الشام: انه قد كبرت ورق جلدي ودق عظمي وأقترب أجلي وأريد أن أستخلف عليكم، فمن ترون؟

فقالوا: عبد الرحمن بن خالد بن الوليد. فسكت وأضمرها.

ودس ابن أثال الطبيب إليه، فسقاه سماً فمات[2].

وعبد الرحمن هذا من الذين وقفوا مع معاوية في صفين في وجه الحق وقاتل إمام زمانه أمير المؤمنين عليه السلام وكان يعتبر عضداً لمعاوية، فكان هذا جزاؤه.

فالذي كان هذا شأنه مع صديقه وعضده كيف لا يقدم على قتل ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسيد شباب أهل الجنة ومن وقف مع أبيه سيد الوصين يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين؟! إذ كان من أهم أهداف معاوية إبادة الذرية الطاهرة لرسول الله صلى الله عليه وآله انتقاماً لآبائه وأجداده ومن قتل منهم في بدر.

فلما عزم على أخذ البيعة لابنه يزيد لم يكن شيء أثقل عليه من أمر الحسن بن علي عليهما السلام.

فدس معاوية سُماً إلى جعدة بنت الأشعث بن قيس وكانت زوجة الإمام الحسن عليه السلام وحملها على سمه وضمن لها أن يزوجها بابنه يزيد وأرسل إليها مائة ألف درهم وفي رواية عشرة آلاف دينار وأقطعها إقطاعات

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٤٣.

(٢) الأغاني ج ١٦ ص ١٩٧ بولاق ١٣/ ١٥.

كثيرة من شعب سوراء وسواد الكوفة، فسقته جعدة السم فسوغها المال ولم يزوجها من يزيد[1].

وراح سيدُ شباب أهل الجنة ضحية لشهوات هذا الطاغي العنيد الذي لم يراع حرمة هذا الدم الطاهر ولم يعبأ لنداء القرآن الكريم: ﴿**قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربىٰ**﴾[2].

وكانت تتجلى غريزة حب الجاه والسلطان في معاوية وفي بعض كلماته ومقولاته.

منها ما ذكره ابن قتيبة الدينوري في عيون الأخبار.

أن معاوية قدم المدينة فدخل دار عثمان فقالت عائشة بنت عثمان: وا أبتاه وبكت.

فقال معاوية: «يا ابنة أخي إن الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أماناً وأظهرنا لهم حلماً تحته غضب وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد ومع كل إنسان سيفه وهو يرىٰ مكان أنصاره، فإن نكثنا بهم نكثوا بنا ولا ندري أعلينا تكون أم لنا، ولأن تكوني بنت عم أمير المؤمنين خيرٌ من أن تكوني امرأة من عرض المسلمين»[3].

من هذه المقولة تعرف مدىٰ تشبث معاوية بالسلطة والمقام وكان يمتاز بصفات السلاطين من الفرس والروم وأخذ من سيرتهم الكثير تاركاً سيرة سيد البشر وخاتم النبيين محمد ﷺ منها أنه كان يحجب الناس عن بابه.

وقد استأذن سعد بن مالك على معاوية فحجبه فهتف بالبكاء فأتى إليه الناس وقالوا: ما يبكيك يا سعد؟

فقال سعد: ومالي لا أبكي وقد ذهب الأعلام من أصحاب رسول الله ﷺ ومعاوية يلعب بهذه الأمة[4].

---

(١) الكامل لابن الأثير، مقاتل الطالبيين.

(٢) الشورى ٢٣

(٣) عيون الأخبار ج ١ ص ١٤.

(٤) المستطرف ص ٩٣.

وخطب مروان يوماً فقال: إن أمير المؤمنين رأى أن يستخلف عليكم ولده يزيد سُنَّة أبي بكر وعمر فقام عبد الرحمن بن أبي بكر فقال: بل سُنة كسرىٰ وقيصر إن أبا بكر وعمر لم يجعلاها في أولادهما[1].

وعن سعيد بن جمهان قال: قلت لسفينة إن بني أمية يزعمون أن الخلافة فيهم.

قال: كذب بنو الزرقاء، بل هم ملوك من أشد الملوك وأول الملوك معاوية[2].

ومن إقباله على اللذات والدنيا ما ذكره في المستطرف.

أن معاوية قال: نكحت النساء حتى ما أفرق بين امرأة وحائط وأكلت الطعام حتى لا أجد ما أستمرئه وشربت الأشربة حتى رجعت إلى الماء وركبت المطايا حتى اخترت نعلي ولبست الثياب حتى اخترت البياض فما بقي من اللذات ما تتوق إليه نفسي إلا محادثة أخٍ كريم[3].

والذي يفهم من كلامه أنه لم يكن له جليس كريم فجلسائه إما كانوا من بني أمية أو من حواشي السلطان المتملقين له والطامعين في دولته.

هكذا كان شأن الخليفة، وقد ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ توفي ولم يشبع يومين من بُرٍ قط.

وعن سعيد بن سويد قال: صلىٰ بنا معاوية بالنخيلة ـ يعني خارج الكوفة ـ الجمعة في الأضحىٰ ثم خطبنا فقال: «ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا، وقد عرفت أنكم تفعلون ذلك، ولكن إنما قاتلتكم لأتأمَر عليكم، فقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون»[4].

إن لم تكن كلمات معاوية تخرج من قلبه وتعبّر عن نواياه وأطماعه الحقيقية إلا أن هذه الكلمة خرجت من أعماق قلبه الحاقد على الدين

---

(١) تاريخ السيوطي ص ١٩٦.

(٢) تاريخ السيوطي ص ١٩٩.

(٣) المستطرف ص ١١٩.

(٤) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٣١.

والإسلام وترجمتْ حقيقة صراعِه مع الحق خلال سنوات عمره قبل إسلامه وبعده.

البدع

من أهم الأمور التي نَقِمها الناس على بني أمية ومعاوية البدع التي أظهرها معاوية في عهده وقد سنّ بعضها بين الناس سنة سيئة. وبما أن عهد معاوية كان قريباً من عهد الرسالة وكان الناس يتذاكروا كلام الرسول ﷺ وأحاديثه وسنته الشريفة وسيرة الصحابة الذين ساروا على نهج رسول الله ﷺ، لذلك كان لهذه البدع وقع خاص في آذان الناس الذين لم ينسوا حديث رسول الله ﷺ حيث قال:

«شر الأمور محدثاتها ألا وكل بدعة ضلالة ألا وكل ضلالة ففي النار»[1].

والحديث الآخر عن رسول الله ﷺ: «إياك أن تسن سنة بدعة فإن العبد إذا سن سنة سيئة لحقه وزرها ووزر من عمل بها»[2].

وقد سأل رسول الله ﷺ عمن أحدث حدثاً أو آوىٰ محدثاً من هو؟

فقال: من ابتدع بدعة في الإسلام أو مثل بغير حدّ أو من انتهب نهبة يرفع المسلمون إليها أبصارهم، أو يدفع عن صاحب الحدث أو ينصره أو يعينه[3].

وقال ﷺ: أهل البدع شرّ الخلق والخليقة[4].

بعد ذلك، تعال ـ أيها القارىء ـ لنستشرف معاً بعض البدع التي ابتدعها الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان.

---

(١) بحار الأنوار ج ٢ ص ٣٠١.
(٢) بحار الأنوار ج ٧٧ ص ١٠٤.
(٣) بحار الأنوار ج ٢ ص ٢٩٩.
(٤) كنز ص ٢١٨.

ذكر أبو مخنف عن الصقعب بن زهير عن الحسن قال أربع خصال كن في معاوية لو لم يكن فيه منهن إلا واحدة لكانت موبقة. انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزوها أمرها بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصحابة وذوي الفضيلة، واستخلافه ابنه بعده سكيراً خميراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير، وادعاؤه زياداً وقد قال رسول الله ﷺ الولد للفراش وللعاهر الحجر، وقتله حجراً، ويلاً له من حجر وأصحاب حجر مرتين[1].

ويلاحظ هنا أن هذه الشهادة ضد معاوية صدرت من أحد المؤيدين لنظام الحكم الأموي وأحد المدافعين عنه وهو الحسن البصري، إذ لم يذكر الحسن البصري من موبقات معاوية سمه للإمام الحسن المجتبىٰ عليه السلام بينما يعد منها قتله لحجر (رض)، والحسن عليه السلام لا شك أسمى مرتبة وأعظم منزلة من حجر (رض).

ويعتبر استلحاق زياد بن أبيه من أكبر البدع التي ابتدعها معاوية في الإسلام.

وزياد هو زياد بن عبيد ويذكره الناس تارة زياد بن أبيه وتارة زياد بن سمية وسمية كانت أمةً للحارث بن كلدة الثقفي، طبيب العرب وكانت تحت عبيد.

وقد روىٰ ابن عبد البر في الاستيعاب عن هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه عن أبي صالح عن ابن عباس، أن عمر بعث زياداً في إصلاح فساد وقع باليمن، فلما رجع من وجهه خطب عند عمر خطبة لم يُسمع مِثلها ـ وأبو سفيان حاضر وعليٌ عليه السلام وعمرو بن العاص ـ فقال عمرو بن العاص: لله أبو هذا الغلام! لو كان قرشياً لساق العرب بعصاه؟

فقال أبو سفيان: إنه لقرشي وأني لأعرف الذي وضعه في رحم أمه، فقال علي عليه السلام ومن هو؟ قال: أنا.

فقال: مهلاً يا أبا سفيان. فقال أبو سفيان:

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٠٨.

أمـا واللهِ لـولا خـوفُ شـخـصٍ يـرانـي يـا عـلـيٌّ مـن الأعـادي
لأظـهـر أمـره صـخـر بـن حـربٍ ولـم يخـفِ الـمـقـالـة فـي زيـاد
وقـد طـالـت مُـجـامَـلـتي ثـقـيـفـاً وتـركـي فـيـهـم ثَـمـر الـفـؤادِ[1]

وذكر الرضي في نهج البلاغة كتاباً لأمير المؤمنين عليه السلام إلى زياد بن أبيه وقد بلغه أن معاوية كتب إليه يريد خديعته واستلحاقه:

«وقد عرفتُ أن معاوية كتب إليك يَستزلُّ لُبكَ ويستفلُ غَربَكَ، فاحذرهُ فإنما هو الشيطانُ يأتي المرءَ من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ليقتحم غفلتهُ ويستلب غِرَّتَهُ.

وقد كان من أبي سفيان في زمن عمر بن الخطاب فلتةٌ من حديث النفس ونزغةٌ من نزغات الشيطان، لا يثبتُ بها نسبٌ ولا يستحق بها أرثٌ والمتعلق بها كالواغلِ المدفع والنَّوطِ المذبذب».

فلما قرأ زيادٌ الكتاب قال: شهدَ بها ورب الكعبة، ولم تزل في نفسه حتى ادعاهُ معاوية[2].

وكتب إليه معاوية كتاباً ادعاه فيه أخاً له وكتابه: من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن أبي سفيان، أما بعد فإن المرء ربما طرحه الهوىٰ في مطارح العطب وإنك للمرءُ المضروب به المثل، قاطع الرحم وواصل العدو وحملك سوءُ ظنك بي وبغضُك لي على أن عققت قرابتي وقطعت رحمي وبتت نسبي وحُرمتي، حتى كأنك لست أخي وليس صخر بن حرب أباك وأبي وشتان ما بيني وبينك، أطلب بدم ابن أبي العاص وأنت تقاتلني ولكن أدركك عِرق الرخاوة من قبل النساء، الخ...»

فلما بلغ الكتاب زياداً صعد المنبر وقال: أيها الناس: ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم وارغبوا إلى الله في دوام العافية لكم، فقد نظرتُ في أمور الناس منذ قتل عثمان وفكرت فيهم فوجدتهم كالأضاحي في كل عيدٍ يذبحون ولقد أفنىٰ هذان اليومان ـ الجمل وصفين ـ ما ينيف على مائة ألف

---

(١) شرح نهج البلاغة ج ١٦ ص ١٨٠.
(٢) نهج البلاغة كتاب ٤٤.

كلهم يزعم أنه طالبُ حق وتابع إمام وعلى بصيرة من أمره، فإن كان الأمر هكذا فالقاتل والمقتول في الجنة، كلا ليس كذلك ولكن أشكل الأمر والتبس على القوم وإني لخائفٌ أن يرجع الأمر كما بدا، فكيف لامرىء بسلامة دينه، وقد نظرت في أمر الناس فوجدتُ أحدَ العافية وسأعمل في أموركم ما تحمدون عاقبته ومغبته فقد حمدت طاعتكم إن شاء الله ثم نزل[1].

وكتب جواب الكتاب إلى معاوية:

«أما بعد فقد وصل كتابك وفهمتُ ما فيه فالحمد لله الذي عرفك الحق وردك إلى الصلة ولست ممن يجهل معروفاً ولا يغفل حسباً الخ...».

فأعطاه معاوية جميع ما سأله وكتب إليه بخط يده ما وثق به فدخل إليه الشام فقربه وأدناه وأقره على ولايته ثم استعمله على العراق[2].

وروى علي بن محمد المدائني قال: لما أراد معاوية استلحاق زيادٍ وقد قدم عليه الشام جمع الناس وصعد المنبر، وأصعد زياداً معه فأجلسه بين يديه على المرقاة التي تحت مرقاته، وحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس إني قد عرفتُ نسبنا أهل البيت في زيادٍ، فمن كان عنده شهادة فليقم بها. فقام ناس فشهدوا أنه ابن أبي سفيان وأنهم سمعوا ما أقرّ به قبل موته.

فقام أبو مريم السلولي ـ وكان خماراً في الجاهلية ـ فقال أشهدُ يا أمير المؤمنين أن أبا سفيان قدم علينا بالطائف، فأتاني فاشتريت له لحماً وخمراً وطعاماً، فلما أكل قال: يا أبا مريم، أصب لي بغياً.

فخرجت فأتيتُ بسُمَيّة فقلت لها: إن أبا سفيان ممن قد عرفت شرفه وجُودَه وقد أمرني أن أصيب له بغياً، فهل لك؟

فقالت: نعم، يجيء الآن عُبيد بغنمه ـ وكان راعياً ـ فإذا تعشىٰ وضع رأسه أتيته، فرجعتُ إلى أبي سفيان فأعلمتُه، فلم تلبث أن جاءت تجرّ

---

(١) شرح نهج البلاغة ج ١٦ ص ١٨٤.

(٢) شرح نهج البلاغة ج ١٦ ص ١٨٦.

ذيلها، فدخلت معه، فلم تزل عنده حتى أصبحتْ فقلت له لما انصرفت: كيف رأيت صاحبتك؟ قال: خير صاحبة لولا ذفرٌ في أبطيها.

فقال زياد من فوق المنبر: يا أبا مريم، لا تشتم أمهات الرجال، فتشتم أمك.

فلما انقضى كلام معاوية ومناشدته قام زياد، وأنصت الناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إن معاوية والشهود قد قالوا ما سمعتم، ولستُ أدري حق هذا من باطِله وهو والشهود أعلم بما قالوا، وإنما عبيد أبٌ مبرور ووالٍ مشكور. ثم نزل[1].

وروي أن زياداً مرَّ وهو والي البصرة بأبي العريان العدوي وكان شيخاً مكفوفاً، ذا لَسَنٍ، وعارضة شديدة ـ فقال أبو العريان: ما هذه الجلبة؟

قالوا زياد بن أبي سفيان، قال: والله ما ترك أبو سفيان إلا يزيد ومعاوية وعتبة وعنبسة وحنظلة ومحمداً، فمن أين جاء زياد؟

فبلغ الكلام زياداً وقال له قائل: لو سددتَ عنك فم هذا الكلب؟

فأرسل إليه بمائتي دينار، فقال له رسول زياد: إن ابن عمك زياداً الأمير قد أرسل إليك مائتي دينار لتنفقها، فقال: وصلته رحم! أي والله ابن عمي حقاً، ثم مرّ به زياد من الغد في موكبه، فوقف عليه فسلّم، وبكى أبو العُريان، فقيل له: ما يبكيك؟

قال: عرفت صوتَ أبي سفيان في صوت زياد. فبلغ ذلك معاوية، فكتب إلى أبي العريان.

ما ألبثتك الدنانيرُ التي بُعثت ... أن لونتك أبا العريانِ ألوانا
أمسىٰ إليك زياد في أرومته ... نكراً فأصبح ما أنكرت عِرفانا
لله درُّ زياد لو تعجلها ... كانت له دون ما يخشاه قربانا

فلما قُرِئَ كتاب معاوية على أبي العريان قال: اكتب جوابه يا غلام:

أحدِث لنا صلة تحيا النفوس بها ... قد كدتَ يا ابن أبي سفيان تنسانا

---

(١) شرح نهج البلاغة ج ١٦ ص ١٨٧.

أما زيادٌ فقد صَحت مناسِبُه عندي فلا أبتغي في الحق بهتانا
من يُسدِ خيراً يصبه حين يفعله أو يُسدِ شراً يصبه حيثما كانا[1]

وكان الحجاج حاقداً على آل زياد ينفيهم من آل أبي سفيان ويقول: «آل أبي سفيان سُتهُ حُمش[2] وآل زياد رُسحٌ حُدل[3]»[4].

ولقد تحولت قضية استلحاق معاوية لزياد إلى مهزلة تثير المشاعر، وأخذ الشعراء يتداولونها في أشعارهم مستهزئين بها، ناعين على معاوية شناعة فعله.

فعن الهيثم بن عدي: لما أدعىٰ معاوية زياداً قال عبد الرحمن بن الحكم في ذلك ـ والناس ينسبونها إلى ابن مفرغ لكثرة هجائه زياداً وذلك غلط ـ قال:

ألا أبلغ معاوية بن حربٍ مغلغلةً من الرجل الهجانِ
أتغضب أن يقال أبوك عفٌّ وترضىٰ أن يقال أبوك زانِ
فأشهد أن رحمك من زياد كرحم الفيل من ولدِ الاتان
وأشهد أنها ولدت زياداً وصخرٌ من سمية غير داني

فبلغ ذلك إلى معاوية بن حرب فحلف ألا يرضىٰ عن عبد الرحمن حتى يرضىٰ عنه زياد، فخرج عبد الرحمن إلى زياد. فلما دخل عليه قال له: أيهِ يا عبد الرحمن أنت القائل:

ألا أبلغ معاوية بن حرب مغلغلة من الرجل الهجانِ

قال: لا أيها الأمير. ما هكذا قلت ولكني قلت:

ألا من مبلغ عن زياداً مغلغلة من الرجل الهجان
لأنت زيادةٌ في آل حرب أحبُّ إلي من وسطي بناني

إلى آخرها

---

(١) شرح نهج البلاغة ج ١٦ ص ١٨٧.
(٢) أي عظام الاستاه ودقاق السوق.
(٣) وهو قليل لحم العجز والحدل الذي أشرف أحد عاتقيه على الآخر.
(٤) الأغاني ج ٦ ص ١٩٢، بولاق ج ٦ ص ٢٥.

فرضي عنه زياد وكتب بذلك إلى معاوية، فلما دخل عليه بالكتاب قال: أنشدني ما قلت لزياد. فأنشده، فتبسم ثم قال: قبح الله زياداً ما أجهله والله ما قلت له خيراً. حيث تقول: لأنتَ زيادةٌ في آل حرب، شرٌّ من قولك الأول ولكنك خدعته فجازت خديعتك عليه!![1].

وأما أشعار يزيد بن مفرغ الحميري وهجاؤه عبيد الله وعباداً ابني زياد بالدعوة فكثيرة مشهورة نحو قوله:

أعبادُ ما للؤم عنك تحولٌ ... ولا لك أمٌّ من قريش ولا أبُ
وقل لعبيد الله مالك والدٌ ... بحق ولا يدري امرؤ كيف تنسبُ

ونحو قوله:

شهدت بأن أمك لم تباشِر ... أبا سفيان واضعة القناعِ
ولكن كان أمرٌ فيه لبسٌ ... على حذرٍ شديد وارتياعِ
إذا أودىٰ معاوية بن حرب ... فبشر شعب قعبك بانصداعِ[2]

ومن الأمور التي ابتدعها معاوية كما ورد في التاريخ:

قال الشعبي: أول من خطب الناس قاعداً معاوية، وذلك حين كثر شحمه وعظم بطنه.

وقال الزهري: أول من أحدث الخطبة قبل الصلاة في العيد معاوية.

وقال سعيد بن المسيب: أو من أحدث الأذان في العيد معاوية وأول من نقص التكبير معاوية.

وأول من قيل له: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، الصلاة يرحمك الله[3].

وذكر السلامي أن رسول الله ﷺ كان يتختم في يمينه والخلفاء بعده، فنقله معاوية إلى اليسار وأخذ الأموية بذلك[4].

---

(١) الأغاني ج ١٣ ص ٢٦٥، بولاق ٧٥ج ١٢، تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٣٥.
(٢) شرح نهج البلاغة ج ١٦ ص ١٩١.
(٣) تاريخ السيوطي ص ٢٠٠.
(٤) المستطرف ص ٢٨ ج ٢.

ومنها أنه حمل الرؤوس من بلد لآخر وأول رأس حمل في الإسلام كان رأس عمرو بن الحمق الخزاعي حُمل إلى معاوية[1].

ومنها إن معاوية أمر الناس بالعراق والشام وغيرهما بسب علي عليه السلام والبراءة منه.

وخطب بذلك على منابر الإسلام، وصار ذلك سنة في أيام بني أمية إلى أن قام عمر بن عبد العزيز فأزاله.

وذكر الجاحظ أن معاوية كان يقول في آخر خطبة الجمعة: «اللهم إن أبا تراب ألحد في دينك وصد عن سبيلك فالعنه لعناً وبيلاً، وعذبه عذاباً أليماً»، وكتب بذلك إلى الافاق، فكانت هذه الكلمات يشار بها على المنابر، إلى خلافة عمر بن عبد العزيز وروى الجاحظ أن قوماً من بني أمية قالوا لمعاوية: يا أمير المؤمنين إنك قد بلغت ما أملت. فلو كففت عن لعن هذا الرجل! فقال: لا والله حتى يربو عليه الصغير ويهرم عليه الكبير، ولا يذكر له ذاكرٌ فضلاً.

وأمر المغيرة بن شعبة ـ وهو يومئذ أميرالكوفة من قبَل معاوية ـ حجر بن عدي أن يقوم في الناس، فليلعن علياً عليه السلام، فأبىٰ ذلك، فتوعّده، فقام فقال: أيها الناس، إن أميركم أمرني أن ألعن علياً فالعنوه. فقال أهل الكوفة: لعنه الله وأعاد الضمير إلى المغيرة بالقصد.

وأراد زياد أن يعرض أهل الكوفة أجمعين على البراءة من علي عليه السلام ولعنه وأن يقتل كل من امتنع عن ذلك، ويُخرِّب منزله، فضربه الله ذلك اليوم بالطاعون فمات ـ لا رحمه الله ـ بعد ثلاثة أيام وذلك في خلافة معاوية[2].

ومن البدع التي ابتدعها معاوية إبطاله الحد عن عبد الرحمن بن سيحان بعدما ضربه مروان بن الحكم الحد ثمانين سوطاً في شربه الخمر.

فعندما بلغ معاوية الخبر، غضب وقال والله لو كان حليف أبي العاص

---

(١) الأغاني ج ١٧ ص ١٤٤.

(٢) شرح نهج البلاغة ج ٤ ص ٥٦.

لما ضربه ولكنه ضربه لأنه حليف حَرب، أليس هو الذي يقول:

وأنى امرؤٌ حلفٌ إلى أفضل الورىٰ عديداً إذا ارفَضَّت عصا المُتحلِّف

كذب والله مروان، لا يضربه في نبيذ أهل المدينة وشكِّهم وحُمقهم. ثم قال لكاتبه: اكتب إلى مروان فليبطل الحدَّ عن ابن سيحان وليخطب بذلك على المنبر، وليَقُل أنه كان ضربه في شبهة ثم بان له أنه لم يشرب مسكراً وليُعطه ألفي درهم، فلما ورد الكتاب على مروان، عظم ذلك عليه فلما كان يوم الجمعة وفرغ من الخطبة قال:

وابن سيحان فإنا كشفنا أمره فإذا هو لم يشرب مسكراً وإذا نحن قد عَجَّلنا عليه وقد أبطلت عنه الحد ثم نزل فأرسل إليه بألفي درهم[1].

وقد ذكر ابن أبي الحديد المعتزلي السني في شرح نهج البلاغة:

إن معاوية كان مهتوك ستره، فإنه كان كثير الهزل والخلاعة، صاحب جُلساء وسمّار ومعاوية لم يتوقر، ولم يلزم قانون الرياسة إلا منذ خرج على أمير المؤمنين، واحتاج إلى الناموس والسكينه، وإلا فقد كان في أيام عثمان شديد التهتك موسوماً بكل قبيح وكان في أيام عمر يستر نفسه قليلاً خوفاً منه، إلا أنه كان يلبس الحرير والدِّيباج ويشرب في آنية الذهب والفضة ويركب البغلات ذوات السروج المحلاة بها وعليها جلال الديباج والوشى وكان حينئذ شاباً وعنده نزق الصِّبا وأثر الشبيبه وسكر السلطان والامرة.

ونقل الناس عنه في كتب السيرة أنه كان يشرب الخمر في أيام عثمان في الشام وأما بعد وفاة أمير المؤمنين واستقرار الأمر له فقد أُختُلِفَ فيه أنه شرب الخمر في ستر، وقيل انه لم يشربه.

ولا خلاف في أنه سمع الغناء وطرب عليه وأعطى ووصل عليه أيضاً[2].

فهل مثل هذا الرجل يترحم عليه أو يطلب رضىٰ الله له بعدما ألحد

---

(١) الأغاني ج ٢ ص ٢٤٦، بولاق ج ٢ ص ٨١.

(٢) شرح نهج البلاغة ج ١٦ ص ١٦١.

في دين الإسلام وسنّ البدع في أحكام الله عز وجل ونابذ القرآن الكريم وما جاء به الرسول الأمين وهل رضىٰ الله عز وجل منوط بقول بعض الجهلة والمغفلين ناهيك عمن يعتبره خليفة لرسول الله ﷺ وأميناً لوحيه، لكن السياسة الأموية ترفع من تشاء، حتى يكون خليفة لرسول الله ﷺ وأميناً على وحيه وتنزلُ وصيٌّ رسول الله ووارث علمه وخليفته في أمته حتى يسب ستين سنة على منابر الإسلام.

التنابز والاستهزاء

وردت في التاريخ محاورات ومناقشات عديدة دارت بين معاوية وخصومه، واشتملت هذه المحاورات على جدال ونقاش إما في العقيدة أو في أغراض خاصة كانت تخص أحد أطراف النقاش.

وأهم هذه المحاورات كانت مع أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، وكان معاوية يأمل ويطمح من هذه المحاورات إسقاط هيبة الإمام من نفوس أصحابه والنيل من شخصيته الكريمة وتعريض الإمام للذم والإهانة، أو ينال من أصحاب الإمام الذين وقفوا وقفة الحق في وجه الباطل.

والملاحظ لهذه المحاورات يجد أنها تنطوي على جدال عقيم واستهزاء وتنابز بأصحاب الإمام أو تنطوي على سب وفحش وتهمة وبهتان وتحقير للآخرين.

وهذا مما يدلك على سوء النية وخبث السريرة والنفاق وسوء الأدب عند الخليفة. مما يذكرك بقول رسول الله ﷺ: «لتتخذن يا معاوية البدعة سنة والقبح حسناً أكلُك كثير وظلمك عظيم».

وقد نهىٰ رسول الله ﷺ عن الفحش والسب (قال رسول الله ﷺ): «اياكم والفحش فإن الله عز وجل لا يحب الفاحش المتفحش»[1].

ونهى رسول الله ﷺ عن الجدال العقيم وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام «الجدل في الدين يفسد اليقين». وقد نهى القرآن الكريم عن البهتان

---

(١) بحار الأنوار ج ٧٩ ص ١١٠.

والتهمة بقوله تعالى: **﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً واثماً مبيناً﴾**[1].

وهنا نستعرض بعض تلك المحاورات التي تجلت فيها صفاته النفسانية، منها:

اجتمع عند معاوية عمرو بن العاص والوليد بن عقبة وعتبة بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة، فقالوا: يا أمير المؤمنين ابعث إلى الحسن بن علي. فقال لهم: فيم؟

فقالوا: كي نوبخه ونعرفه أن أباه قتل عثمان.

فقال لهم: إنكم لا تنتصفون منه ولا تقولون شيئاً إلا كذبكم الناس ولا يقول لكم شيئاً ببلاغته إلا صدقه الناس.

فقالوا: أرسل إليه فإنا سنكفيك أمره. فأرسل إليه معاوية، فلما حضر. تكلموا.

وقام عمرو بن العاص وقال: هل تعلم يا حسن أن أباك أول من أثار الفتنة وطلب الملك فكيف رأيت صنع الله به؟

ثم قام الوليد بن عقبة بن أبي معيط وقال: يا بني هاشم كنتم أصهار عثمان بن عفان فنعم الصهر كان، يفضلكم ويقربكم ثم بغيتم عليه فقتلتموه، ولقد أردنا يا حسن قتل أبيك. فأنقذنا الله منه، ولو قتلناه بعثمان ما كان علينا من الله ذنب.

ثم قام عتبة بن أبي سفيان فقال: تعلم يا حسن أن أباك بغىٰ على عثمان فقتله حسداً على الملك والدنيا. فسلبها. ولقد أردنا قتل أبيك حتى قتله الله تعالىٰ.

ثم قام المغيرة بن شعبة فكان كلامه كله سباً لعلي وتعظيماً لعثمان.

فقام الحسن بن علي عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه وقال: بك أبدأ يا

---

(١) الأحزاب ج ٥٨.

معاوية، لم يشتمني هؤلاء ولكن أنت تشتمني بغضاً وعداوة وخلافاً لجدي ﷺ ثم التفت إلى الناس وقال:

أنشدكم الله! أتعلمون أن هذا الرجل الذي شتمه هؤلاء كان أول من آمن بالله وصلى القبلتين، وأنت يا معاوية يومئذ كافر تشرك بالله وكان معه لواء النبي ﷺ يوم بدر ومع معاوية وأبيه لواء المشركين. ثم قال: أنشدكم الله والإسلام أتعلمون أن معاوية كان يكتب الرسائل لجدي ﷺ فأرسل إليه يوماً. فرجع الرسول وقال: هو يأكل فرد الرسول إليه ثلاث مرات، كل ذلك وهو يقول: هو يأكل فقال النبي ﷺ: «لا أشبع الله بطنه».

أما تعرف ذلك في بطنك يا معاوية؟

ثم قال: وأنشدكم الله أتعلمون أن معاوية كان يقود بأبيه على جمل وأخوه هذا يسوقه، فقال رسول الله ﷺ: «لعن الله الجمل وقائده وراكبه وسائقه». هذا كله لك يا معاوية.

وأما أنت يا عمرو فتنازع فيك خمسة من قريش، وقلت إني شانىء محمداً، فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾[1] ثم هجوت محمداً ﷺ بثلاثين بيتاً من الشعر فقال النبي ﷺ: «اللهم إني لا أحسن الشعر ولكن ألعن عمرو بن العاص بكل بيت لعنه». ثم انطلقت إلى النجاشي بما علمت وعلمت فأكذبك الله وردك خائباً، فأنت عدو بني هاشم في الجاهلية والإسلام، فلم نُلمكَ على بغضك.

وأما أنت يا ابن أبي معيط، فكيف ألومك على سبك لعلي عليه السلام وقد جلد ظهرك في الخمر ثمانين سوطاً وقتل أباك صبراً بأمر جدي ﷺ وقتله جدي ﷺ بأمر ربي. ولما قدّمه للقتل قال: من للصبية؟ فلم يكن لكم عند النبي ﷺ إلا النار، ولم يكن لكم عند علي عليه السلام غير السيف والسوط.

وأما أنت يا عتبة فكيف تعدُ أحداً بالقتل، لم لا قتلت الذي وجدته في فراشك مضاجعاً لزوجتك. ثم أمسكتها بعد أن بغت.

---

(١) الكوثر ٣

وأما أنت يا أعور ثقيف ففي أي ثلاث تسب علياً عليه السلام؟

أفي بُعده من رسول الله ﷺ أم في حكم جائر أم رغبة في الدنيا. فإن قلت شيئاً من ذلك فقد كذبت وأكذبك الناس وإن زعمت أن علياً قتل عثمان كذبت وأكذبك الناس، وأما وعيدك فأنما مثلك كمثل بعوضة وقفت على نخلة فقالت لها: استمسكي فإني أريد أن أطير. فقالت لها النخلة: ما علمت بوقوفك فكيف يشق علي طيرانك. وأنت فما شعرنا بعداوتك فكيف يشق علينا سبك؟

ثم نفض ثيابه وقام ـ فقال لهم معاوية ألم أقل لكم أنكم لا تنتصفون منه فوالله لقد أظلم عليّ البيت حتى قام فليس فيكم بعد اليوم خير[1].

نعم ما كان فيهم خيراً ولم يك وهم الذين سمعوا رسول الله ﷺ يقول: «سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر» وكيف وهم الذين خاضوا في دماء المسلمين ونالوا من أصحاب رسول الله ﷺ وأهل بيته وأججوا الحروب والفتن والتاريخ يشهد عليهم بذلك.

وأخرج بن عساكر عن حميد بن هلال أن عقيل بن أبي طالب سأل علياً عليه السلام فقال: إني محتاج وإني فقير فأعطني.

فقال: أصبر حتى يخرج عطائي مع المسلمين فأعطيك معهم، فألح عليه. فقال لرجل: خذ بيده وانطلق به إلى حوانيت أهل السوق: فقل دق هذه الأقفال وخذ ما في هذه الحوانيت.

قال: تريد أن تتخذني سارقاً؟

قال: وانت تريد أن تتخذني سارقاً! أن آخذ أموال المسلمين فأعطيكها دونهم. قال: لآتين معاوية. قال: أنت وذلك. فأتى معاوية فسأله فأعطاه مائة ألف ثم قال: اصعد على المنبر. فأذكر ما أولاك به علي وما أوليتك. فصعد على المنبر: فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس، إني أخبركم أني أردت علياً على دينه فاختار دينه، وأني أردت معاوية على دينه. فاختارني على دينه[2].

---

(١) ثمرات الأوراق في حاشية المستطرف ص ٥٥.

(٢) تاريخ السيوطي ٢٠٤.

وأخرج بن عساكر عن جعفر بن محمد عليهما السّلام عن أبيه أن عقيلاً دخل على معاوية فقال معاوية: هذا عقيل وعمه أبو لهب. فقال عقيل: هذا معاوية وعمته حمالة الحطب[1].

وقال معاوية لابن عباس: أنتم يا بني هاشم تصابون في أبصاركم. فقال ابن عباس: وأنتم يا بني أمية تصابون في بصائركم.

وقال له معاوية: ما أبين الشبق من رجالكم. فقال له ابن عباس: هو في نسائكم أبين[2].

وقال معاوية لعقيل بن أبي طالب: أن علياً عليه السلام قد قطعك وأنا وصلتك ولا يرضيني منك إلا أن تلعنه على المنبر. قال: افعل، فصعد المنبر ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وآله: أيها الناس إن معاوية بن أبي سفيان قد أمرني أن ألعن علي بن أبي طالب فالعنوه فعليه لعنة الله. ثم نزل فقال له معاوية: إنك لم تبين من لعنت منهما، بيّنهُ؟ فقال: والله لا زدت حرفاً ولا نقصت حرفاً، والكلام إلى نية المتكلم[3].

واجتمعت بنو هاشم يوماً عند معاوية. فأقبل عليهم وقال: يا بني هاشم إن خيري لكم ممنوح وإن بابي لكم مفتوح فلا يقطع خيري عنكم ولا يرد بابي دونكم، ولما نظرت في أمري وأمركم رأيت أمراً مختلفاً، أنكم ترون أنكم أحق بما في يدي مني، وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقوقكم، قلتم أعطانا دون حقنا وقصر بنا عن قدرنا، فصرت كالمسلوب والمسلوب لا حمد له، وهذا مع أنصاف قائلكم واسعاف سائلكم. فأقبل عليه ابن عباس رضي الله عنه فقال: والله ما منحتنا شيئاً حتى سألناه ولا فتحت باباً حتى قرعناه ولئن قطعت عنا خيرك فخير الله أوسع منك ولئن أغلقت دوننا باباً لنكفنّ أنفسنا عنك. وأما هذا المال فليس لك منه إلا ما للرجل من المسلمين ولولا حقنا في هذا المال لم يأتك منا زائر يحمله خف ولا حافر، أكفاك أم أزيدك؟ قال: كفاني يا ابن عباس[4].

---

(١) تاريخ السيوطي ص ٢٠٤ و عيون الأخبار ص ١٩٧.

(٢) عيون الأخبار ج ٢ ص ١٩٨.

(٣) المستطرف ص ٤٣.

(٤) المستطرف ص ٥٨.

إن معاوية لم يكن له مانع ولا رادع من جمع شتات الناس حوله وإن نال ذلك من دينه وكلفه إنفاق أموال بيت المال بغير الحق فمن أهم الطرق التي اتبعها معاوية لاستحصال أكبر عدد من الأنصار والمؤيدين، كانت طريقة الترغيب لخصومه بشتى الوسائل والإغراءات المادية والمعنوية.

فالبعض يعدهم المناصب والإمارات أمثال زياد بن أبيه وعمرو بن العاص وغيرهم.

والبعض يغريهم بالأموال الطائلة على حساب بقية المسلمين ممن لا حول لهم ولا قوة.

لكن طريقة الترغيب ما كادت تجدي معه دائماً خصوصاً مع بني هاشم. فبنو هاشم كانوا على بصيرة من أمرهم وكانوا أصحاب نفوس أبية وكريمة بحيث لم تكن تغريهم الدنانير والدراهم لتردهم عن معتقدهم وإيمانهم، فهم أعرف الناس بمعاوية وبني أمية.

وتارة كان يتبع طريقة الترهيب فيصطدم مع رجالٍ ذوي نفوس شامخة وعالية فيعود خائباً من حيث بدء.

منها ما كتبه إلى قيس بن سعد:

أما بعد فإنما أنت يهودي ابن يهودي، إن ظفر أحبَّ الفريقين إليك عزلك واستبدل بك وإن ظفر أبغضهما إليك قتلك ونكل بك وقد كان أبوك وتر قوسه ورمى غرضه فأكثر الحَزّ وأخطأ المفصل فخذله قومه وادركه يومه ثم مات طريداً بحوران. والسلام.

فكتب إليه قيس بن سعد: أما بعد فإنما أنت وثنٌ ابن وثن، دخلت في الإسلام كرهاً وخرجت منه طوعاً، لم يقدمُ إيمانك ولم يحدث نفاقك وقد كان أبي وتر قوسه ورمى غرضه وشغَّب عليه من لم يبلغ كعبه ولم يشُق غباره، ونحن أنصار الدين الذي خرجت منه وأعداء الدين الذي خرجت إليه والسلام[1].

---

(١) عيون الأخبار ج ٢ ص ٢١٣.

وقدم معاوية المدينة مرة فأراد أن ينال من أمير المؤمنين عليه السلام والحسن بن علي عليه السلام على المنبر أو أراد أن يستنطق الإمام الحسن عليه السلام.

فصعد المنبر فخطب وقال: من ابن علي؟ تعريضاً بالإمام الحسن عليه السلام فقام الإمام الحسن عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

إن الله عز وجل لم يبعث بعثاً إلا جعل له عدداً من المجرمين. فأنا ابن علي وأنت ابن صخر وأمك هند وأمي فاطمة عليها السلام وجدتك قيلة وجدتي خديجة. فلعن الله ألأمنا حسباً وأخملنا ذكراً وأعظمنا كفراً وأشدنا نفاقاً. فصاح أهل المسجد آمين، آمين. فقطع معاوية خطبته ودخل منزله[1].

ولمعاوية بعض المواقف مع بعض رجال الإيمان الصامدين الذين لم تأخذهم في الله لومة لائم والذين حملوا مشعل الحق على أكتافهم لينير الأجيال القادمة من بعدهم. وقد عرضوا أنفسهم لأشد أنواع التنكيل والتعذيب والقتل في سبيل الله. أمثال حجر بن عدي الكندي وأصحابه. ومن أولئك الرجال الصامدين سعية بن غريض.

فذكروا أن معاوية حج حجتين في خلافته وكانت له ثلاثون بغلة يحج عليها نساؤه وجواريه.

فحج في إحداهما فرأى شيخاً يصلي في المسجد الحرام عليه ثوبان أبيضان. فقال: من هذا؟

قالوا: سعية بن غريض. فأرسل إليه يدعوه. فأتاه رسوله. فقال: أجب أمير المؤمنين. قال: أوليس قد مات أمير المؤمنين. قيل: فأجب معاوية. فأتاه وسلم عليه. فقال له معاوية: ما فعلت بأرضك التي بتيماء؟

قال: يكسىٰ منها العاري ويرد فضله علىٰ الجار. قال: أفتبيعها؟

قال: نعم. قال: بكم؟ قال: بستين ألف دينار، ولولا خلة[2] أصابت الحيّ لم أبعها. قال: لقد أغليت.

---

(١) المستطرف ص ١٣٠.

(٢) الخلة: الحاجة

قال: أما لو كانت لبعض أصحابك لأخذتها بستمائة ألف دينار ثم لم تُبلِ!

قال: أجل وإذ بخلت بأرضك فأنشدني شعر أبيك يرثى به نفسه. فقال:

يا ليت شعري حين أندب هالكاً ... ماذا تُؤنبني به أنواحي
أيقلن لا تبعد فربّ كريهة ... فرجتُها بشجاعة وسماحِ
ولقد ضربت بفضل مالي حقه ... عند الشتاء وهبة الأرياحِ
ولقد أخذت الحق غير مخاصم ... ولقد رددتُ الحقَّ غير مُلاحِ
وإذا دُعيتُ لصعبةٍ سهلتها ... أُدعىٰ بأفلح مرةٍ ونجاحِ

فقال معاوية: أنا كنتُ بهذا الشعر أولىٰ من أبيك.

قال: كذبت ولؤمت.

قال: أما كذبت فنعم، وأما لؤمت فلم؟

قال: لأنك كنت ميت الحق في الجاهلية وميته في الإسلام، أما في الجاهلية فقاتلت النبي ﷺ والوحي حتى جعل الله عز وجل كيدك المردود. وأما في الإسلام فمنعت ولد رسول الله ﷺ الخلافة وما أنت وهي وأنت طليق ابن طليق.

فقال معاوية: قد خرف الشيخ فأقيموه. فأُخذ بيده فأقيم[1].

ودخل شريك بن الأعور على معاوية وكان دميماً فقال له معاوية: إنك لدميم والجميل خير من الدميم وإنك لشريك وما لله من شريك وإن أباك لأعور والصحيح خير من الأعور فكيف سُدت قومك؟

فقال له إنك معاوية وما معاوية إلا كلبة عوت فاستعوت الكلاب وإنك لابن صخر والسهل خيرٌ من الصخر وإنك لابن حرب والسلم خير من الحرب وإنك لابن أمية وما أمية إلا أمة صُغرت فكيف صرت أمير المؤمنين؟

---

(١) الأغاني ج ٣ ص ١٣٠، بولاق ج ٣ ص ١٨.

ثم خرج وهو يقول:

أيشتمني معاوية بن حرب ... وسيفي صارمٌ ومعي لساني
وحولي من ذوي يزن ليوث ... ضراغمة تهش إلى الطعان
يعير بالدمامة من سفاهٍ ... وربات الحجال من الغواني[1]

وقال معاوية يوماً: أيها الناس إن الله حبا قريش بثلاث، فقال لنبيه ﷺ: **﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾**[2] ونحن عشيرته، وقال: **﴿وإنه لذكرٌ لك ولقومك﴾**[3] ونحن قومه وقال: **﴿لأيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾**[4] ونحن قريش، فأجابه رجل من الأنصار فقال: على رسلك يا معاوية. فإن الله يقول: **﴿وكذب به قومك وهو الحق﴾**[5] وأنتم قومه وقال تعالى: **﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾**[6] وأنتم قومه وقال تعالى: **﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾**[7] وأنتم قومه. ثلاث بثلاث ولو زدتنا لزدناك.

وقال معاوية أيضاً لرجل من اليمن: ما كان أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة؟

فقال الرجل: أجهل من قومي قومك الذين قالوا حين دعاهم رسول الله ﷺ: **﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾**[8]، ولم يقولوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأهدنا إليه[9].

---

(١) المستطرف ص ٥٧ وثمرات الأوراق.
(٢) الشعراء ٢١٤
(٣) الزخرف ٤٤
(٤) قريش ١
(٥) الانعام ٦٦
(٦) الزخرف ٥٧
(٧) الفرقان ٣٠
(٨) الانفال ٣٢
(٩) المستطرف ص ٥٨، العقد الفريد ج ٣ ص ٢١٤.

وقال معاوية يوماً لجارية بن قدامة: ما كان أهونك على قومك إذ سموك جارية؟

فقال: ما كان أهونك على قومك إذ سموك معاوية وهي الأنثىٰ من الكلب. قال: اسكت لا أم لك!

قال: أمٌ لي ولدتني أما والله إن القلوب التي أبغضناك بها لبين جوانحنا، والسيوف التي قاتلناك بها لفي أيدينا، وإنك لم تهلكنا قسوة ولم تملكنا عنوة، ولكنك أعطيتنا عهداً وميثاقاً وأعطيناك سمعاً وطاعة. فإن وفيت لنا وفينا لك وإن نزعت إلى غير ذلك فإنا تركنا وراءنا رجالاً شداداً وأسنة حداداً.

فقال معاوية: لا كثر الله في الناس مثلك يا جارية.

فقال له: قل معروفاً فإن شرّ الدعاء محيط بأهله[1].

نظر معاوية يوماً إلى الثما في عباءة فازدراه. فقال: يا أمير المؤمنين إن العباءة لا تكلمك وإنما يكلمك من فيها[2].

ودخل المغيرة بن شعبة على معاوية (وكان المغيرة أعور دميماً آدم) فقال معاوية:

إذا راح في قوهية متلبساً تَقُل جُعَلٌ يستن في لبنِ مَحض
وأقسم لو خرت من استك بيضة لما انكسرت من قرب بعضك من بعض[3]

من هذه الأخبار وأمثالها يمكن للقارىء الكريم أن يطلع على ما انتهكه معاوية من حرمات مخالفاً لصريح نص القرآن الكريم الذي نهىٰ عن التهمة والجدل والتنابز والاستهزاء وتحقير الآخرين.

انعدام الغيرة

من أقبح القبائح أن يُسلب الإنسان الغيرة والحمية فيكون من سفلة

---

(١) المستطرف ص ٥٨.
(٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٤٨.
(٣) عيون الأخبار ج ٤ ص ٥٥.

الناس ومن الأدنين، فلا يبالي لما ينال من عرضه أو ما قيل فيه أو في عِرضه. وقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب من عباده الغيور» فأصحاب النفوس الضعيفة الذين لا يجدون لأنفسهم كرامة واحترام ويستشعرون الدناءة أمام الآخرين، هؤلاء الذين ينالون من أعراض الناس ولا يبالون لما قالوا وما قيل فيهم. وطبقاً للقاعدة: من كشف عن حجاب الناس انكشفت عورات بيته، ومن طرق باب الناس طُرق بابه.

فهؤلاء هم أول من يتعرض لفحش الكلام وأول من يُنال من عرضه.

وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: «إن الله حرم الجنة على كل فاحش بذيء قليل الحياء لا يبالي ما قال ولا ما قيل له»[1].

وقال علي عليه السلام: «أسفه السفهاء المتبجح بفحش الكلام»[2].

وسوف نذكر بعض الأخبار التي توقفك على مدىٰ غيرة معاوية ودفاعه عن عرضه وناموسه و شرفه.

ولا شك أن الظروف والبيئة والصفات الوراثية التي اكتسبها من العشيرة والأبوين كانت تتحكم في شخصيته، خصوصاً وقد نشأ في بيت أبي سفيان وفي حجر هند آكلة الاكباد.

والعجب كل العجب ممن اعتبر تلك الأخبار من فضائل معاوية ومكارم أخلاقه ومن حلمه المعروف.

فنحن نترك للقارىء الكريم الحكم في تلك المواقف ليتسنىٰ له أن يختار أحد الأمرين إما أن يحكم بشدة حلمه أو بعدم غيرته؟.

وليرىٰ هل كانت مواقفه تتطلب الحلم أم تتطلب الغيرة والحمية؟

ذكروا أنه أُدخل الفيل إلى دمشق في زمن معاوية بن أبي سفيان فخرج أهل الشام لينظروه، لأنهم لم يكونوا رأوا الفيل قبل ذلك. فصعد معاوية على سطح القصر للفرجة، فلاحت منه التفاتة، فرأىٰ رجلاً مع بعض حظاياه (حرمه) في بعض حجر القصر.

---

(١) بحار الأنوار ج ٧٩ ص ١١٢.

(٢) غرر الحكم.

فنزل مسرعاً إلى الحجرة. فطرق بابها!

فقيل من؟ قال: أمير المؤمنين.

ففتح الباب إذ لا بد من فتحه طوعاً أو كرها، فدخل معاوية فوقف على رأس الرجل وهو منكسٌ رأسه وقد خاف خوفاً عظيماً.

فقال له معاوية: يا هذا ما الذي حملك على ما صنعت من دخولك قصري وجلوسك مع بعض حرمي، أما خفت نقمتي، أما خشيت سطوتي، أخبرني يا ويلك ما الذي حملك على ذلك؟

قال: يا أمير المؤمنين حملني على ذلك حلمك.

فقال له معاوية: أرأيت إن عفوت عنك تسترها عليّ فلا تخبر بها أحداً.

قال: نعم، فعفاً عنه ووهب له الجارية وما في حجرتها وكان شيئاً له قيمة عظيمة[1].

فنحن هنا نتساءل هل كان هذا موقفاً يقتضي الحلم والعفو عن المجرم أم يقتضي الحزم والغيرة والعفة على نسائه وحرمه؟

ونترك الجواب للقارىء الكريم. وهنا لا بد أن نشير إلى ظاهرة مهمة وهو أن الخلفاء والسلاطين كانت تحتوي بيوتهم على أعداد كبيرة من الجواري والإماء والخدم والعبيد وهؤلاء كانوا يتصلون بخارج القصر بأي طريقة كانت، إذ لا يمكن ضبط هذا العدد الكبير خصوصاً من الجواري وحبسهم على شخص واحد. فكانت تنشأ أمثال هذه الحوادث في قصورهم.

ومن الأخبار التي يُعرف منها مدىٰ غيرة الخليفة ما ذكره في المستطرف في حلم معاوية.

قال رجل لمعاوية: ما أشبه أستك بأست أمك.

---

(١) حياة الحيوان للدميري ج ٢ ص ٢٣٠ والمستطرف ص ١٩٠.

فقال معاوية: ذاك الذي أعجب أبا سفيان منها[1].

ليت شعري لو قيلت هذه الكلمة لغيور ماذا كان يفعل؟

وصدق الرسول ﷺ حيث قال: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت».

وذكر الاوزاعي أن خُرَيم بن فاتك دخل على معاوية.

فنظر معاوية إلى ساقيه، فقال: أي ساقين، لو كانتا على جارية عاتق (أول ادراكها).

فقال له خريم: في مثل عَجِيزتك يا أمير المؤمنين[2].

والظاهر في هذه الأخبار أن عجيزة الخليفة كانت مجمع الأنظار ومضرب الأمثال حتى بلغ الأمر بصاحب الرسالة أن يصفه بها في حديثه الشريف: «سيظهر على الناس رجل من أمتي، عظيم السرم واسع البلعوم يأكل ولا يشبع. يحمل وزر الثقلين يطلب الامارة يوماً فإذا أدركتموه فابقروا بطنه»[3].

فهذه الأخبار تدلنا علىٰ مدىٰ غيرة الخليفة على شرفه وحرمه. والشاعر يقول:

إذا كان رب البيت بالدف مولعاً فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

والبيت الذي يكون مسرحاً لهذه الحوادث والأحاديث لا شك أن من يدخله تَلم به لمة من تلك الحوادث أو يصيبه شيء من تلك النفحات، فكيف بالذي يسكنه ويتربى في حُجره ويفتح عينيه على مجالسه وسهراته؟!

وفي الخبر الآتي نرىٰ مدىٰ غيرة الخليفة تجاه ابنته وقرة عينه التي قضت حياتها في غرفات القصور وفي أحضان الجواري والخدم حينما تتبادل الغزل والرسائل مع أحد الشعراء.

---

(١) المستطرف ص ١٨٩.

(٢) عيون الأخبار ج ٢ ص ٢٣٠ وتاريخ السيوطي ص ٢٠٤.

(٣) أنظر النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصف معاوية.

حَجت عاتكة بنت معاوية بن أبي سفيان. فنزلت في مكة بذي طُوى. فبينا هي ذات يوم جالسة وقد اشتد الحرّ وانقطع الطريق وذلك وقت الهاجرة، إذ أمرت جواريها فرفعن السّتر وهي جالسةٌ في مجلسها عليها شفوفٌ لها تنظر إلى الطريق.

إذ مرّ بها أبو دهبل الجمحيّ وكان من أجمل الناس وأحسنهم منظراً فوقف طويلاً ينظر إليها وإلى جمالها وهي غافلة عنه، فلما فطنت له سترت وجهها وأمرت بطرح الستر وشتمته.

فقال أبو دهبل:

أنى دعاني الحَين فأقتادني ... حتى رأيت الظبي بالبابِ
يا حُسنَه إذ سبّني مدبراً ... مستتراً عني بجلباب
سبحان من وقّفها حسرةً ... صُبّت على القلب بأوصاب
يذود عنها إن تطلّبتُها ... أبٌ لها ليس بوهاب
أحلها قصراً منيع الذُّرىٰ ... يُحمىٰ بأبواب وحجاب

وأنشد أبو دهبل هذه الأبيات بعض أخوانه، فشاعت بمكة وشهرت وغنىٰ فيها المغنون، حتى سمعتها عاتكة بنت معاوية إنشاداً وغناءً.

فضحكت وأعجبتها وبعثت إليه بكسوةٍ وجرت الرسل بينهما، فلما صدرت عن مكه خرج معها أبو دهبل إلى الشام ونزل قريباً منها.

فكانت تعاهده بالبر واللطف حتى وردت دمشق وورد معها.

فانقطعت عن لقائه وبَعُد من أن يراها، ومرض بدمشق مرضاً طويلاً فقال في ذلك:

طال ليلي وبت كالمحزون ... ومَلِلتُ الثواءَ في جيرونِ
وأطلت المقام بالشام حتى ... ظن أهلي مُرَجَّمات الظنونِ
فبكت خشيةَ التفرق جُملٌ ... كبكاء القرين إثرُ القرينِ
وهي زهراء مثل لؤلؤة الغواص ... ميزت من جوهر مكنونِ
ثم خاصرتها إلى القبة الخضراء ... تمشي في مرمرٍ مسنون
قبةٌ من مراجل ضربوها ... عند برد الشتاء في قيطون

عن يساري إذا دخلت من الباب وإن كنت خارجاً عن يميني
ولقد قلت إذ تطاول سُقمي وتقلبتُ ليلتي في فنون
ليت شعري أمن هوىً طار نومي أم براني الباري قصير الجفونِ[1]

وشاع هذا الشعر حتى بلغ معاوية فأمسك عنه، حتى إذا كان يوم الجمعة دخل عليه الناس وفيهم أبو دهبل، فقال معاوية لحاجبه:

إذا أراد أبو دهبل الخروج فامنعه وارددْه إليّ، وجعل الناس يسلمون وينصرفون. فقام أبو دهبل لينصرف فناداه معاوية: يا أبا دهبل إليّ.

فلما دنا إليه. أجلسه حتى خلا به، ثم قال له:

ما كنتُ ظننتُ أن في قريش أشعر منك حيث تقول:

ولقد قلت إذ تطاول سقمي وتقلبت ليلتي في فنون
ليت شعري أمن هوىً طار نومي أم براني الباري قصير الجفون

ولكنك أسأت في قولك:

ثم خاصرتها إلى القبة الخضراء تمشي في مرمر مسنون

فقال: والله يا أمير المؤمنين ما قلت هذا وإنما قيل على لساني.

فقال له: أما من جهتي فلا خوف عليك، وإنما أكره لك جوار يزيد وأخاف عليك وثباته، فإن له سورة الشباب وأنفة الملوك.

وإنما أراد معاوية أن يهرب أبو دهبل فتنقضي المقالة عن ابنته.

فحذر أبو دهبل وخرج إلى مكة هارباً على وجهه، فكان يكاتب عاتكة. فبينا معاوية ذات يوم في مجلسه إذ جاءه خِصي له فقال: يا أمير المؤمنين، والله سقط إلى عاتكة اليوم كتاب، فلما قرأته بكت ثم أخذته فوضعته تحت مصلاها. وما زالت خاثرة النفس منذ اليوم.

فقال له: اذهب فالطف لهذا الكتاب حتى تأتيني به.

---

(١) تنسب هذه الأبيات لعبد الرحمن بن حسان قالها في رملة بنت معاوية. الأغاني ج ١٥ ص ١٠٩. بولاق ١٤٩/ ١٣.

فانطلق الخصي فلم يزل يلطف حتى أصاب منها غرةً، فأخذ الكتاب وأقبل به إلى معاوية فإذا فيه:

أعاتك هلا نجلتِ فلا تَرىٰ لذي صبوة زُلفَى لديك ولاحقا
(إلى آخرها)

فلما قرأ معاوية هذا الشعر بعث إلى يزيد بن معاوية فأتاه فدخل عليه فوجد معاوية مطرقاً، فقال: يا أمير المؤمنين ما هذا الأمر الذي شجاك؟

قال: أمر أمرضني وأقلقني منذ اليوم وما أدرى ما أعمل في شأنه؟ قال:

وما هو يا أمير المؤمنين؟

قال هذا الفاسق أبو دهبل كتب بهذه الأبيات إلى أختك عاتكة وقد أفسدها فما ترىٰ فيه؟ فقال والله إن الرأي لهين. قال: وما هو؟

قال: عبدٌ من عبيدك يكمن له في أزقة مكة فيريحنا منه.

قال معاوية: أفٍ لك، والله إن امرءً يريد بك ما يريد ويسمو بك إلى ما يسمو لغير ذي رأي، قم عني!

فقام يزيد فانصرف.

وحج معاوية في تلك السنة فلما انقضت أيام الحج تعهد الشعراء وفرق فيهم الجوائز والصلات وكان فيهم أبي دهبل، فلما قام لينصرف قال له معاوية: يا أبا دهبل ما لي رأيت أبا خالد يزيد عليك ساخطاً في قوارص تأتيه عنك وشعر لا تزال قد نطقت به وأنفذته إلى خصمائنا ومواليا؟

فجعل يعتذر ويحلف أنه مكذوب عليه ثم زوجه ابنة عمه وأصدقها ألفي دينار وأمر له بألفي دينار وتركه.

ولم يحج معاوية تلك السنة إلا من أجل أبي دهبل[1].

من هذه الرواية يمكن للإنسان أن يتعرف على الحالة السائدة في قصر الخليفة وحالة بناته وحرمه مع العشاق والشعراء والمغنيين الذين كانوا ينقلون

---

(١) الأغاني ج ٧ ص ١٢١. بولاق ٦/١٥٨.

الأبيات فور سماعهم للطرف الآخر، وتناقل الكتب والرسائل بينهم ومدىٰ غيرة الخليفة على حرمه وبناته ومدى صيانته لهن في تلك القصور الشامخة.

وقد شبب عبد الرحمن بن حسان بن ثابت برملة بنت معاوية في قوله:

رَملُ هل تذكرين يوم غزالِ ... إذ قطعنا مسيرنا بالتمني
إذ تقولين عمرك الله هل شيءٌ ... وإن جلَّ سوف يسليك عني
أم هل اطمِعتُ منكم بابن حسان ... كما قد أراك اطمِعت مني[1]

فهو يذكّرها بلقاء كان بينهما وبالحوار الذي جرىٰ بينهما.

ولعل القارىء لهذه الأخبار والروايات حصل له العلم بمدىٰ غيرة معاوية وقد ذكر ابن قتيبة في عيون الأخبار كلمة لمعاوية نذكرها هنا، وهي قوله: ثلاث من السؤدد: الصلع واندحاق البطن وترك الافراط في الغيرة[2].

ومحل شاهدنا هي الكلمة الأخيرة.

ومن تركه الإفراط في الغيرة ما رواه ابن عساكر في ترجمة خديج الخصي مولىٰ معاوية قال: اشترى معاوية جارية بيضاء جميلة، فأدخلتُها عليه مجردة، وبيده قضيب، فجعل يهوي به إلى متاعها ـ يعني فرجها ـ ويقول: هذا المتاع لو كان لي متاع.

اذهب بها إلى يزيد بن معاوية ثم قال: لا! أدع لي الجرشي ـ وكان فقيهاً ـ فلما دخل عليه قال: إن هذه أتيت بها مجردة فرأيت منها ذاك وذاك وإني أردت أن أبعث بها إلى يزيد.

قال: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإنها لا تصلح له ثم وهبها إلى عبد الله بن مسعدة الفزاري.

وقد ذكر ابن كثير أن معاوية تحرج أن يهبها لولده يزيد لقوله تعالى: **﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾**[3][4].

---

(١) الأغاني ج ١٥ ص ١٠٦. بولاق ١٣/١٤٨.
(٢) عيون الأخبار ج ١ ص ١٦٩.
(٣) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٤٠.
(٤) النساء ٢٢

وهنا أسأل صاحب الغيرة:
كيف أدخل جاريته عارية أمام مولاه وهو ينظر إلى فرجها؟
ولماذا يُدخل على نفسه جارية جميلة وعارية وهو ليس له متاع؟
ثم هل منعته غيرته أن يهبها إلى يزيد أو خاف أن يرتكب يزيد حراماً بفعله؟

ويزيد هو الذي أجمعت الأمة على أنه كان يزني بأمهات الأولاد ومحارم أبيه وسوف نذكر ذلك في ترجمته إن شاء الله.

بيوت الطرب

لم يكن للخليفة هم، ولا غم سوىٰ جمع أعداد كبيرة من الجواري والإماء من أقاصي البلاد المختلفة، لينعم بحضورهم ويُحيي لياليه بالسهرات الليلية ومجالس الغناء والطرب والرقص مع ندمائه وزملائه.

وفي الحديث أن «الغناء رقية الزنا».

فكانت هذه المجالس والسهرات الليلية التي تقام في أجواءٍ من الخلاعة واختلاط الرجال بالنساء، تدفع بالجواري والإماء والعبيد نحو الرذيلة واقتراف الفاحشة والمعصية.

وكانت هذه المجالس تأخذ مجمل أوقات الخلفاء، وسوف نتعرض لها في أحوالهم.

ويعتبر معاوية من الخلفاء المؤسسين لهذه المجالس والسهرات.

فذكروا في أحواله أنه كان يكرم المغنين ويفتح عليهم بيوت الأموال وينثر الدنانير في السهرات الغنائية، وسار على نهجه من أتىٰ من بعده من الخلفاء. وأليك بعض تلك النماذج:

حضر معاوية في مجلس بديع المغني مستمعاً إلى غنائه:

ودع سعاد فإن الركب مرتحلُ وهل تطيق وداعاً أيها الرجل

وكان عند معاوية جارية من أعز جواريه عليه كانت تولىٰ خضابه فغنىٰ بديع وقال:

أليس عندك شكر للتي جعلت ما أبيض من قادمات الدهر والقدم

فطرب معاوية طرباً شديداً وجعل يحرك رجله وقال:

كل كريم طروب. ثم قام وقال: لا يبرح أحد منكم حتى يأتي أذني. ثم ذهب وبعث إلى جلسائه كل رجلٍ منهم ألف دينار وعشرة أثواب[1].

ودخل عليه بديع المغني يوماً وغناه:

يا لبُينىٰ أوقدي النارا إن من تهوين قد حارا الخ..

فطرب معاوية وضرب برجله فقال له رجل: مَه يا أمير المؤمنين؟

فقال معاوية: إن الكريم طروب[2].

ودخل سائب خاثر على معاوية ورفع حوائجه إليه فلما قام على الباب غنىٰ:

إن الديار رُسُومها قفرُ لعبت بها الأرواح والقطر الخ..

فقال معاوية: أحسنت وقضىٰ حوائجه[3].

وأشرف معاوية ليلاً على منزل يزيد ابنه فسمع صوتاً أعجبه، واستخفه السماع، فاستمع قائماً حتى مَلّ ثم دعا بكرسي فجلس عليه، واشتهى الاستزادة، فأستمع بقية ليلته حتى مَلّ.

فلما أصبح غدا عليه يزيد. فقال له: يا بني من كان جليسك البارحة؟

قال: أي جليس يا أمير المؤمنين؟ واستعجم عليه.

قال: عرّفني فإنه لم يخف علي شيء من أمرك.

قال: سائب خاثر. قال: فأخثر له يا بُنيّ من بِرك وصلتك فما رأيت بمجالسته بأساً[4].

---

(١) المستطرف ج ٢ ص ١٤٩.

(٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٤٩ وتاريخ ابن الوردي ج ١ ص ٢٢٩.

(٣) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٤٩.

(٤) الأغاني ج ٨ ص ٣٢٨. بولاق ٧/١٨٩.

فهذا الخليفة يقضي ساعاته بهذه المجالس وفي وقت كان أهل الكوفة يعانون من وطأة زياد بن أبيه وأهل المدينة يعانون من غارات بسر بن أرطأة عليهم. كان الطرب يستخف الخليفة فيضرب برجليه الأرض فرحاً وطرباً.

السرقات

كان لبيت المال حرمة كبيرة في عهد أمير المؤمنين عليه السلام. وهو بيت للمسلمين جميعاً يشتركون كلهم في امتلاك ما يحويه. فهو يُقسم عليهم بالسوية إلى آخر درهم فيه. فأمير المؤمنين يتولىٰ القسمة بنفسه ويأخذ لنفسه كما يأخذ أحد المسلّمين من العرب والموالي، ولم يكن يرىٰ لنفسه ميزة على الآخرين. وكذلك كان عند تقسيم الغنائم. فإذا خرج العطاء قسم على الجميع بالسوية. فإن فرغ بيت المال كنسهُ وصلىٰ فيه ركعتين ودعا الله.

لكن الأمر عندما انتقل إلى معاوية وقبل أن ينتقل إليه وفي الفترة التي كانت الشام تحت سطوته وسيطرته. كان يتصرف ببيت المال حسب أهوائه ومصالحه الخاصة.

فلم يكن لبيت المال ضابط خاص. فلربما أعطىٰ للمغنين أو لذويه من بني أمية وشيعتهم الآلاف المؤلفة من الدنانير والدراهم وحَرَمَ الصحابة المتقدمين والتابعين أمثال أبي ذر وغيره من بيت المال حتى يموت جوعاً.

ولقد وصف أمير المؤمنين عليه السلام بني أمية في خطبته الشقشقية بقوله: «يخضمون مال الله خضم الإبل نبتة الربيع». هذا في عهد عثمان.

ومن الأمور التي نقمها الصحابة على عثمان كانت عطاياه إلى بني أمية وذويه.

وعندما صار الأمر إلى معاوية وبني أمية تاماً عاثوا ببيت المال كما يشاؤون ولم يكن من ورائهم رقيب.

وإليك بعض النماذج والصور من الموارد التي كانت تنفق فيها أموال المسلمين.

استعمل معاوية بيت المال كسلاح في وجه أمير المؤمنين عليه السلام فالإمام كان يسير في الرعية بسيرة العدل.

ومعاوية كان يبذل المال لكل من يخرج عن طاعة الإمام وينقض يد الطاعة. وبهذا العمل استهوىٰ عدداً كبيراً من الناس ومن الذين كانوا يعبدون الدينار والدرهم.

وقد قال رسول الله ﷺ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة».

وبهذه الطريقة استطاع أن يقف في وجه الحق ويشهر في وجهه السيف.

فلما بويع علي بن أبي طالب عليه السلام ودخل عليه حسان بن ثابت وكعب بن مالك والنعمان بن بشير وقالوا: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن عثمان: أقتل ظالماً فنقول بقولك أم قتل مظلوماً، فنقول بقولنا ونكلك إلى الشبهة فيه؟

فقال لهم علي عليه السلام: لكم عندي ثلاثة أشياء: استأثر عثمان فأساء الأثرة وجزعتم فأسأتم الجزع وعند الله ما تختلفون فيه إلى يوم القيامة.

فقالوا: لا ترضىٰ بهذا العرب ولا تعذُرنا به.

فقال علي عليه السلام: أتردّون عليّ بين ظهراني المسلمين. بلا بينة صادقة ولا حجة واضحة؟

أخرجوا عني ولا تجاوروني في بلد أنا فيه أبداً.

فخرجوا من يومهم فساروا حتى أتوا معاوية، فقال لهم لكم الولاية والكفاية.

فأعطى حسان بن ثابت ألف دينار وكعب بن مالك ألف دينار وولى النعمان بن بشير حمص ثم نقله إلى الكوفة بعد ذلك[1].

وعلىٰ هذا المنوال سار كثير من الناس فيمن كان يستحب الدنيا على الآخرة ويضيق به عدل أمير المؤمنين فكان يرى لنفسه في الشام ملجأ وحصناً يركن إليه.

---

(١) الأغاني ج ١٦ ص ٢٣٣. بولاق ٣٠/ ١٥.

وهذا ما اعترف به بنو أمية أنفسهم، مما حدىٰ بعمر بن عبد العزيز عند توليه الخلافة أن يبدأ برد المظالم عن الناس وبدأ بأهل بيته من بني أمية. فاجتمعوا إلى عمة له كان يكرمها وسألوها أن تكلمه. فقال لها: إن رسول الله ﷺ سلك طريقاً فلما قبض سلك أصحابه ذلك الطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ. فلما قضىٰ الأمر إلى معاوية جره يميناً وشمالاً وأيم الله لئن مدّ في عمري لأردنه إلى ذلك الطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ[1].

وقبل عمر بن عبد العزيز وفي عهد ولاية معاوية للشام أيام عمر بن الخطاب كان عمر على علم بسيرة معاوية وبنفسياته. لكن الخوف من الدرة كان رادعاً لمعاوية أن يظهر تلك السيرة.

نقل ابن عبد ربه في العقد أن أبا سفيان زار معاوية في الشام فلما رجع من عنده دخل على عمر.

فقال له عمر: أجدنا؟

قال: ما أصبنا شيئاً فنجديك.

فأخذ عمر خاتمه وبعث به إلى هند وقال للرسول: قل لها يقول لك أبو سفيان أنظري الخرجين اللذين جئت بهما من عند معاوية فأحضريهما؟

فلم يلبث عمر أن أُتي بالخرجين فيهما عشرة آلاف درهم فألقاها عمر في بيت المال!!

فلما ولي عثمان بن عفان أراد ردها إليه فقال أبو سفيان: ما كنت لآخذ مالاً عابه عمر عليّ[2].

ومن الواضح كان في عطايا عثمان الكفاية الكافية مما جعل أبا سفيان يزهد في المال الذي عابه عليه عمر! من هذه الأخبار يُعلم أنه لم يكن لبيت المال حرمة عند معاوية. والتصرف بأموال المسلمين وبذلها كان من أهون الأمور عليه تماماً خلافاً لسيرة أمير المؤمنين عليه السلام. فالإمام كان يردُّ

---

(١) المستطرف ص ١٠٢.

(٢) ثمرات الأوراق حاشية المستطرف ص ١٢٣.

أخاه عن بيت المال ويحرمه صاعاً من البر فوق حقه وهكذا أقرب الصحابة إليه. لأنه تصرف في مال الغير.

لكن معاوية كان يعتبر المال ماله، ولا حقَّ لأحدٍ فيه إلا نفسه فهو يعطي لمن أراد ويمنع من أراد.

فقد جاءه رجل وقال: أقطعني البحرين؟

قال: إني لا أصل إلى ذلك.

قال: فاستعملني على البصرة؟

قال: لا أريد أن أعزل عاملها.

قال: تأمر لي بألفي دينار؟

قال: ذلك لك.

فقيل له: ويحك! أرضيت بعد الأولين بهذا؟

قال: اسكتوا لولا الأوليان ما أعطيتُ هذه[1].

فكانت أعطيات معاوية على هذا المنوال فهو يعطي لمن لا يستحق في نظر الآخرين. فاستدراج السائل في المسألة خدع معاوية.

وقد بلغ به الأمر إلى حدٍ كان يثير غضب الصحابة والتابعين عليه.

وحديث أبي ذر الغفاري رضوان الله عليه مع معاوية حديث معروف وأبو ذر هو الذي شهد رسول الله ﷺ بصدقه بقوله ﷺ: «ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر» فهذا الصحابي الجليل كان يقف على باب قصر معاوية ويقرأ الآية الكريمة: ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم**﴾[2].

مما حدا بمعاوية أن يكتب لعثمان: «لو كانت لك حاجة بالشام

---

(١) عيون الأخبار ج ٣ ص ١٣١.

(٢) التوبة ٣٤

فأخرج منها أبي ذر». فأُخرج رضوان الله عليه على أخشن مركب إلى المدينة ومنها إلى الربذة حتى مات جوعاً.

كل ذلك لأنه وقف مع الحق في وجه الباطل فهو الذي استنكر ما جمعه معاوية من الأموال أي ما أخذه من بيت المال.

وخطب معاوية يوماً فقال: إن الله تعالىٰ يقول: **﴿وإن من شيءٍ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾**[1] فعلام تلوموننني إذا قصرت في عطاياكم؟

فقال له الأحنف: وإنا والله لا نلومك على ما في خزائن الله ولكن على ما أنزله الله لنا من خزائنه فجعلته في خزائنك وحلت بيننا وبينه[2].

وبلغ الأمر إلى درجة كان عمرو بن العاص زميله وقرينه وشريكه في بغيه يستهزىء به في استخلاصه أموال بيت المال لنفسه.

ذكر المدائني أنه قال عمرو بن العاص لمعاوية يوماً: أني رأيت البارحة في المنام كأن القيامة قد قامت، ووضعت الموازين وأحضر الناس للحساب، فنظرت إليك وأنت واقف قد ألجمك العرق وبين يديك صحف كأمثال الجبال.

فقال معاوية: فهل رأيت شيئاً من دنانير مصر؟![3].

وذكر في تاريخ الصحابة والتابعين أن حويطب بن عبد العزى باع داره بمكة من معاوية بأربعين ألف دينار[4].

فهذا حال معاوية وحال بيت المال وقد نهج على هذا السبيل من جاء بعده من الحكام والسلاطين.

الجبن

من الصفات المبغوضة في القائد أن يكون جباناً فهو يورد قومه إلى الهلكة ويتركهم ويهرب.

---

(١) الحجر ٢١

(٢) المستطرف ص ٥٨.

(٣) عيون الأخبار ج ١ ص ٣١٨.

(٤) ذيل المزيل من تاريخ الصحابة والتابعين ص ٢٣ ج ٨ الطبري.

ولم يحدثنا التاريخ أن معاوية اشترك في قتالٍ أم نازل الأقران والأبطال. بل العكس تماماً.

فالذي ذكر يدل على جبنه وخوفه.

ذكر المدائني. قال: رأى عمرو بن العاص معاوية يوماً فضحك.

فقال له: مم تضحك أضحك الله سنك؟

قال: أضحك من حضور ذهنك عند إبدائك سوءتك يوماً لابن أبي طالب، أما والله لقد وافقته مناناً كريماً، ولو شاء أن يقتلك لقتلك.

فقال عمرو: أما والله إني لعن يمينك حين دعاك إلى البراز فأحوَلت عيناك وربا سَحرك وبدا منك ما أكره ذكره لك، فمن نفسك فاضحك أو دع[1].

وقال عمرو بن العاص لمعاوية يوماً: لقد أعياني أن أعلم أجبان أنت أم شجاع؟

فقال معاوية:

شجاع إذا ما أمكنتني فرصة وألا تكن لي فرصة فجبان[2]

ومن سوء حظه لم تأتيه الفرص قط فما اشترك في معركة إلا وكانت الفرص مع غيره.

وقد عرض معاوية فرساً على عبد الرحمن بن حسان، فقال: كيف تراه؟

قال: أراه أجشّ هزيماً. يريد قول النجاشي:

ونجىٰ ابن حرب سابحٌ ذو عُلالةٍ أجش هزيمٌ والرماح دوانِ[3]

وقد ذكر في الأغاني أن عبد الرحمن بن الحكم عيّر معاوية بشعر النجاشي فقد عرض عليه خيله، فمرّ به فرسٌ. فقال له: كيف تراه؟ فقال: هذا سابح. ثم عرض عليه آخر. فقال: هذا ذو علالة. ثم مرّ به آخر فقال: وهذا أجش هزيم.

---

(١) عيون الأخبار ج ١ ص ١٦٩.

(٢) عيون الأخبار ج ١ ص ١٦٣.

(٣) عيون الأخبار ج ٢ ص ١٩٨.

فقال له معاوية: قد علمت ما أردت. إنما عرّضت بقول النجاشي في:

ونجّىٰ بن حرب سابحٌ ذو علالةٍ أجش هزيمٌ والرماح دوانِ
سليمُ الشظى عَبلُ الشوى شنج النسا كسيدِ الغضىٰ باقٍ على النسلان

أخرج عني فلا تساكني في بلد[1].

وقد اعترف هو بشجاعته فكان يقول: «تعلموا من النجوم ما يدلكم على سبلكم في البر والبحر ولقد هممت بالهرب يوم صفين فما ثبتني إلا قول قائل:

أقول لها إذا جشأت وجاشت مكانك تحمد أو تستريحي[2]

الصعلوك

استشارت النبي ﷺ امرأة في أن تتزوج بمعاوية فقال لها: إنه صعلوك لا مال له[3].

فالنبي قد وصفه بأنه صعلوك.

والصعلوك من ليس له شأنٌ ولا كرامة ومن كان هذا شأنه فهو لا يبالي بما قال وما قيل فيه.

وقد وصفته زوجته ميسون بالعلج في أبياتها المعروفة:

للبس عباءة وتقر عيني أحب إلي من لبس الشفوف
وبيت تخفق الأرواح فيه أحب إلي من قصر منيف
وبكر يتبع الأظعان صعب أحب إلي من بغلٍ زفوف
وكلبٌ ينبح الأضياف دوني أحب إلي من هرٍ ألوفِ
وخرق من بني عمي فقيرٌ أحب إلي من علجٍ عنيف

فقال لها: ما رضيتيني يا ابنة بحدل حتى جعلتيني علجاً عَنيفاً الحقي بأهلك فمضت ويزيد معها[4].

---

(١) الأغاني ج ١٣ ص ٢٦٨. بولاق ٧٦/ ١٢.
(٢) المستطرف ص ٦٠.
(٣) دول الإسلام للذهبي ص ٣٦.
(٤) تاريخ ابن الوردي ج ١ ص ٢٣٤.

وقد وصفه أبو الأسود الدؤلي بضعيف الأمانة والمروءة.

ذكر المدائني أن أبا الأسود الدؤلي كان يحدث معاوية يوماً فتحرك فضرط فقال لمعاوية: استرها عليّ؟ فقال: نعم.

فلمات خرج حدث بها معاوية عمرو بن العاص ومروان بن الحكم. فلما غدا عليه أبو الأسود. قال عمرو: ما فعلت ضرطتك يا أبا الأسود بالأمس؟

قال: ذهبت كما تذهب الريح مقبلةً ومدبرة من شيخ ألان الدهر أعصابه ولحمه عن إمساكها. وكل أجوف ضروط.

ثم أقبل على معاوية وقال: إن امرأً ضعفت أمانته ومروءته عن كتمان ضرطة لحقيق بألا يؤمن على أمور المسلمين[1].

ومما يؤكد قول رسول الله ﷺ في معاوية بأنه صعلوك لا مال له، وأنه لم يكن يمتلك حتى نعل يلبسها في ساعات الحرّ ما قاله معاوية: انه قدم علقمة بن وائل الحضرمي على رسول الله ﷺ، فأمرني رسول الله ﷺ أن أنطلق به إلى منزل رجل من الأنصار أُنزلهُ عليه، وكان منزله في أقصىٰ المدينة.

فانطلقت معه وهو على ناقة له وأنا أمشي في ساعة حارة وليس عليّ حذاء.

فقلت: احملني يا عم من هذا الحرّ فإنه ليس عليّ حذاءٌ؟

فقال: لستَ من أرداف الملوك.

قلت: إني ابن أبي سفيان.

قال: قد سمعت رسول الله ﷺ يذكر ذلك.

قلت: فالق إلي نعلك؟ قال: لا تقبلها قدماك ولكن امشى في ظل ناقتي فكفاك بذلك شرفاً وإن الظل لك لكثير[2].

---

(١) الأغاني ج ١١ ص ٣٠٩. بولاق ١١/١١٢.

(٢) عيون الأخبار ج ١ ص ٢٨٣.

هكذا كان معاوية قبل ولاية الشام وما انقضت الأيام حتى بنى في الشام قصر الخضراء وجعل يلعب بالبيضاء والصفراء.

ومما يجعلنا نطمئن إلى أن معاوية كان صعلوكاً، ما ذكره الإمام عز الدين بن عبد السلام: «أن معاوية بن أبي سفيان كان يأكل في كل يوم مائة رطل بالدمشقي ولا يشبع»[1].

فمن يأكل هذا المقدار من الطعام لا يكون إلا صعلوكاً من سلالة الصعاليك، ولا عجب من أنه لا يشبع فقد دعا عليه رسول الله ﷺ بقوله:

«لا أشبع الله بطنه» ودعوة رسول الله ﷺ مستجابة.

وذكر المدائني في (كتاب الأَكَلَة) إن معاوية كان يأكل في اليوم أربع أكلات أُخراهن عُظماهُن، ثم يتعشىٰ بعدها بثريدة عليها بصلٌ كثير ودهن كثير، وكان أكلُه فاحشاً يأكل فيلطخ منديلين أو ثلاثة قبل أن يفرغ وكان يأكل حتى يستلقي ويقول: يا غلام، ارفع فلأني والله ما شبعت ولكن مَلِلت[2].

وفي ذلك يقول الشاعر:

لي صاحب امعاؤه كالهاوية كأن في أحشائه معاوية

من هي هند؟

هند بنت عتبة بن ربيعة وزوجة أبي سفيان.

من اللواتي وقفن في وجه رسول الله ﷺ وحاربنه وألّبن عليه كثيراً. وهي التي حرضت المشركين على الخروج لقتال رسول الله ﷺ خصوصاً في معركة أحد وخرجت هي معهم تألبهم على القتال انتقاماً لمقتل أبيها وعمها وأخيها في بدر.

وهي التي كانت تنادي:

---

(١) المستطرف ص ١٨١.

(٢) شرح نهج البلاغة ج ١٨ ص ٣٩٨.

نحن بناتُ طارق إن تقبلوا نعانق
ونبسط النمارق أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق

فرفع أبو دجانه سماك بن خرشة سيفه ليضربها، ثم كف عنها فقيل له في ذلك. فقال: اكرمتُ سيف رسول الله أن أقتل به امرأة.

وكان السيف الذي يقاتل به أعطاه رسول الله ﷺ[1].

وهي التي وقفت والنساء اللاتي معها يمثلن بالقتلىٰ من أصحاب رسول الله ﷺ يجدعن الاذان والأنوف حتى اتخذت هند من آذان الرجال وأُنفهم قلائد وأعطت قلائدها وقرطها وحشياً[2].

وكانت هند معروفة بالعُهر والزنا قبل الإسلام.

فلما فتح رسول الله ﷺ مكة وأخذ البيعة من الناس جاءته نساء من قريش فيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة لحدثها وما كان من صنيعها بحمزة، فهي تخاف أن يأخذها رسول الله ﷺ بحدثها ذلك. فلما دنون منه ليبايعنه قال رسول الله ﷺ: «تبايعنني على ألا تشركن بالله شيئاً. فقالت هند والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما تأخذه على الرجال وسنُؤتيكه. قال: ولا تسرقن. قالت: والله إن كنتُ لأصيب من مال أبي سفيان الهنة والهنة وما أدري أكان ذلك حلالي أم لا.

فقال رسول الله ﷺ: «وإنك لهند بنت عتبة. فقالت: أنا هند بنت عتبة فاعف عما سلف عفا الله عنك.

قال: ولا تزنين. قالت: يا رسول الله وهل تزني الحرة.

قال: ولا تقتلن أولادكن: قالت قد ربيناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً فأنت وهم أعلم.

فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرب[3].

---

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٩٥.
(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٠٤.
(٣) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٣٣٧.

فمن هذه المحاورة تطلع على سوء أدبها مع رسول الله ﷺ.

وعندما قالت: يا رسول الله وهل تزني الحرة.

أثارت ضحك عمر. فرسول الله ﷺ تعمد أن يأخذ منها البيعة على أن لا تزني وعمر كان عارفاً بها قبل الإسلام.

فعن صالح بن كيسان أنه حُدِّث أن عمر بن الخطاب قال لحسان بن ثابت: يا ابن الفريعة، لو سمعت ما تقول هند ورأيت أثرها قائمةً على صخرةٍ ترتجز بنا وتذكر ما صنعت بحمزة؟

فقال له حسان: والله إني لأنظر إلى الحربة تهوي. واني على رأس فارع ـ يعني أطمة ـ فقلت: والله إن هذه لسلاحٌ ما هي بسلاح العرب. وكأنها إنما تهوى إلى حمزة ولا أدري؟

أَسمعني بعض قولها أكفكموها:

قال: فأنشده عمر بعض ما قالت. فقال حسان يهجو هنداً. وفي هذا الهجاء إشارة إلى أنها كانت معروفة بالزنا:

أشرت لكاع وكان عادَتُها ... لُؤماً إذا أشرت مع الكفر
لعنَ الإلهُ وزوجها معها ... هند الهنود عظيمة البَظَر
أخرجتِ مُرقِصةً إلى أحدٍ ... في القوم مقتبةً على بكر
بكرٍ ثفالٍ لا حراك به ... لا عن مُعاتَبةٍ ولا زجر
وعَصاك إستُك تَتَّقينَ بها ... دَقَّى العُجَايَةَ هندُ بالفِهرِ
قَرَحت عجيزتَها ومشرجها ... من دَأبِها نَصاً على القُترِ
ظلت تداويها زميلَتُهَا ... بالماء تنضحُهُ وبالسِّدرِ
أخرجتِ ثائرَ مبادرةً ... بأبيك وابنك يوم ذي بدرِ
وبعمك المستوه في ودعٍ ... وأخيك منعفرين في الحُفَرِ
ونسيت فاحشةً أتيت بها ... يا هند ويحك سُبةَ الدَّهرِ
فرجعت صاغرةً بلا ترةٍ ... منا ظفرتِ بها ولا نصرِ
زعم الولائد أنها ولدت ... ولداً صغيراً كان من عهرِ[1]

---

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٠٥ والسيرة لابن هشام ص ٥٨٢ والأغاني ج ١٥ ص ١٩٨. بولاق ٢١/ ١٤.

ومما يؤكد أنها كانت معروفة بالزنا وأنها حملت من الزنا ما ذكره في الأغاني أن المسافر بن عمرو بن أمية كان من أحسن فتيان قريش جمالاً وشعراً وسخاءً.

قالوا: فعشق هنداً بنت عتبة بن ربيعة وعشقته. فأتهم بها وحملت منه.

قال بعض الرواة: فقال معروف بن خرّبوذ.

فلما بان حَمْلُها أو كاد قالت له: أخرج. فخرج حتى أتىٰ الحيرة.

فأتىٰ عمرو بن هند فكان ينادمه وأقبل أبو سفيان بن حرب إلى الحيرة في بعض ما كان يأتيها، فلقيٰ مُسَافراً. فسأله عن حال قريش والناس. فأخبره وقال له فيما يقول: وتزوجتُ هنداً بنت عتبة.

فدخله من ذلك ما اعتل معه حتى استسقىٰ بطنُه.

قال ابن خربّوذ: فقال مسافر في ذلك.

الا إن هنداً أصبحتْ منك مَحرَماً وأصبحتَ من أدنىٰ حُمُوّتها حَما
وأصبحتَ كالمقمور جفن سلاحه يقلب بالكفين قوساً وأسهُما[1]

وممن صرح بأن هند كانت تذكر في مكه بفجور وعُهر الزمخشري في كتاب (ربيع الابرار) وقال:

كان معاوية يُعزى إلى أربعة إلى مسافر بن أبي عمرو وإلى عُمارة بن الوليد بن المغيرة وإلى العباس بن عبد المطلب وإلى الصبّاح، مغنٍ كان لعمارة بن الوليد. قال: وكان أبو سفيان دميماً قصيراً وكان الصبّاح عسيفاً[2] لأبي سفيان شاباً وسيماً، فدعته هند إلى نفسها فغشيها.

وقالوا: إن عتبة بن أبي سفيان من الصبّاح أيضاً. وقالوا: أنها كرهت أن تضعهُ في منزلها، فخرجت إلى أجياد، فوضعته هناك.

وفي هذا المعنىٰ يقول حسان أيام المهاجاة بين المسلمين والمشركين في حياة رسول الله ﷺ قبل عام الفتح:

---

(١) الأغاني ج ٩ ص ٥٠. بولاق ٨/٤٩.
(٢) العسيف: الأجير.

لـمـن الـصـبـيّ بـجـانـب الـبـطـحـا فـي الـتُـربِ مـلـقـىً غـيـر ذي مَـهـدِ
نـجـلـت بـه بـيـضـاءُ آنـسـةٌ من عبدِ شمسٍ صلتهُ[1]، الـخَـدِّ[2]

ومما يشير إلى فعلها ما ذكره في عيون الأخبار من أن معاوية قال لأبي الجهم العدوي: أنا أكبر أم أنت؟

قال: لقد أكلت في عرس أمك هند.

قال: عند أي أزواجها؟

قال: عند حفص بن المغيرة.

قال: يا أبا الجهم اياك والسلطان فإنه يغضب غضب الصبي ويعاقب عقوبة الأسد[3].

النهاية السوداء:

هلك معاوية بدمشق سنة ٦٠هـ وكانت ولايته تسع عشرة سنة وعشرة أشهر وثلاث ليال.

ومات وهو ابن خمس وسبعين سنة أو ثمان وسبعين سنة.

وقال معاوية لابنتيه في مرضه الذي مات فيه وهما يقلبانه:

«تقلبان حُولاً قلباً، جمع المال من شبَّ إلى دب إن لم يدخل النار».

ثم تمثل:

لقد سعيتُ لكم من سعي ذي نصبٍ وقد كفيتكم التطواف والرَّحلا»[4]

والمتتبع للتاريخ عندما يصل إلى ذكر اللحظات الأخيرة للحكام، أي في حالة سكرات الموت، يجد أن الحالة التي أصابت فرعون عند موته تصيبهم. فعندما يرى الموت قد نزل به وليس له مهرب من الله ومن عذابه، فيظهر الإيمان والندم على ما صدر منه.

---

(١) الصلت: الأملس.

(٢) شرح نهج البلاغة ج١ ص ٣٣٦.

(٣) عيون الأخبار ج ١ ص ٢٨٣.

(٤) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٤١.

﴿حتى إذا أدركه الغرق قال ءَامنت أنَّهُ لا إِلهَ إلا الذي ءَامنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين * ءالْئنَ وقد عصيتَ قبلُ وكنت من المفسدين﴾[1].

وقد أدركت هذه الحالة معاوية وهو في لحظاته الأخيرة وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة وانقطع عن الدنيا وما فيها.

روى ابن جرير أن معاوية جعل يغرغر بالموت وهو يقول: «إن يومي بك يا حجر بن عدي لطويل» قالها ثلاثاً[2].

وقال بعضهم: لما احتضر معاوية جعل يقول:

لعمري لقد عمرت في الدهر برهةً ودانت لي الدنيا بوقع البواتر
وأعطيت حمر المال والحكم والهنىٰ ولي سلمت كل الملوك الجبابر
فأضحىٰ الذي قد كان مما يسرُّني كحكم مضى في المزمنات الغوابر
فيا ليتني لم أعن في الملك ساعة ولم أسع في لذات عيش نواضر
وكنت كذى طمرين عاش ببلغة فلم يك حتى زار ضيق المقابر[3]

وقال موسىٰ بن عقبة: لما نزل بمعاوية الموت قال: يا ليتني كنت رجلاً من قريش بذي طوىٰ، ولم ألَ من هذا الأمر شيئاً.

وقال بعضهم: لما احتضر جعل أهله يقلبونه فقال لهم: أي شيخ تقلبون؟

إن نجاه الله من عذاب النار غداً.

وقال العتبي عن أبيه: تمثل معاوية عند موته بقول بعضهم:

هو الموت لا منجا من الموت والذي نحاذر بعد الموت أدهىٰ وأفظع[4]

وهكذا هلك معاوية وهلك معه ذكره ولم يبق له ذكرٌ جميل.

---

(١) يونس ـ ٩٠.
(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ٥٣.
(٣) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٤١، العقد الفريد ج ٣ ص ٨.
(٤) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٤٢.

بل خلّف في الأمة ولداً أتبعه اللعنات والذكر السيء.

لقد خاض في دماء المسلمين وأبدع البدع وجرّ الويلات على الأمة بسيرته التي لم يرتضها أصحاب رسول الله ﷺ.

وقد قال الشاعر مخاطباً لمعاوية:

أكلتم أرضنا فجردتموها ... فهل من قائم أو من حصيد
أتطمع بالخلود إذا هلكنا ... وليس لنا ولا لك من خلود
فهبنا أمة هلكت ضياعاً ... يزيد أميرها وأبو يزيد[1]

والعجب كل العجب ممن يذكر هذه السيرة ويعتبرها اجتهاداً منه!

وهل يمكن أن يجتهد الإنسان في قتل الأبرياء وسفك الدماء ونهب الأموال واللعب بمقدرات الأمة؟ وهل يمكن للإنسان أن يجتهد في الكذب على الله ورسوله ﷺ؟ أنا لا أدري.

فإذا أستحال الإجتهاد فما هذا الاطراء والمدح لأمثال هؤلاء الذين كذبوا على الله ورسوله ﷺ وسفكوا دماء الأبرياء؟

ذكر عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: سألت أبي عن علي ومعاوية فقال: أعلم أن علياً كان كثير الأعداء، ففتش له أعداؤه عيباً فلم يجدوا، فجاؤا إلى رجل قد حاربه وقاتله فأطروه كياداً منهم له[2].

وقد قال علي عليه السلام: «إذا أقبلت الدنيا على أحدٍ أعارته محاسن غيره، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه».

هذا غيض من فيض من مثالب هذا الرجل، ونحن ـ تمشياً مع الهدف المنشود في الكتاب وهو الاختصار والإيجاز ـ نكتفي بهذا القدر، ونحيل القارىء إلى الكتب المفصلة، وإلا فالحديث عن مساوىء الرجل طويل وطويل لا يتسع لهذا المختصر.

---

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٤٢.

(٢) تاريخ السيوطي ص ١٩٩.

يزيد بن معاوية

٦٠ـ ٦٤هـ

يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية وأمه ميسون البحدلية وقد عرفت نسبه في ترجمة معاوية.

أتته الولاية بعد هلاك أبيه وهو «بحوارين» فدخل دمشق وأخذ الناس بالبيعة، وكان يوم بويع له ابن أربع وثلاثين سنة.

وكان أبوه أخذ البيعة له في أيام حياته. فجمع الناس وقام الخطباء لبيعة يزيد وأظهر قوم الكراهة، فقام رجل من عُذرة يقال له يزيد بن المقنع. واخترط سيفه شبراً ثم قال:

أمير المؤمنين هذا وأشار إلى معاوية. فإن هلك فهذا، وأشار إلى يزيد ومن أبىٰ فهذا وأشار إلى سيفه.

فقال معاوية: أنت سيد الخطباء[1].

وفي ذلك يقول أحد الشعراء:

فإن تأتوا برملة أو بهند نبايعها أميرة مؤمنينا
إذا ما مات كسرى قام كسرى نعد ثلاثة متناسقينا

وكان في غرة شبابه وقد أخذه الغرور مأخذاً عظيماً وكان متهتكاً زنديقاً تاركاً للصلاة.

---

(١) عيون الأخبار ج ٢ ص ٢١٠، العقد الفريد ج ٤ ص ١٦٢.

وكان يشرب الخمر ويعزف بالطنابير ويضرب عنده القيان ويلعب بالكلاب والقردة، وهو أول من سن الملاهي وأظهر الفتك وشرب الخمر وكان ينادم خادمه سرجون النصراني.

وولغ في دماء المسلمين وقتل النفس التي حرم الله.

ونكح أمهات الأولاد والبنات والأخوات وكان يقتل على الغضب والظن.

وهو الزنديق الذي تمثل بأبيات ابن الزبعرىٰ في وقعة أحد وأضاف عليها:

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلوا واستهلوا فرحاً ... ثم قالوا يا يزيد لا تشل
قد قتلنا القرم من ساداتهم ... وعدلناه ببدرٍ فاعتدل
لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولا وحيٌ نزل
لست من خندف إن لم انتقم ... من بني أحمد ما كان فعل

ودام حكمه ثلاث سنوات انتهك فيها أعظم الحرمات.

ففي السنة الأولىٰ قتل سبط رسول الله ﷺ وسيد شباب أهل الجنة الحسين بن علي عليهما السّلام وأهل بيته وحمل نساءه وذراريه سبايا إلى الشام. وسوف نذكر ذلك في فصل إن شاء الله.

وفي السنة الثانية أباح مدينة رسول الله ﷺ لجنده ثلاثة أيام وانتهكت حرمة رسول الله ﷺ وحرمة مسجده وقتل من الصحابة والتابعين الكثير وانتهبت الأموال وانتهكت الأعراض وسوف نذكر ذلك في فصل خاص.

وفي سنته الأخيرة وفي حصاره لابن الزبير. ضرب الكعبة المشرفة بالمنجنيق وانتهك حرمة بيت الله الحرام في مكة واحترق شيءٌ من الكعبة.

وما طالت أيامه حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر وقصمه قاصم الجبابرة «وكذلك أخذ ربك».

شب يزيد بن معاوية على النفاق. فإن جده أبا سفيان دخل في الإسلام راغماً وما استقرّ الإيمان في قلبه يوماً وهو القائل يوم بويع عثمان:

«تلقفوها تلقف الكرة حتى تصير إلى صبيانكم فوالذي يحلف به أبو سفيان ما من جنة ولا نار»[1] فهذا جده، وقد ترعرع يزيد في أحضان والده معاوية وقد ذكرنا أحواله مع رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام وقد خرج على إمام زمانه وهم الفئة الباغية فكان يزيد يشب ويكبر في تلك الأجواء التي يسودها النفاق والكذب والدهاء والمكر والخديعة والدجل وحب الدنيا والمال ومما لا شك فيه أن الصفات الذاتية للأب والطبيعة والبيئة والمجتمع، كل ذلك له تأثير كبير في نفسية الطفل.

فمن يترعرع في القصور وفي أحضان الجواري والخدم ويفتح عينيه على مجالس اللهو واللعب ويسمع الكذب والنفاق والبذاء ويشب على العداء لأهل البيت عليهم السلام، لا يتوقع منه أن يكون إماماً عادلاً يخاف من الله تعالى. وقد قال تعالى: **﴿أفرءيت من اتخذ إلهه هوٰهُ وأضَلَّهُ اللهُ على علم وختم على سمعهِ وقلبِهِ وجعل على بصره غشٰوةً فمن يهديهِ من بعد الله أفلا تذكرون﴾**[2].

مقتل الحسين عليه السلام

الحسين بن علي بن أبي طالب وأمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ.

وقد قال رسول الله ﷺ: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»[3].

وقال ﷺ: «هما ريحانتاي من الدنيا»[4].

وقال ﷺ: «من أحبهما فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني»[5].

ونظر النبي إلى علي والحسن والحسين وفاطمة فقال: «أنا حرب لمن حاربكم، سلم لمن سالمكم»[6].

وروىٰ الترمذي بإسناده عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حسين مني وأنا

---

(١) شرح نهج البلاغة ج ٦ ص ٢٩٠.

(٢) الجاثية ٢٣.

(٣) رواه الإمام أحمد والترمذي راجع البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٠٦.

(٤) رواه الترمذي.

(٥) و (٦) رواه الإمام أحمد.

من حسين، أحب الله من أحب حسيناً، حسين سبط من الأسباط» ثم قال الترمذي هذا حديث حسن[1].

والأخبار في فضله عليه السلام كثيرة ومشهورة. فعلىٰ قاتليه لعنه الله.

بعد وصول خبر هلاك معاوية إلى المدينة كتب يزيد إلى أميرها وهو الوليد بن عتبة بن أبي سفيان. أن يأخذ البيعة من الحسين عليه السلام وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر فامتنع الحسين عليه السلام عن البيعة وخرج إلى مكة وفي مكة أعلن الثورة على الطاغية يزيد بن معاوية وذكر مثالبه وجرائمه وأعلن عن الهدف من ثورته وهو الخروج لطلب الإصلاح في أمة جده وقال: إنما خرجت لآمر بالمعروف وأنهىٰ عن المنكر وهو القائل لمروان حين أشار عليه ببيعة يزيد: «وعلى الإسلام السلام إذ قد بليت الأمة براع مثل يزيد». وقائلاً لأخيه محمد بن الحنفية: «والله لو لم يكن ملجأ ولا مأوىٰ لما بايعتُ يزيد بن معاوية أناأهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة بنا فتح الله وبنا ختم ويزيد رجل فاسق شارب الخمر وقاتل النفس المحترمة ومثلي لا يبايع مثله».

وخرج الحسين عليه السلام إلى العراق بأهل بيته وعياله.

وكان يزيد ولىٰ ابن زياد الكوفة وكتب له كتاباً يقول فيه: «أنه بلغني أن الحسين بن علي قد توجه نحو العراق، فضع المناظر والمسالح واحترس على الظن وخُذ على التهمة»[2].

فالتقى الفريقان عند كربلاء، فأحاط جيش يزيد وابن زياد بالحسين وعياله وأهل بيته وأصحابه عليهم السّلام وكانوا اثنين وسبعين رجلاً.

فمنعوهم من ماء الفرات الذي كان يشرب منه الفجار والأبرار وترده البهائم والوحوش، فأشرفوا على الهلاك من شدة العطش.

وطلب منهم عمر بن سعد بن أبي وقاص الذي كان يقود الجيش أن ينزلوا على أمر ابن زياد ويبايعوا ليزيد بن معاوية.

---

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٠٦.

(٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٨٦.

لكن الحسين عليه السلام أبى الذل والعار وهو القائل.

سأمضي وما بالموت عارٌ على الفتىٰ إذا ما نوىٰ حقاً وجاهد مسلماً
أقدم نفسي لا أريد بقاءها لتلقىٰ خميساً في الوغىٰ وعرمرما
فإن عشت لم أندم وإن مت لم ألم كفىٰ بك ذلاً أن تعيش فترغماً[1]

فقال الحسين عليه السلام في جوابهم:

والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أفر فرار العبيد.

ودارت رحىٰ الحرب بينهم وقتل أصحاب الحسين شهيداً بعد شهيد.

وقتل من أهل بيته ثمانية عشر رجلاً ما علىٰ وجه الأرض لهم من شبيه. وقتل طفله الرضيع عبد الله بعدما استسقىٰ له ماءً فأبوا أن يسقوه.

وقال عبد الله بن عمار:

«رأيت الحسين حين اجتمعوا عليه يحمل على من علىٰ يمينه حتى انذعروا عنه، فوالله ما رأيت مكثوراً قط قد قتل أولاده وأصحابه أربط جأشاً منه ولا أمضىٰ جناناً منه، والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله»[2].

وقتل الحسين عليه السلام يوم العاشر من المحرم سنة ٦١هـ شهيداً عطشاناً مظلوماً. فإنا لله وإنا إليه راجعون ولو كان رسول الله ﷺ حياً لكان المعزىٰ بهم.

وجرت من الحوادث والمصائب على أهل بيت رسول الله ﷺ من القتل والسبي وحرق الخيام وسلب النساء والأطفال وضربهم ما لم يشهده التاريخ من قبل.

ونحن في هذا المختصر لا يمكننا أن نذكر كل تلك التفاصيل التي جرت يوم العاشر من المحرم فيطول ذكرها. وعلى الباحث أن يراجع كتب التاريخ المفصلة.

---

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٧٣.

(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٨٨.

اضطراب في الكون

ذكر السيوطي في تاريخه: لما قتل الحسين مكثت الدنيا سبعة أيام والشمسُ على الحيطان كالملاحف المعصفرة والكواكب يضرب بعضها بعضاً.

وكان قتله يوم عاشوراء وكسفت الشمس ذلك اليوم واحمرت آفاق السماء ستة أشهر بعد قتله ثم لا زالت الحمرة ترىٰ فيها بعد ذلك ولم تكن ترى فيها قبله[1].

وفي ذلك قال المعري:

وعلى الأفق من دماء الشهيدين ... علي ونجله شاهدان
فهما في أواخر الليل فجران ... وفي أولياته شفقان
ثبتا في قميصه ليجيء الحشر ... مستعدياً إلى الرحمن

وقيل: انه لم يقلب حجر من بيت المقدس يومئذ إلا وجد تحته دم عبيط وصار الورسُ الذي في عسكرهم رماداً ونحروا ناقة في عسكرهم فكانوا يرون في لحمها مثل النيران وطبخوها فصارت مثل العلقم.

وتكلم رجل في الحسين بكلمة فرماه الله بكوكبين من السماء فمطس بصره[2].

قال الحصين: ولما قتل الحسين عليه السلام لبثوا شهرين أو ثلاثة كأنما تلطخ الحوائط بالدماء ساعة تطلع الشمس حتى ترتفع[3].

وروى ابن عساكر أن طائفة من الناس ذهبوا في غزوة إلى بلاد الروم فوجدوا في كنيسة مكتوباً:

أترجوا أمة قتلت حسيناً ... شفاعة جده يوم الحساب

فسألوهم: من كتب هذا؟

فقالوا: إن هذا مكتوب ههنا من قبل مبعث نبيكم بثلاثمائة سنة.

---

(١) و (٢) تاريخ السيوطي ص ٢٠٧.

(٣) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٧١.

وروي أن الذين قتلوه رجعوا فباتوا وهم يشربون الخمر والرأس معهم، فبرز لهم قلم من حديد فرسم لهم في الحائط بدم هذا البيت:

أترجوا أمة قتلت حسيناً شفاعة جده يوم الحساب[1].

وقال الإمام أحمد (بإسناده عن عمار بن أبي عمار) عن ابن عباس قال: «رأيت رسول الله ﷺ في المنام نصف النهار أشعث أغبر، معه قارورة فيها دم، فقلت: بأبي وأمي يا رسول الله ما هذا؟

قال: هذا دم الحسين وأصحابه لم أزل ألتقطه منذ اليوم».

قال عمار بن أبي عمار: فأحصينا ذلك اليوم فوجدناه قد قتل في ذلك اليوم[2].

وروىٰ الترمذي (بإسناده) عن سلمىٰ قالت: دخلت على أم سلمة وهي تبكي فقلت: ما يبكيك؟

فقالت: رأيت رسول الله ﷺ وعلى رأسه ولحيته التراب فقلت: مالك يا رسول الله؟

قال: «شهدت قتل الحسين آنفاً»[3].

وروى عن أم سلمة قالت: سمعتُ الجن ينحن على الحسين وهن يقلن:

أيها القاتلون جهلاً حسيناً أبشروا بالعذاب والتنكيل
كل أهل السماء يدعو عليكم ونبي ومرسل وقبيل
قد لعنتم على لسان ابن داود وموسىٰ وصاحب الانجيل[4].

وقال الزهري: خرجت مع قتيبة أريد المصيصة فقدمنا على عبد الملك بن مروان. وإذا هو قاعد في ايوان له وإذا سماطان من الناس على الباب فجئنا فقمنا على باب الايوان فقال عبد الملك: للذي عن يمينه: هل بلغكم أي شيء أصبح في بيت المقدس ليلة قتل الحسين بن علي؟

---

(١) و (٢) و (٣) و (٤) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٠٠.

قال: فسأل كل واحد فلم يرو أحد فيها شيئاً.

قال الزهري: فقلت: عندي في هذا علم.

فقال عبد الملك: ما أصبح ببيت المقدس يوم قتل الحسين بن علي بن أبي طالب؟

فقال الزهري: حدثني فلان ولم يسمه أنه لم يرفع تلك الليلة التي صبيحتها قتل علي بن أبي طالب والحسين بن علي حجر في بيت المقدس إلا وجد تحته دم عبيط، أي (طري).

فقال عبد الملك: صدقت. حدثني الذي حدثك وأني وإياك في هذا الحديث لغريبان[1].

يزيد يستقبل الأسارىٰ والرؤوس

عن مجاهد: لما جيء برأس الحسين عليه السلام فوضع بين يدي يزيد تمثل بهذه الأبيات:

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج في وقع الأسل
فأهلوا واستهلوا فرحاً ... ثم قالوا لي هنيئاً لا تشل
حين حكت بفناء بركها ... واستحر القتل في عبد الأسل
قد قتلنا الضعف من أشرافكم ... وعدلنا ميل بدر فاعتدل

قال مجاهد: نافق فيها، والله ثم والله ما بقي في جيشه أحد إلا تركه أي ذمه وعابه[2].

قال الشعبي وزاد فيها يزيد فقال:

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولا وحي نزل
لست من خندف إن لم أنتقم ... من بني أحمد ما كان فعل[3]

وقال أبو مخنف: وقام يحيى بن الحكم فقال:

---

(١) العقد الفريد ج ٤ ص ١٧٢.
(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٩٢.
(٣) تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي ص ٢٦١.

لهام بجنب الطف أدنىٰ قرابة من ابن زياد العبد ذي الحسب الوغل
سمية أضحىٰ نسلها عدد الحصىٰ وليس لآل المصطفى اليوم من نسل

قال: فضرب يزيد في صدر يحيى بن الحكم وقال له: اسكت[1].

وذكر في تاريخ الطبري:

عندما أذن يزيد للناس فدخلوا ورأس الحسين بن علي عليه السلام بين يديه ومع يزيد قضيب فهو ينكت به في ثغره عليه السلام.

ثم قال: إن هذا وإيانا كما قال الحصين ابن الحمام المرّى:

يفلقن هاماً من رجالٍ أحبة إلينا وهم كانوا أعق وأظلما

فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يقال له أبو برزه الأسلمي: أتنكت بقضيبك في ثغر الحسين، أما لقد أخذ قضيبك في ثغره مأخذاً، لربما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يرشفه، أما انك يا يزيد تجيء يوم القيامة وابن زياد شفيعك ويجيء هذا يوم القيامة ومحمد صلى الله عليه وآله شفيعه، ثم قام[2].

وقال الزهري: لما جاءت الرؤوس كان يزيد في منظره على جيرون فأنشد لنفسه:

لما بدت تلك الحمول وأشرقت تلك الشموس على رُبىٰ جيرون
نعب الغراب فقلت صح أو لا تصح فلقد قضيت من الغريم ديوني[3]

عن فاطمة بنت علي قالت[4]: لما أجلسنا بين يدي يزيد بن معاوية قام رجلٌ من أهل الشام أحمر قام إلى يزيد فقال: يا أمير المؤمنين هب لي هذه (يعنيني) فأرعدت وفرقت وظننت أن ذلك جائز لهم، وأخذت بثياب أختي زينب، قالت وكانت أختي أكبر مني وكانت تعلم أن ذلك لا يكون. فقالت: كذبت والله ولؤمت ما ذلك لك وله.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٥٦.

(٣) تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي ص ٢٦١.

(٤) لعلها فاطمة بنت الحسين إذ لم يكن بركب الحسين من بنات أمير المؤمنين سوى زينب وأم كلثوم.

فغضب يزيد وقال: كذبت والله إن ذلك لي ولو شئت أن أفعله لفعلت.

قالت: كلا والله ما جعل الله لك ذلك إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا.

قال: فغضب يزيد واستطار ثم قال: إياي تستقبلين بهذا، إنما خرج من الدين أبوك وأخوك.

فقالت زينب: بدين الله ودين أبي ودين أخي وجدي اهتديت أنت وأبوك وجدك.

قال: كذبتِ يا عدوة الله.

قالت: أنت أمير مسلط تشتم ظالماً وتقهر بسلطانك.

قال الراوي: فوالله لكأنه استحيا فسكت[1].

وذكر سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص نقلاً عن جده. قال: ليس العجب من قتال ابن زياد الحسين وتسليطه عمر بن سعد على قتله والشمر وحمل الرؤوس إليه، وإنما العجب من خذلان يزيد وضربه بالقضيب ثناياه وحمل آل رسول الله ﷺ سبايا على أقتاب الجمال، وعزمه على أن يدفع فاطمة بنت الحسين إلى الرجل الذي طلبها، وإنشاده أبيات ابن الزبعرىٰ: (ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا).

ورده الرأس إلى المدينة وما كان مقصوده إلا الفضيحة فيجوز أن يفعل هذا بالخوارج؟ أليس بإجماع المسلمين أن الخوارج والبغاة يكفنون ويصلى عليهم ويدفنون، وكذا قول يزيد: «لي أن أسبيكم» لما طلب الرجل فاطمة بنت الحسين قولاً يقنع لقايله وفاعله باللعنة ولو لم يكن في قلبه أحقاد جاهلية وأضغان بدرية لاحترم الرأس لما وصل إليه ولم يضربه بالقضيب وكفنه ودفنه وأحسن إلى آل رسول الله ﷺ.

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٥٣.

قال سبط ابن الجوزي: والذي يدل على هذا أنه استدعى ابن زياد إليه وأعطاه أموالاً كثيرة وتحفاً عظيمة وقرب مجلسه ورفع منزلته وأدخله على نسائه وجعله نديمه.

وسكر ليلةً وقال للمغني غن ثم قال يزيد بديهياً:

اسقني شربة تروي فؤادي ... ثم مل فاسق مثلها ابن زياد
صاحب السرو والأمانة عندي ... ولتسديد مغنمي وجهادي
قاتل الخارجي أعني حسيناً ... ومبيد الأعداء والحساد[1]

واقعة الحرة

بعد انتشار صدى ثورة الحسين عليه السلام في الآفاق وسماع الناس بما جرى على آل بيت رسول الله ﷺ وذريته وحرمه من القتل والتنكيل والسبي وحملهم إلى يزيد بأفجع الصور التي لا يحتمل سماعها حتى قساة القلوب.

دبت الثورة في أرجاء البلاد وتعالت الصيحات بخلع يزيد الذي تجاهر بالكفر والإلحاد.

وكانت المدينة مركز الثورة لكونها حاضنةً لأهل بيت النبوة ﷺ ولمشاهير الصحابة والتابعين وزوجات النبي ﷺ الأمر الذي كان يثير قلق يزيد. فالمدينة هي التي ثارت على عثمان من قبل وخرجت لقتال معاوية واليوم تثور على يزيد.

فكتب يزيد إلى أهل المدينة كتاباً: أما بعد فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال. إني والله قد لبستكم فأخلقتكم ورقعت بكم فاخترقتكم ثم وضعتكم على رأسي ثم على عيني ثم على فمي ثم على بطني، وأيم الله لئن وضعتكم تحت قدمي لأطأنكم وطأة أقلّ بها عددكم وأذِل غابركم وأترككم أحاديث تُنسخ بها أخباركم مع أخبار عاد وثمود[2].

---

(١) تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي ص ٢٩٠

(٢) عيون الأخبار، العقد الفريد ج ٤ ص ١٧٣.

وذكر أبو مخنف أن وفداً من أهل المدينة فيهم عبد الله بن حنظلة الغسيل وعبد الله بن عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي والمنذر بن الزبير ورجالاً كثيراً من أشراف أهل المدينة قدموا على يزيد بن معاوية. فأكرمهم وأحسن إليهم وأعظم جوائزهم ثم انصرفوا من عنده وقدموا المدينة كلهم إلا المنذر بن الزبير فإنه قدم على عبيد الله بن زياد بالبصرة وكان يزيد قد أجازه بمائة ألف درهم فلما قدم أولئك النفر المدينة قاموا فيهم فأظهروا شتم يزيد وعتبهِ. وقالوا: إنا قدمنا من عند رجل ليس له دين يشرب الخمر ويعزف بالطنابير ويضرب عنده القيان ويلعب بالكلاب ويسامر الحُزاب والفتيان وإنا نشهدكم إنا قد خلعناه فتابعهم الناس[1].

وممن كان يحرض الناس على يزيد المنذر بن الزبير وكان من قوله يومئذ: «أن يزيد والله لقد أجازني بمائة ألف درهم وإنه لا يمنعني ما صنع إليّ أن أخبركم خبره وأصدُقكم عنه والله إنه ليشرب الخمر وانه ليسكر حتى يدع الصلاة[2].

وفي سنة ثلاث وستين أخرج أهل المدينة عامل يزيد بن معاوية وهو عثمان بن محمد بن أبي سفيان من المدينة وأظهروا خلع يزيد وحاصروا بني أمية في دار مروان وبايعوا عبد الله بن حنظلة على خلع يزيد.

وبعث يزيد بجيش وأمر عليهم مسلم بن عقبة (الذي سمي فيما بعد بمسرف لأنه أسرف في القتل) وقال له:

إن حدث بك حدث فاستخلف على الجيش حصين بن نمير السكوني، وقال له: ادع القوم ثلاثاً فإن هم أجابوك وإلا فاقتلهم فإذا ظهرت عليهم فأبحها ثلاثاً بما فيها من مال أو رقةٍ أو سلاح أو طعام فهو للجند فإذا مضت الثلاثة فأكفف عن الناس[3].

وأمره أن يأخذ البيعة منهم على أنهم عبيد وخول ليزيد بن معاوية ومن أبىٰ منهم يقتله.

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٦٨.

(٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٦٩.

(٣) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٧٠ـ ٣٧٢.

وسار مسرف بن عقبة حتى بلغ المدينة وكانت واقعة الحرة في ذي الحجة من سنة ٦٣ يوم الأربعاء لليلتين بقيتامنه.

وذكر أن مسرف بن عقبة كان مريضاً يوم القتال وأنه أمر بسرير وكرسي فوضع بين الصفين ثم قال: يا أهل الشام: قاتلوا عن أميركم أو دعوا، ثم زحفوا نحوهم فأخذوا لا يصمدرن لربع من تلك الأرباع إلا هزموه ولا يقاتلون إلا قليلاً حتى تولوا وقتل عبد الله بن حنظلة والفضل بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وبعض الصحابة وأباح مسلم المدينة ثلاثة أيام لجنده يقتلون الناس ويأخذون الأموال. فأفزع ذلك من كان بها من الصحابة ودخل مسلم المدينة فدعا الناس للبيعة على أنهم خول وعبيد ليزيد بن معاوية يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم ما شاء[١].

وكان عدد المقتولين بالحرة من قريش والأنصار ثلاثمائة وستة رجال[٢].

وذكر واقعة الحرة الحسن فقال: والله ما كان ينجو منهم أحد، قتل فيها خلق من الصحابة ومن غيرهم ونهبت المدينة، وافتض فيها ألف عذراء، فإنا لله وإنا إليه راجعون، قال رسول الله ﷺ: «من أخاف أهل المدينة أخافه الله وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» رواه مسلم[٣].

قال في تاريخ السيوطي: وكان سبب خلع أهل المدينة له أن يزيد أسرف في المعاصي وأخرج الواقدي من طرق أن عبد الله بن حنظلة قال:

والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمىٰ بالحجارة من السماء، إنه رجل ينكح أمهات الأولاد والبنات والأخوات ويشرب الخمر ويدع الصلاة[٤].

ويقتل أولاد النبيين والله لو يكون عندي أحد من الناس لأبلىٰ الله فيه بلاءاً حسنا.

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٨١.

(٢) تاريخ السيوطي ص ٢١٠.

(٣) و (٤) تاريخ السيوطي ص ٢٠٩.

قال ابن سعد: وكان مروان بن الحكم يحرض مسلم بن عقبة على أهل المدينة فبلغ يزيداً فشكر مروان وقربه وأدناه ووصله.

وذكر المدائني في كتاب (الحرة) عن الزهري قال: كان القتلىٰ يوم الحرة سبعمائة من وجوه الناس من قريش والأنصار والمهاجرين ووجوه الموالي، وأما من لم يعرف من عبد أو حر أو امرأة فعشرة آلاف وخاض الناس في الدماء حتى وصلت الدماء إلى قبر رسول الله ﷺ وامتلأت الروضة والمسجد.

قال مجاهد: التجأ الناس إلى حجرة رسول الله ﷺ ومنبره والسيف يعمل فيهم.

وذكر أبو الحسن المدائني عن أم الهيثم بنت يزيد قالت: رأيت امرأة من قريش تطوف بالبيت فعرض لها أسود فعانقته وقبلته فقلت لها: ما هذا منك؟

قالت: هذا ابني من يوم الحرة وقع عليّ أبوه فولدته[1].

وذكر أيضاً المدائني عن أبي قرة قال: قال هشام بن حسان: ولدت ألف امرأة بعد الحرة من غير زوج. وغير المدائني يقول عشرة آلاف امرأة[2].

إحراق الكعبة

قال الذهبي: ولما فعل يزيد بأهل المدينة ما فعل مع شربه الخمر وإتيانه المنكرات، اشتد عليه الناس وخرج عليه غير واحد، ولم يبارك الله في عمره وسار جيش الحرة إلى مكة لقتال ابن الزبير، فمات أمير الجيش بالطريق فاستخلف عليهم أميراً وأتوا مكة فحاصروا ابن الزبير وقاتلوه ورموه بالمنجنيق وذلك في صفر سنة أربع وستين.

واحترقت من شرارة نيرانهم أستار الكعبة وسقفها وقرنا الكبش الذي فدى الله به اسماعيل وكانا في السقف[3].

---

(١) و(٢) تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي ص ٢٨٩.

(٣) تاريخ السيوطي ص ٢٠٩.

وذكر في تاريخ الطبري أن الحصين بن نمير حاصر بن الزبير في مكه حتى جاءهم نعي يزيد بن معاوية وكانوا يقذفون البيت بالمنجنيق وحرقوه بالنار وأخذوا يرتجزون ويقولون:

خَطَّارةٌ مثلُ الفنيق المُزبدِ نرمي بها أعواد هذا المسجد

وجعل عمرو بن حوط السدوسي يقول:

كيف ترى صنيع أم فروة تأخذهم بين الصفا والمروة

يعني بأم فروة المنجنيق[1].

خلاعة يزيد

كان يزيد أول من سن الملاهي في الإسلام وآوى المغنين وأظهر الفتك وشرب الخمر وكان ينادم عليها سرجون النصراني مولاه والأخطل وكان يأتيه من المغنين سائب خاثر فيقيم عنده فيخلع عليه ويصله فغناه يوماً:

يا للرجال لمظلوم بضاعته ببطن مكه ناءِ الأهلِ والنَّفرِ

فاعترته أريحية، فَرقص حتى سقط ثم قال: اخلعوا عليه خلعاً يغيب فيها حتى لا يرى منه شيء، فطرحت عليه الثياب والجباب والمطارف والخزّ حتى غاب فيها[2].

وأنشد يوماً أباه حين نهاه عن شرب الخمر:

أمن شربةٍ من ماءِ كرم شربتها غضبت علي الآن طابت لي الخمر
سأشرب فاسخط لا رضيت كلاهما حبيب إلى قلبي عقوقك والسكر[3]

وروى أن يزيد كان قد اشتهر بالمعازف وشرب الخمر والغناء والصيد واتخاذ الغلمان والقيان والكلاب والنطاح بين الكباش والدباب والقرود وما من يومٍ إلا يصبح فيه مخموراً.

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٨٣.

(٢) الأغاني ج ١٧ ص ٣٠٠. بولاق ١٧/ ٧٠.

(٣) المستطرف ج ٢ ص ١٢.

وكان يشد القرد على فرس مسرجة بحبال ويسوق به ويلبّس القرد قلانس الذهب وكذلك الغلمان.

وكان يسابق بين الخيل وكان إذا مات القرد حزن عليه.

وقيل إن سبب موته أنه حمل قردة وجعل ينقزها فعضته[1].

وكان المسور بن مخرمة جليلاً نبيلاً وكان يقول في يزيد بن معاوية أنه يشرب الخمر فبلغه ذلك فكتب إلى عامله بالمدينة أن يجلده الحد ففعل فقال المسور في ذلك:

أيشربها صرفاً يفض ختامها ... أبو خالد ويجلد الحد مسور[2]

وقال ابن عقيل: ومما يدل على كفره وزندقته فضلاً عن سبه ولعنه أشعاره التي أفصح بها بالإلحاد وأبان عن خبث الضمائر وسوء الاعتقاد. فمنها قوله في قصيدته التي أولها:

علية هاتي واعلني وترنمي ... بذلك أني لا أحب التناجيا
حديث أبي سفيان قدماً سمىٰ بها ... إلى أحد حتى أقام البواكيا
ألا هات فاسقيني على ذاك قهوة ... تخيرها العنسي كرماً شاميا
إذا ما نظرنا في أمور قديمة ... وجدنا حلالاً شربها متواليا
وإن مت يا أم الأحيمر فانكحي ... ولا تأملي بعد الفراق تلاقيا
فإن الذي حدثت عن يوم بعثنا ... أحاديث طسم تجعل القلب ساهيا
ولا بد لي من أن أزور محمداً ... بمشمولة صفراء تروى عظاميا[3]

قلت ومنها قوله:

ولو لم يمس الأرض فاضل بردها ... لما كان عندي مسحة في التيمم

ومنها قوله:

معشر الندمان قوموا ... واسمعوا صوت الأغاني
واشربوا كأس مدام ... واتركوا ذكر المغاني

---

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٥.

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٢١٩.

(٣) تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي ص ٢٩٠ـ ٢٩١.

أشغلتني نغمة العيدان عن صوت الأذان
وتعوضت عن الحور خموراً في الدنان

إلى غير ذلك مما نقلته عن ديوانه، ولهذا تطرق إلى هذه الأمة العار بولايته عليها، حتى قال أبو العلاء المعري يشير بالشنار إليها:

أرى الأيام تفعل كل نكر فما أنا في العجائب مستزيد
أليس قريشكم قتلت حسيناً وكان على خلافتكم يزيد[1]

وهناك شبهة يذكرها بعض المؤلفين المأجورين بذكرهم فضيلة ليزيد وهي اشتراكه في حرب القسطنطينية وقد قام المحققون برد تلك الشبهة وذكروا انه لم يشترك في جيش القسطنطينية وذكروا في ذلك قصته في دير مرّان حيث كان انقطع هناك مع عاهر له اسمها أم كلثوم وقد أصابت الحمى والأمراض جيش القسطنطينية في منطقة الفرقدون فأوعز إليه أبوه أن يلتحق بالجيش ويترك العهر موقتاً فرفض وقال:

ما ان أبالي بما لاقت جموعهمُ بالفرقدونة من حمى ومن شوم
إذا اتكأت على الأنماط مرتفقاً بدير مرّان عندي ام كلثوم

(١) المصدر السابق.

مروان بن الحكم

٦٤ـ ٦٥هـ

مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس.

وأمه آمنة بنت علقمة.

ولد سنة اثنتين للهجرة وقيل: أنه لما نُفي مع أبيه إلى الطائف كان طفلاً لا يعقل، وأنه لم ير رسول الله ﷺ.

وكان الحكم أبوه قد طرده رسول الله ﷺ عن المدينة وسيره إلى الطائف فلم يزل بها حتى ولي عثمان، فرده إلى المدينة، فقدمها هو وولده في خلافة عثمان، وتوفي في خلافة عثمان، فاستكتب عثمان مروان وضمه إليه.

والحكم بن أبي العاص هو عم عثمان بن عفان، وكان من مسلمة الفتح ومن المؤلفة قلوبهم وتوفي قبل قتل عثمان بشهور.

واختلف في السبب الموجب لنفي رسول الله ﷺ له.

فقيل: أنه كان يتحيل ويستخفي ويتسمع ما يُسِره رسول الله ﷺ إلى أكابر الصحابة في مشركي قريش وسائر الكفار والمنافقين ويفشي ذلك عنه حتى ظهر ذلك منه.

وقيل: كان يتجسس على رسول الله ﷺ وهو عند نسائه ويسترق السمع ويُصغي إلى ما يجري هناك مما لا يجوز الاطلاع عليه، ثم يحدث به المنافقين على طريق الاستهزاء.

وقيل: كان يحكيه في بعض مشيته وبعض حركاته، فقد قيل: أن النبي ﷺ كان إذا مشىٰ يتكفأ وكان الحكم بن أبي العاص يحكيه. وكان شانئاً له مبغضاً حاسداً، فالتفت رسول الله ﷺ يوماً فرآه يمشي خلفه يحكيه في مشيته فقال له:

كذلك فلتكن يا حكم.

فكان الحكم مختلجاً يرتعش من يومئذ[1].

وفي ذلك قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت لعبد الرحمن بن الحكم يهجوه:

أن اللعين أبوك فارم عضامهُ إن ترم ترم مخلّجاً مجنونا
يمشي خميص البطن من عمل التقىٰ ويظل من عمل الخبيث بطينا

ولربما كانت هذه الصفات كلها مجموعة فيه مما دعىٰ رسول الله ﷺ أن يطرده عن المدينة وعن جواره[2].

وكان عثمان بن عفان يكرم مروان ويعظمه، مما حدا به أن يجعله كاتباً له.

وبسببه جرت قضية الدار وبسببه أيضاً حصر عثمان بن عفان فيها. وكان الناس يلحون على عثمان أن يسلّم لهم مروان فامتنع عثمان امتناعاً شديداً[3].

وكان مروان قصيراً أحمر الوجه أوقص دقيق العنق كبير الرأس واللحية وكان يلقب خيط باطل[4].

وقال محمد بن عمر الواقدي: بويع مروان بن الحكم في المحرم سنة ٦٥ وكان مروان بالشام لا يُحدث نفسه بهذا الأمر حتى أطمعه فيه عبيد الله بن

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر طبعة نهضة مصر ١٣٨٧ـ ١٣٩٠/ شرح نهج البلاغة ج ٦ ص ١٤٨. ص٣٥٩، ٣٦٠.
(٢) شرح نهج البلاغة ج ٦ ص ١٥٠.
(٣) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٥٧.
(٤) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٦٠.

زياد حين قدم عليه من العراق. فقال له أنت كبير قريش ورئيسها، يلى عليك الضحاك بن قيس. فذلك حين كان ما كان. فخرج إلى الضحاك في جيش فقتلهم مروان[1]، واستتب له الأمر.

اللعين:

في أخبار عديدة رويت بطرق مختلفة عن رسول الله ﷺ أنه لعن الحكم بن أبي العاص وابنه مروان وبني الحكم. هذا عدا الأخبار التي وردت في لعن بني أمية، وإن بني الحكم من بني أمية فتعمّهم اللعنة.

وقد ذكرنا بعضها في تعريف بني أمية.

وهنا أذكر بعض الأخبار التي وردت في لعن الحكم وابنه مروان ـ منها عن أبي سعيد قال:

قال رسول الله ﷺ: «إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلاً اتخذوا دين الله دخلاً وعباد الله خولاً ومال الله دولاً»[2].

ورواه العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة من قوله:

«إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً»[3].

ورواه البيهقي في حديث معاوية وعبد الله بن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين اتخذوا مال الله بينهم دولاً وعباد الله خولاً وكتاب الله دغلاً، فإذا بلغوا ستة وتسعين وأربعمائة كان هلاكهم أسرع من لوك تمرة، وأن رسول الله ﷺ ذكر عبد الملك بن مروان فقال: أبو الجبابرة الأربعة»[4].

وروى أبو هريرة «عن رسول الله ﷺ رأى في المنام أن بني الحكم يرقون على منبره وينزلون، فأصبح كالمتغيظ وقال: رأيت بني الحكم ينزون على منبري نزو القردة، فما رؤي رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً بعد ذلك حتى مات»[5].

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٤١٢.

(٢) و (٣) و (٤) و (٥)البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٥٨ـ ٢٥٩.

وكان مروان والياً على المدينة لمعاوية وكان يسب علياً كل جمعة على المنبر. فقال له الحسن بن علي عليه السلام: لقد لعن الله أباك الحكم وأنت في صلبه على لسان نبيه فقال: لعن الله الحكم وما ولد»[1].

وذكر في الاستيعاب عن عائشة أنها قالت لمروان إذ قال في أخيها عبد الرحمن أنه أنزل فيه: ﴿**والذي قال لوالديه أفٍ لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي**﴾[2]: أما أنت يا مروان فأشهد أن رسول الله صلى الله عليه وآله لعن أباك وأنت في صلبه[3].

وروى صاحب كتاب الاستيعاب باسناده ذكر عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «يدخل عليكم رجل لعين» قال عبد الله: وكنت قد رأيت أبي يلبس ثيابه ليقبل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فلم أزل مشفقاً أن يكون أول من يدخل، فدخل الحكم بن أبي العاص[4].

ونظر علي عليه السلام يوماً إلى مروان. فقال له: «ويل لك وويل لأمة محمد منك ومن بنيك إذا شاب صُدغاك»[5].

كفٌ يهودية:

عُرف مروان بالغدر. فأيام حصار عثمان كان المسلمون يأخذون العهود والمواثيق منه أن يسير بهم سيرة عادلة ويخلع من ولاّهم من بني أمية على الناس.

لكن التاريخ يشهد أن مروان الذي كان في بيت عثمان وكان كاتبه الخاص، كان ينقض العهود والمواثيق ويكتب للأمراء والولاة بالتشديد على الناس وتهديدهم وقتلهم وإن كانت كتبه عن أمر عثمان إلا أنه هو الذي كان يحرض عثمان على الناس ويرده عن السير بسيرة سلفه.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الاحقاق ١٧.

(٣) و (٤) و (٥) شرح نهج البلاغة ج ٦ ص ١٥٠، وتاريخ السيوطي ص ٢٠٣، والأغاني ج ١٧ ص ٣٥٧. بولاق ١٧/ ٩٤. وفي عبارة الأغاني «أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعن أباك وأنت في صلبه فأنت فضض من لعنة الله».

فهو الذي كان يشعل الفتن ويأجج النيران في تلك الفتنة.

وبعد مقتل عثمان جاء إلى أمير المؤمنين وبايعه كما بايع الناس ولم تمضِ الأيام حتى ظهر في البصرة ناكثاً البيعة غادراً بالأمة مع الزبير وطلحة خارجاً على إمام زمانه.

وجاء في نهج البلاغة:

قالوا: أُخذ مروان بن الحكم أسيراً يوم الجمل فاستشفع الحسن والحسين عليهما السّلام إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فكلماه فيه فخلىٰ سبيله، فقالا له: يبايعك يا أمير المؤمنين، قال عليه السلام:

أولم يبايعني بعد قتل عثمان! لا حاجة لي في بيعتِهِ إنها كفٌّ يهوديةٌ لو بايعني بيده لغدر بسَبَّتِهِ أما إنَّ له إمرةً كلعقة الكلب أنفهُ وهو أبو الأكبشِ الأربعة، وستلقىٰ الأمةُ منه ومن ولده يوماً أحمر[1].

وكان مروان كما وصفه أمير المؤمنين بالكف اليهودية معروفاً بالغدر والخيانة. فهو الذي وقف مع طلحة والزبير في وجه أمير المؤمنين عليه السلام ينابذ الحق ويدعو معهما بدعوة الباطل. وما إن دارت رحىٰ الحرب حتى وضع السهم في القوس ورمىٰ طلحة بن عبيد الله فإذا به صريعاً وقد قتله وسط تلك المعمعة آخذاً منه ثأره لعثمان. وقال لأبان بن عثمان: قد كفيتك رجالاً من قتلة عثمان[2].

وقد نجىٰ مروان الغادر من القتل في معركة الجمل بشفاعة الحسن والحسين عليهما السّلام ولهما الفضل والمنة عليه.

وطالما أحسنا إليه لكنه كان يرد الإحسان بالإساءة. فبعد هلاك معاوية ووصول كتاب يزيد إلى الوليد بن عتبة أمير المدينة: «أن يأخذ البيعة من الحسين عليه السلام، وبعد أن أجابه الحسين عليه السلام أن مثلي لا يبايع سراً وما أراك تجتزى مني بهذا ولكن إذا اجتمع الناس ودعوتنا معهم فكان أمراً واحداً».

---

(١) نهج البلاغة خطبة ٧٢.

(٢) البداية والنهاية ج٨ ص ٢٥٧، وذيل المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين في نهاية تاريخ الطبري ج ٨ ص ١٤ في قتل طلحة.

فقال الوليد: فانصرف على اسم الله.

فقال مروان للوليد: والله لئن فارقك ولم يبايع الساعة ليكثرن القتل بينكم وبينه، فأحبسه ولا تخرجه حتى يبايع وإلا ضربتَ عنقه فنهض الحسين عليه السلام وقال: يا ابن الزرقاء أنت تقتلني؟ كذبت والله وأثمت ثم انصرف[1].

فهذا كان جزاء إحسان الحسين إليه يوم الجمل، أن يأمر الوالي بقتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وريحانة قلب المصطفى عليه السلام وهو في جوار جده رسول الله صلى الله عليه وآله.

وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ نعم ولكن اتق شرَّ من أحسنت إليه.

ورد جزاء الحسن عليه السلام يوم وفاته عندما عهد الحسن عليه السلام أن يدفن عند جده رسول الله صلى الله عليه وآله فخرج مروان مع بني أمية ممانعاً لبني هاشم أن يدفنوا الحسن عليه السلام عند جده صلى الله عليه وآله وكادت أن تقع الفتنة بين بني هاشم وبني أمية. إلا أن الحسين عليه السلام قطع النزاع بدفن الحسن عليه السلام في البقيع.

ومما عرف به مروان من الغدر في واقعة الحرة التي راح ضحيتها المئات من الناس وانتهكت الأعراض وسفكت الدماء في مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وفي مسجده.

وكان أهل المدينة اجتمعوا على إخراج بني أمية عنها، فأخذوا عليهم العهود والمواثيق ألا يعينوا عليهم الجيش وأن يردوهم عنهم. فإن لم يقدروا على ردهم لا يرجعوا إلى المدينة معهم.

فأتى مروان بن الحكم عبد الله بن عمر. فقال: يا أبا عبد الرحمن إن هؤلاء القوم قد ركبونا بما ترىٰ، فضمَّ عيالَنا.

فقال: لستُ في أمركم، وأمر هؤلاء من شيء.

---

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٤٧.

فقام مروان وهو يقول: قبح الله هذا أمراً وهذا ديناً. ثم أتى علي بن الحسين عليهما السّلام. فسأله أن يضمَّ أهله وثقله ففعل، ووجههم وامرأته أم أبان بنت عثمان إلى الطائف ومعها ابناها عبد الله ومحمد، ومضوا إلى الطائف وأخرجوا بني أمية[1].

فلما التقى مروان بمسلم بن عقبة وهو قادم إلى المدينة في جيش الحرة أدخل ابنه عبد الملك على مسلم بن عقبة وجعل يدله على عورات المدينة وخانوا الميثاق والعهد الذي أخذ منهم[2].

وقد ذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد أن مروان بن الحكم اطلع على ضيعة له بالغوطة فأنكر منها شيئاً، فقال لوكيله:

ويحك أَني لأظنك تخونني؟ قال: أتظن ذلك ولا تستيقنه. قال: وتفعل. قال: نعم والله إني لأخونك وإنك لتخون أمير المؤمنين وإن أمير المؤمنين ليخون الله فلعن الله شر الثلاثة[3].

مروان في نظر أخيه:

كان لمروان أخ يسمىٰ عبد الرحمن بن الحكم وكان شاعراً محسناً لا يرىٰ رأي مروان. وطالما هجاه بشعره.

وكان مروان ضرب يوم الدار على قفاه فخرّ لفيه فلما بويع له بالخلافة قال فيه أخوه:

فـوالله مـا أدري وإنـي لـسـائـلٌ ... حليلةَ مضروبِ القفا كيف تصنعُ
لـحا الله قـوماً أمَّرُوا خيط بـاطـل ... على الناس يُعطي ما يشاء ويمنعُ

ومن شعره:

وهبتُ نصيبي منك يا مرو كُلَّهُ ... لـعـمروٍ ومـروانَ الـطـويـل وخـالـدِ
ورب ابـن أمٍ زائـد غـيـر نـاقـصٍ ... وأنـت ابـن أمٍ نـاقـصٌ غـيـر زائـدِ

ومن شعره:

---

(١) الأغاني ج ١ ص ٢٤. بولاق ج ١ ص ١٣.
(٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٧٣.
(٣) العقد الفريد ج ١ ص ٣١.

ألا من يُبلِغن مروان عني ... رسولاً والرسولُ من البيان
بأنك لن ترى طَرداً لحُمرٍ ... كالصاقٍ به بعض الهَوَانِ
وهل حُدثتَ قبلي عن كريمٍ ... معين في الحوادث أو مُعان
يقيم بدار مضيعةٍ إذا لم ... يكن حيران أو خفق الجنان
فلا تقذف بي الرُّجوينِ إني ... أقل القوم من يغنى مكاني
سأكفيك الذي استكفيت مني ... بأمرٍ لا تخالجه اليدان
فلو أنا بمنزلةٍ جرينا ... جريت وأنت مضطرب العنان
ولولا أن أم أبيك أمي ... وأن من قد هجاك فقد هجاني
لقد جاهرتُ بالبغضاء إني ... إلى أمرِ الجهارة والعِلانِ[1]

وكان عبد الرحمن بن الحكم يُولع بجاريةٍ لأخيه مروان يقال لها «شنباء» ويهيم بمحبتها فبلغ ذلك مروان. فشتمه وتوعده فقال عبد الرحمن:

لعمرُ أبي شنباء إني بذكرها ... وإن شَحطت دار بها لحقيق
وإني لها لا ينزع الله مالها ... عليّ وإن لم ترعه لصديقُ
ولما ذكرتُ الوصل قالت وأعرضت ... متى أنت عن هذا الحديث مفيقُ[2]

وكان عبد الرحمن بن الحكم ممن يتسور على جاراته وكنائنه وكان يتهم في امرأة أخيه مروان.

فماذا تقول في رجلٍ فقد الاحترام والكرامة في رأي أخيه ولم ير له أخوه أي قيمة حتى يبلغ به الأمر أن يتسور على نسائه وحرمه؟

لكن بيت مروان كان معروفاً بالتحلل والتفسخ وعدم المبالاة للقيم الدينية والاجتماعية، فلا عجب أن يفعل أخوه ما يفعل فهذه بنت مروان أم محمد كانت تجالس عمر بن أبي ربيعة الشاعر الماجن الذي اشتهر بالخلاعة والاستهتار.

فروي أنها حجت فلما قضت نسكها أتت عمر بن أبي ربيعة وقد أخفت نفسها في نسوةٍ، فحدثها ملياً، فلما انصرفت أتبعها عمر رسولاً عرف موضعها وسأل عنها حتى أثبتها.

---

(١) شرح نهج البلاغة ج ٦ ص ١٥١.

(٢) الأغاني ج ١٣ في ترجمة عبد الرحمن بن الحكم.

فعادت إليه بعد ذلك فأخبرها بمعرفته إياها. فقال: نشدتك الله أن تشهرني بشعرك وبعثت إليه بألف دينار فقبلها وابتاع بها حُللاً وطيباً فأهداه إليها، فردته، فقال لها: والله لئن لم تقبليه لأنَهبنَّه فيكون مشهوراً، فقبلته ورحلت. فقال فيها:

أيها الراكب المُخبر ابتكاراً قد قضى من تهامة الأوطارا[1]

وكان لمروان بنت أخ وهي بنت يحيىٰ بن الحكم معروفة بالمجون وكانت تخرج مع أم سعيد الأسلمية فتركبان الفرسين فتستبقان عليهما، حتى تبدو خلاخيلهما. فقال معاوية لمروان: اكفني بنت أخيك.

فقال: افعل، فاستزارها، وأمر ببئرٍ فحفرت في طريقها وغطّيت بحصيرٍ فلما مشت عليه سقطت في البئر، فكانت قبرها[2].

فهذا مروان وهذا بيته، فأين العفاف وأين الصيانة؟

اقرارٌ بحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

قد تظافرت الروايات بطرق مختلفة أن رسول الله ﷺ لعن بني أبي العاص وذمهم وشاع ذلك بين المسلمين وقد أقر بذلك بنو أمية وحتى مروان.

فعن صالح بن حسان في خبرٍ بعدما عزل معاوية مروان عن المدينة قال: لبس مروان حلته وركب فرسه وتقلد سيفه ودخل على معاوية، فقال له حين رآه تبيَّن الغضب في وجهه:

مرحباً بأبي عبد الملك، لقد زرتنا عند اشتياق منا إليك، قال: لا والله ما زرتك لذلك، ولا قدمتُ عليك فألفيتك عاقاً قاطعاً، والله ما أنصفتنا ولا جزيتنا جزاءنا. لقد كانت السابقة في بني عبد شمس لآل أبي العاص والصهر برسول الله ﷺ لهم، والخلافة فيهم فوصلوكم يا بني حرب وشرفوكم وولوكم فما عزلوكم ولا آثروا عليكم، حتى إذا وُلّيتم وأفضىٰ

(١) الأغاني ج ١ ص ١٦٦. بولاق ج ١ ص ٦٩.
(٢) الأغاني ج ٤ ص ٢٧٩. بولاق ج ٤ ص ٦٤.

الأمر إليكم، أبيتم إلا أثرة وسوء صنيعة وقبح قطيعة، فرويداً رويداً، قد بلغ بنو الحكم وبنو أبيه نيفاً وعشرين وإنما هي أيامٌ قلائل حتى يكملوا أربعين ويعلم أمرؤٌ أين يكون منهم حينئذ، ثم هم للجزاء بالحُسنىٰ وبالسوء بالمرصاد.

وقال له: والله إني لأبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة وقد كاد ولدي أن يكملوا العدة (يعني الأربعين)؛ ولو قد بلغوها لعلمت أين تقع مني، فانخزل معاوية[1].

فهذا مروان يقرُّ بحديث رسول الله ﷺ ويعلم أنه اتخذ مال الله دولاً وعباد الله خولاً ودين الله دغلاً. كما يقول القرآن الكريم: **﴿وجحدوا بها واستيقَنتها أنفُسُهم ظَلماً وعُلواً فأنظر كيف عاقبة المفسدين﴾**[2].

وقال رجلٌ لمعاوية بن مروان: أنت الشريف ابن أمير المؤمنين وأخو أمير المؤمنين وابن عم أمير المؤمنين عثمان وأمك عائشة بنت معاوية.

قال: فأنا إذاً مُردَّد في بني اللخناء ترددا[3].

وهؤلاء بنو مروان الذين جرعوا الأمة أنواع البلايا والمصائب والويلات فلقي الناس منهم ظلماً عظيماً.

وقد أخبر عنهم أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

«وهو أبو الأكبش الأربعة وستلقىٰ الأمة منه ومن ولده يوماً أحمر»[4].

وقد قال فيهم بعض الشعراء:

إذا ما قطعتم ليلكم بمدامكم ... وأفنيتموا أيامكم بمنام
فمن ذا الذي يغشاكم في ملمةٍ ... ومن ذا الذي يغشاكم بسلام
رضيتم من الدنيا بأيسر بلغة ... بلثم غلام أو بشرب مدام

---

(١) الأغاني ج ١٣ ص ٢٦٠. بولاق ج ١٢ ص ٧٣ وشرح نهج البلاغة ج ٦ ص ١٥٢.
(٢) النمل ١٤.
(٣) الأغاني ج ١٧ ص ٣٤٩ الأغاني بولاق ١٧/ ٩١.
(٤) نهج البلاغة خطبة ٧٢.

ولم تعلموا أن اللسان موكل بمدح كرام أو بذم لئام[1]

مع أهل الكوفة:

لما استوثقت الشام لمروان بالطاعة بعث جيشين أحدهما إلى الحجاز وأمر عليه حبيْس بن دُلجة القيني والآخر منهما إلى العراق عليه عبيد الله بن زياد وكان مروان جعل لعبيد الله بن زياد إذ وجهه إلى العراق ما غلب عليه وأمره أن ينهب الكوفة إذا هو ظفر بأهلها ثلاثاً[2].

وكان سليمان بن صرد الصحابي الجليل الذي كان اسمه يسار فلما أسلم سماه رسول الله ﷺ سليمان وكانت له سنن عالية وشرف في قومه ونزل الكوفة حين نزلها المسلمون وشهد مع علي عليه السلام صفين.

كان هذا سليمان والمسيب بن نجبة الفزاري عسكرا بالنخيلة للطلب بدم الحسين عليه السلام، وخرجوا إلى الشام في الطلب بدم الحسين وكانوا أربعة آلاف مقاتل فالتقىٰ بهم عبيد الله بن زياد، فقتل سليمان بن صرد في وقعة عين وردة، رماه يزيد بن الحصين بن نمير بسهم فقتله وحمل رأسه ورأس المسيب بن نجبة إلى مروان بن الحكم. وكان سليمان يوم قتل ابن ثلاث وتسعين سنة[3].

وغني عن البيان أن مروان كان يخفي لأهل الكوفة في قلبه بغضاً وعداءً شديداً، وذلك بسبب ولائم لأهل البيت وكونهم أنصاراً للإمام علي عليه السلام وكونهم من أوائل الثائرين على سيرة عثمان في الأمة، فإن عثمان ولىٰ عليهم بعض فتيان بني أمية ممن لم يرضوه وسخطوا عليه.

هذا مضافاً إلى أن أهل الكوفة كانوا من المطالبين بتسليم مروان لهم في الحصار على عثمان وكان ذلك شرطهم الأساسي في فك الحصار. إلا أن عثمان رفض تسليمه لهم مما أدىٰ إلى قتله.

---

(١) المستطرف ص ٩٠.
(٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٥١٣.
(٣) ذيل المذيل ص ٢٦.

فهذه من الدواعي التي جعلته يأمّر عبيد الله بن زياد بإباحة الكوفة ثلاثة أيامٍ لجنده.

هلاك مروان:

كان سبب هلاك مروان أنه لما حضرت معاوية بن يزيد أبا ليلىٰ الوفاة، أبى أن يستخلف أحداً.

وكان حسان بن مالك بن بحدل يريد أن يجعل الأمر بعد معاوية بن يزيد لأخيه خالد بن يزيد وكان صغيراً وهو خال أبيه يزيد بن معاوية.

فبايع لمروان وهو يريد أن يجعل الأمر بعده لخالد بن يزيد، فلما بايع لمروان وبايعه أهل الشام،

قيل لمروان: تزوج أم خالد وأمه أم خالد، ابنة أبي هشام بن عتبة. حتى تُصغر شأنه فلا يطلب الخلافة.

فتزوجها، فدخل خالد يوماً على مروان وعنده جماعة كثيرة وهو يمشي بن الصفين فقال مروان: إنه والله ما علمت لأحمق، تعال، ثم شتمه بكلمة ينال فيها من أمه وكلامه هذا كان ليقصّر به ويسقطه من أعين أهل الشام.

فرجع خالد إلى أمه، فأخبرها فقالت له أمه: لا يعرفن ذلك منك واسكت فإني أكفيكه.

فدخل عليها مروان فقال لها: هل قال لك خالد فيّ شيئاً.

فقالت: وخالد يقول فيك شيئا؟ أشد لك إعظاماً من أن يقول فيك شيئاً. فصدقها، ثم مكثت أياماً، ثم إن مروان نام عندها. فغطته بالوسادة حتى قتلته. وكان هلاك مروان في شهر رمضان بدمشق في سنة ٦٥هـ[1].

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٤٧٤، الأغاني ج ١٧ ص ٣٤٥ بولاق ١٧/ ٩٠.

عبد الملك بن مروان

٦٥ـ ٨٦هـ

عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص، وقد عرفت نسبه في ترجمة أبيه وجده.

بويع له بالخلافة عقب هلاك أبيه في شهر رمضان سنة ٦٥ وأتته الخلافة وهو قاعد يقرأ في المصحف في حجرة. فأطبقه وقال: «هذا آخر العهد بك»[١] أو «هذا فراق بيني وبينك»[٢].

وكان يقال لعبد الملك بن مروان: أبو الذُّبَّان لشدة بخره يريدون أن الذباب يسقط إذا قارب فاه من شدة رائحته.

وقيل إنه نبذ إلى امرأةٍ له تفاحة قد عضَّها، فأخذت سكيناً، فقال لها: ما تصنعين؟

قالت: أميط عنها الأذىٰ. فطلقها[٣].

وكان يلقب برشح الحجر لشدة بخله.

ويقول فيه الحسن البصري: ما أقول في رجلٍ الحجاج سيئة من سيئاته.

---

(١) تاريخ ابن الوردي ج ١ ص ٢٤٠.

(٢) تاريخ السيوطي ص ٢١٧.

(٣) عيون الأخبار ج ٤ ص ٦١ والمستطرف ج ٢ ص ٢٧١.

يقول فيه السيوطي: لو لم يكن من مساوىء عبد الملك إلا الحجاج وتوليته[1] إياه على المسلمين وعلى الصحابة يهينهم ويذلهم قتلاً وضرباً وشتماً وحبساً. وقد قتل من الصحابة وأكبار التابعين ما لا يحصىٰ، فضلاً عن غيرهم وختم في عنق أنس وغيره من الصحابة ختماً، يريد بذلك ذلهم، فلا رحمه الله ولا عفا عنه[2].

وحكم عبد الملك ما يقارب إحدى وعشرين سنة امتازت أيامه بالجور والتعسف والقتل والتشريد والحروب خصوصاً في الحجاز والعراق.

وكانت له حروب مع عبد الله بن الزبير ومصعب بن الزبير وقد قتل مصعب في العراق وعبد الله في مكة.

وقد عُرف عبد الملك بلهوه ومجونه وشربه للخمر ومجالسته ومنادمته للشعراء والمغنين الذي سوف نذكره لك.

دكتاتورية:

حج عبد الملك في سنة ٧٥هـ بعد مقتل ابن الزبير، فدخل المدينة المنورة فأمره بعض الصحابة بتقوىٰ الله. فقام خطيباً وقال:

أما بعد فلست بالخليفة المستضعف (يعني عثمان) ولا الخليفة المداهن (يعني معاوية) ولا الخليفة المأبون (يعني يزيد)[3].

ألا وإن من كان قبلي من الخلفاء كانوا يأكلون ويطعمون من هذه الأموال ألا وإني لا أداوي أدواء هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتُكم، تكلفوننا أعمال المهاجرين ولا تعملون مثل أعمالهم.

فلن تزدادوا إلا عقوبة حتى يحكم السيف بيننا وبينكم، هذا عمرو بن سعيد قرابتُه قرابته وموضعه موضعه. قال برأسه هكذا فقلنا بأسيافنا هكذا، ألا إنا نحتمل لكم كل شيء إلا وثوباً على أمير أو نصب راية.

---

(١) و (٣) تاريخ السيوطي ص ٢١٨.

(٢) تاريخ السيوطي ص ٢٢٠.

ألا وإن الجامعة التي جعلتها في عنق عمرو بن سعيد عندي والله لا يفعل أحد فعله إلا جعلتها في عنقه.

والله لا يأمرني أحدٌ بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربتُ عنقه. ثم نزل[1].

وبهذا الأسلوب الأموي والدموي خاطب عبد الملك الصحابة والتابعين في مدينة رسول الله ﷺ وبجوار قبره الشريف.

ومن الواضح أنه أخذ هذا الأسلوب من أسلافه الماضين، فالتاريخ لم ينسى حملات بسر بن أبي أرطأة على المدنية وقتله وتشريده وتعذيبه للصحابة والتابعين، وكذلك لم ينس التاريخ واقعة الحرة والجيش الذي أرسله يزيد إلى مدينة رسول الله ﷺ.

فلا يعجب السامع إذا سمع عبد الملك ومن على منبر رسول الله ﷺ يخاطب الصحابة والتابعين بهذا الخطاب ويهدد من يأمره بتقوى الله بالقتل والتعذيب.

ثم انظر إلى وصيته لابنه ـ وهو يقضي اللحظات الأخيرة من حياته المشؤومة ـ كيف يحضه على الاستسباع والاستشراس بحق المسلمين. يقول:

إذا أنا مت إياك أن تجلس وتعصر عينيك كالمرأة الوكعاء، لكن ائتزر وشمر والبس جلد النمر وضعني في حفرتي وخلني وشأني وعليك شأنك وادع الناس إلى بيعتك فمن قال برأسه هكذا فقل له بسيفك هكذا[2].

وبعث إلى محمد وخالد ابني يزيد بن معاوية فقال: هل عندكما ندامة في بيعة الوليد؟

فقالوا: لا نعرف أحداً أحق منه بالخلافة.

فقال: اما إنكما لو قلتما غير هذا لضربت الذي فيه أعينكما، ثم رفع

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٩ ص ٦٤ـ العقد الفريد ج ٤ ص ١٨١.

(٢) تاريخ السيوطي ص ٢٢٠.

كنار فراشه فإذا تحته سيف مسلول، تحت يمينه كل هذا وروحه تتردد في حنجرته. ثم بعد ساعة نفذت روحه[1].

كان يطوي عبد الملك بين حناياه هذه الروح الدموية البشعة فهو لا يرىٰ أية حرمة وأية قيمة لدماء المسلمين مما كان يدفعه لسفكها وإهراقها بدون أيء مبرر.

وقد رأى فيه الحجاج هذه الروح مما جعله يسرف في القتل، فكلما زاد في قتل الأبرياء ازداد عبد الملك عنه رضاً وزاد له إكراماً وإعظاماً.

وقال بكر بن عبد الله المزني: أسلم يهودي اسمه يوسف، وكان قد قرأ الكتب، فمرَّ بدار مروان فقال: ويل لأمة محمد ﷺ من أهل هذه الدار، فقلت له: إلى متى؟

قال: حتى تجيء رايات سود من قبل خراسان.

وكان هذا صديقاً لعبد الملك بن مروان، فضرب يوماً على منكبه، وقال: اتق الله في أمة محمد ﷺ إذا ملكتهم، فقال: دعني ويحك ما شأني وشأن ذلك؟

فقال: اتق الله في أمره. قال: وجهز يزيد بن معاوية جيشاً إلى أهل مكة. فقال عبد الملك: أعوذ بالله أيبعث إلى حرم الله؟ فضرب يوسف منكبه وقال: جيشك إليهم أعظم[2].

وكان عبد الملك ولىٰ الحارث بن خالد المخزومي مكه، فحج بالناس وحجت عائشة بنت طلحة عامئذ وكان يهواها فأرسلت إليه: أخِّر الصلاة حتى أفرغ من الطواف، فأمر المؤذنين فأخروا الصلاة حتى فرغت من طوافها ثم أقيمت الصلاة فصلىٰ بالناس وأنكر أهل الموسم ذلك من فعله وأعظموه.

فعزله وكتب إليه يؤنبه فيما فعل، فقال: ما أهون والله غضبه إذا

---

(١) المستطرف ج ٢ ص ٢٨٢.

(٢) تاريخ السيوطي ص ٢١٦.

رضيتْ، والله لو لم تفرغ من طوافها إلى الليل لأخرت الصلاة إلى الليل[1].

وبعدها ولىٰ الحجاج بن يوسف الحرمين وفعل ما فعل بالصحابة والتابعين.

وكانت سيرة عبد الملك سيرة الجبابرة والطغاة في إدارتهم للبلاد على عكس ما أمر به الإسلام ورسول الله ﷺ.

قال أبو الطفيل: صنع لعبد الملك مجلس توسع فيه، وقد كان بنىٰ له فيه قبة قبل ذلك، فدخله وقال: لقد كان حثمة الأحوازي ـ يعني عمر بن الخطاب ـ يرى أن هذا عليه حرام.

وقيل إنه لما وضع المصحف من حجره قال: هذا آخر العهد بك وكان عبد الملك له أقدام على سفك الدماء[2].

الملك عقيم:

يجد المتصفح للتاريخ أن ثمة حالة كانت تعم أغلب السلاطين والحكام وهي أنهم يمتلكون رغبة جامحة في جعل السلطة والحكومة في بنيهم دون غيرهم من البشر.

وبما أن المعيار في الوصول إلى السلطة لم يكن معياراً سليماً مبتنياً على أسسٍ من الفضيلة مثل الأفضلية والأعلمية وغيرها.

بل كان المعيار هو القوة والغلبة.

وهنا كانت غريزة حب الذات تطغىٰ على جميع المقاييس والمعايير، فمن يهواه الحاكم وتميل إليه نفسه فذلك الذي سوف يفوز بالمقام والسلطة. وإن أدى ذلك إلى نشوب حروب وجرٍّ ويلات ومصائب على الأمة.

وعبد الملك بن مروان ممن غلبته هذه الغريزة، فأراد خلع أخيه عبد

---

(١) الأغاني ج ٣ ص ٣١٧ بولاق ج ٣ ص ١٠٣.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ٩ ص ٦٣.

العزيز بن مروان من ولاية العهد. فنهاه عنه قبيصة بن ذؤيب وقال: لا تفعل هذا فإنك باعث على نفسك صوت نعّار ولعل الموت يأتيه فتستريح منه، فكف عبد الملك عن ذلك، ونفسه تنازعه إلى أن يخلع أخاه.

ودخل عليه روح بن زنباع الجذامي وكان أجل الناس عند عبد الملك.

فقال: يا أمير المؤمنين لو خلعته ما انتطح فيه عنزان.

فقال: ترى ذلك يا أبا زرعة؟

قال أي والله وأنا أول من يجيبك إلى ذلك.

فقال: نصبح أن شاء الله. ثم دخل عليه قبيصة بن ذؤيب وكان الخاتم إليه والسكة إليه تأتيه الأخبار قبل عبد الملك. فدخل عليه وقال: آجرك الله يا أمير المؤمنين في أخيك عبد العزيز.

فقال: كفانا الله أبا زرعة ما كنا نريد[1].

وبعث الحجاج وفد لعبد الملك وهو يزين له بيعة الوليد، وأنشد عمران بن عصام في ذلك:

أمير المؤمنين إليك نهدي ... على النأي التحية والسلاما
أجبني في بنيك يكن جوابي ... لهم عادية ولنا قواما
فلو أن الوليد أطاعُ فيه ... جعلتُ له الخلافة والزِّماما

وقيل لما أراد عبد الملك أن يخلع عبد العزيز ويبايع لابنه الوليد، كتب إلى أخيه: إن رأيت أن تصيّر هذا الأمر لابن أخيك؟

فأبىٰ. فكتب إليه فاجعلها له من بعدك فإنه أعزُّ الخلق على أمير المؤمنين؟ فكتب إليه عبد العزيز: إني أرى في أبي بكر بن عبد العزيز ما ترىٰ في الوليد.

فقال عبد الملك: اللهم إن عبد العزيز قطعني فاقطعه[2].

وكتب عبد الملك إلى هشام بن اسماعيل المخزومي أن يدعو الناس

---

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٢٠٦.

(٢) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٢٠٦.

إلى بيعة الوليد وسليمان فبايعوا غير سعيد بن المسيب. فإنه أبىٰ وقال: لا أبايع وعبد الملك حي. فضربه هشام ضرباً مبرحاً وقيل: ستين سوطاً وطاف به في تُبان شعر وسرَّحه إلى ذباب ثنية بالمدينة كانوا يقتلون عندها ويصلبون، فظن أنهم يريدون قتله، فلما انتهوا به إلى ذلك الموضع ردوه. فقال: لو ظننت أنهم لا يصلبوني ما لبست سراويل مسوح ولكن قلت يصلبوني فيسترني. ثم ردوه إلى السجن.

وبلغ عبد الملك الخبر فقال: قبح الله هشاماً إنما كان ينبغي أن يدعوه إلى البيعة فإن أبىٰ يضرب عنقه أو يكف عنه[1].

وكان هشام بن اسماعيل المخزومي والياً على المدنية لعبد الملك ولما آل الأمر إلى الوليد عزله وجعل عمر بن عبد العزيز والياً على المدينة وأمره أن يُوقف هشام بن اسماعيل المخزومي للناس وكان الوليد سيء الرأي فيه.

قال الواقدي بسنده قال: أخبرتني أم ولد لسعيد بن المسيب أن سعيداً دعا إبنه ومواليه فقال: هذا الرجل يوقف للناس أو قد وقف فلا يتعرض له أحد ولا يؤذيه بكلمة، فإنا سنترك ذلك لله وللرحم.

وقد زوج سعيد بن المسيب ابنته على درهمين لكثير بن أبي وداعة وكانت من أحسن النساء وأكثرهم أدباً وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأعرفهم بحق الزوج.

وكان عبد الملك خطبها لابنه الوليد فأبىٰ سعيد أن يزوجه بها، فاحتال عليه عبد الملك حتى ضربه بالسياط[2].

وقال الواقدي بسنده قال: كان هشام بن اسماعيل يسيء جوارنا ويؤذينا ولقي منه علي بن الحسين عليه السلام أذىً شديداً.

فلما عزل أمر به الوليد أن يوقف للناس. فقال: ما أخاف إلا من علي بن الحسين.

فمرَّ به عليٌّ عليه السلام وقد وقف عند دار مروان وكان علي بن الحسين

---

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٢٠٩ والعقد الفريد ج ٤ ص ١٩٥.

(٢) البداية والنهاية لأبن كثير ج٩ ص١٠٠.

عليه السلام قد تقدم إلى خاصته أن لا يعرض له أحد منهم بكلمة. فلما مرَّ ناداه هشام بن اسماعيل: الله أعلم حيث يجعل رسالته[1].

وفي الأوائل للعسكري أن عبد الملك أول من غدر في الإسلام ثم أخرج بسنده عن ابن الكلبي قال: كان مروان بن الحكم ولىٰ العهد عمرو بن سعيد بن العاص بعد ابنه عبد الملك، فقتله عبد الملك وكان قتله أول غدرٍ في الإسلام. فقال بعضهم:

يا قوم لا تُغلبُوا عن رأيكم فلقد ... جَربتم الغدر من أبناء مرونا
أمسوا وقد قتلوا عمراً وما رشدوا ... يدعون غدراً بعهد الله كيسانا
ويقتلون الرجال البُزلَ ضاحية ... لكي يُولوا أمور الناس وِلدانا
تلاعبوا بكتاب الله فاتخذوا ... هواهم في معاصي الله قرآنا[2]

وكان عمرو بن سعيد الأشدق تحصن بدمشق عند خروج عبد الملك بن مروان منها، واستحوذ على ما فيها من الخزائن وخطب الناس فوعدهم العدل والنصف. ولما علم عبد الملك بما فعله الأشدق كرّ راجعاً إلى دمشق. فحاصره عبد الملك وجرىٰ القتال بينهم ستة عشر يوماً ثم اصطلحا على ترك القتال وعلى أن يكون ولي العهد بعد عبد الملك وكتبا بينهما كتاب أمان.

ثم بعث عبد الملك إلى الأشدق يأمره بالاتيان إلى منزله بدار الامارة الخضراء. فجاءه الأشدق معه بعض مواليه، فلما انتهىٰ عمرو إلى الباب أمر عبد الملك أن يدخل وأن يحبس من معه عند الباب، فدخل حتى انتهى إلى صرحة المكان، فرمىٰ ببصره فإذا بني مروان عن بكرة أبيهم مجتمعون عند عبد الملك. فأحس بالشر. ثم إن عبد الملك قال: يا غلام خذ السيف عنه، فأخذ. ثم قال له عبد الملك: يا أبا أمية إني آليت حيث خلعتني إن ملأت عيني منك وأنا مالك لك أن أجمعك في جامعة، فقالت بنو مروان: ثم تطلقه يا أمير المؤمنين، فقال: ثم أطلقه.

فقال: عمرو برّ قسمك يا أمير المؤمنين. فأخرج عبد الملك من تحت

---

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٢١٧.

(٢) تاريخ السيوطي ص ٢١٨.

فراشه جامعة طرحها إليه ثم قال: يا غلام قم فاجمعه فيها، فقام الغلام فجمعه فيها. فقال عمرو: أذكرك الله يا أمير المؤمنين أن تخرجني فيها على رؤوس الناس؟

فقال عبد الملك: أمكراً يا أبا أمية عند الموت؟ لاها الله إذا ما كنا لنخرجك في جامعة على رؤوس الناس ولما نخرجها منك إلا صعداً، ثم اجتذبه جذبة أصاب فمه السرير فكسر ثنيته. فقال عمرو: أذكرك الله أن يدعوك كسر عظمي إلى ما هو أعظم من ذلك؟

فقال عبد الملك: أما علمت يا عمرو أنه لا يجتمع فحلان في شِرك؟

فلما تحقق عمرو ما يريد من قتله قال له: أغدراً يا ابن الزرقاء؟ وأسمعه كلاماً. ثم إن عبد الملك قال: يا غلام آتني بالحربة. فأتاه بها فهزها وضربه بها فلم تغن شيئاً ثم ثنى فلم تغن شيئاً ثم نادى: يا غلام أئتني بالصمصامة، فأتاه بسيفه ثم أمر بعمرو فصرع ثم جلس على صدره فذبحه وهو يقول:

يا عمرو إلا تدع شتمي ومنقصتي أضربك حتى تقول الهامة اسقوني

قالوا: وانتفض عبد الملك بعدما ذبحه كما تنتفض القصبة برعدة شديدة جداً بحيث أنهم ما رفعوه عن صدره إلا محمولاً، فوضعوه على سريره وهو يقول: ما رأيت مثل هذا قط قبله صاحب دنيا ولا آخره. ودفع الرأس إلى عبد الرحمن بن أم الحكم فخرج إلى الناس فألقاه بين أظهرهم وخرج عبد العزيز بن مروان يلقي للناس البدر من الأموال[1].

وهكذا غدر عبد الملك بابن عمته عمرو بن سعيد الأشدق من أجل ذلك الملك العقيم.

وفي سنة إحدى وسبعين هجرية قتل عبد الملك مصعب بن الزبير في مسكن بعد حرب دارت بينهما وكان مصعب اختلف عليه أهل العراق وخذلوه. فاستقتل ووطن نفسه على ذلك وقال: لي بالحسين بن علي أسوة حين امتنع من الذلة وجعل ينشد:

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ٣٠٧.

وإن الأولى بالطف من آل هاشم تأسوا فسنوا للكرام التأسيا

قال المدائني: وأرسل عبد الملك أخاه إلى مصعب يعطيه الأمان فأبى وقال: إن مثلي لا ينصرف عن هذا الموضع إلا غالباً أو مغلوباً.

فقاتل حتى قتل، ولما وضع رأس مصعب بين يدي عبد الملك قال عبد الملك: لقد كان بيني وبين مصعب صحبة قديمة وكان من أحب الناس إلي ولكن هذا الملك عقيم.

نعم والكلمة الأخيرة «الملك عقيم».

عبد الملك والخمرة:

اعتاد سلاطين بني أمية وبني العباس على شرب الخمرة إلا من شذ منهم.

وكانت بيوتهم معقل للندماء والشعراء حيث تقام مجالس اللهو والغناء والشراب في أغلب الليالي.

ومنهم من كان يتجاهر بشرب الخمرة ومنهم من كان يتستر بشربها إلا مع الندماء.

وعبد الملك من أولئك الذين كانوا يتجاهرون بشربها أمام ندمائهم. فتارة أقرّ بشربها وتارة أمر بشربها وتارة ما نهىٰ عن شربها.

قال يحيىٰ الغساني: كان عبد الملك بن مروان كثيراً ما يجلس إلى أم الدرداء، فقالت له مرة: بلغني يا أمير المؤمنين أنك شربت الطلاء بعد النسك والعبادة؟

قال: أي والله والدماء قد شربتها[1].

فهذا إقرار منه بأنه شرب الخمرة وسفك الدماء المحرمة.

ودخل عليه نصيب فأنشده فأعجبه أنشاده وشعره ووصله ثم دعا

---

(١) تاريخ السيوطي ص ص ٢١٦ والبداية والنهاية لابن كثيرة ج ٩ ص ٦٦، وفي العقد الفريد ج ٦ ص ٢٦٦: ان الذي سأله سعيد بن المسيب.

بالطعام فطعم منه. فقال عبد الملك: يا نصيب هل لك فيما ينادم عليه؟

.قال: يا أمير المؤمنين جلدي أسود وخلقي مشوه ووجهي قبيح وتكفيني مجالستك ومؤاكلتك ولم يوصلني إلى ذلك إلا عقلي وأنا أكره أن يدخل عليه ما ينقصه. فأعجبه كلامه ووصله[1].

ولا عجب من مثل عبد الملك بن مروان الأموي أن يأمر الناس بشرب الخمر فيمتنعون. ولكن العجب كل العجب ممن يسمي هذا الفاسق أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين. ويرى طاعته واجبة على عموم المسلمين.

ودخل الأخطل النصراني على عبد الملك بن مروان. فاستنشده.

فقال: قد يبس حلقي، فَمُرْ من يسقيني؟

فقال: اسقوه ماء.

فقال: شراب الحمار وهو عندنا كثير.

قال: اسقوه لبناً.

قال: عن اللبن فُطمتُ.

قال: فاسقوه عسلاً.

قال: شراب المريض.

قال: فتريد ماذا؟

قال: خمراً يا أمير المؤمنين.

قال: أوعهدتني أسقي الخمرة لا أم لك لولا حُرمتك بنا لفعلت بك وفعلت.

فخرج فلقي فرّاشاً لعبد الملك. فقال: ويلك إن أمير المؤمنين استنشدني وقد صحل صوتي، فأسقني شربة خمر فسقاه، فقال: أعدِله بآخر. فسقاه آخر. فقال: تركتهما يعتركان في بطني، اسقني ثالثاً. فسقاه ثالثاً. فقال: تركتني أمشي على واحدة، أعدل ميلي برابع، فسقاه رابعاً، فدخل على عبد الملك وأنشد:

---

(١) المستطرف ج ٢ ص ٢٣٠.

خف القطينُ فراحوا منك وابتكروا وأزعجتهم نوىً في صرفها غِيَرُ

فقال عبد الملك: خذ بيده يا غلام فأخرجه ثم القي عليه من الخلع ما يغمره وأحسن جائزته وقال إن لكل قوم شاعراً وإن شاعر بني أمية الأخطل[1].

ودخل عليه الأخطل يوماً وقد شرب فكلمه فخلط في كلامه. فقال له: ما هذا؟

فقال الأخطل:

إذا شرب الفتىٰ منها ثلاثاً بغير الماء حاول أن يَطُولا[2].

ودخل عليه الأخطل تارة فقال له عبد الملك: ألا تُسلم فنفرض لك من الفيء ونعطيك عشرة آلف؟

قال: فكيف الخمر؟

قال: وما تصنع بها وإن أولها لمُرّ وإن آخرها لَسُكر.

فقال: أما إذا قلت ذلك فإن بين هاتين لمنزلةٌ ما مُلكَك فيها إلا كعلقة ماء من الفرات بالاصبع.

فضحك عبد الملك[3].

وقيل أنه قال:

إذا ما نَديمي عَلّني ثم عَلّني ثلاث زجاجات لهنّ هَديرُ

خرجتُ أجرُّ الذيل زهواً كأنني عليك أمير المؤمنين أميرُ[4]

فهذه كانت حالة عبد الملك مع الخمرة ومع ندمائه فتارة يتضاحك أمام شاعر نصراني شارب للخمر متجاهر بالفسق وتارة يغمره بالجوائز والعطايا.

---

(١) الأغاني ج ٨ ص ٢٩٤ بولاق ج ٧ ص ١٧٥.

(٢) الأغاني ج ٨ ص ٣١٧ بولاق ج ٧ ص ١٨٦.

(٣) الأغاني ج ٨ ص ٢٩٠ بولاق ج ٧ ص ١٧٤.

(٤) الأغاني ج ٢٠ ص ٣٢٤.

وذكر في العقد الفريد أن عبد الملك بن مروان كان يُسمىٰ حمامة المسجد لاجتهاده في العبادة قبل الخلافة، فلما أفضت إليه الخلافة شرب الطلاء وقال له سعيد بن المسيب: بلغني يا أمير المؤمنين أنك شربت بعدي الطلا فقال: أي والله وقتلت النفس[1].

بيوت الطرب:

عندما يكون رب البيت هذا حاله مع الخمرة والندماء ومجالس اللهو واللعب مع الجواري والإماء. فماذا يكون حال أفراد هذه الأسرة؟

فهذه فاطمة بنت عبد الملك تجالس عمر بن أبي ربيعة وتحادثه بأحاديث الهوىٰ والحب.

روي أن عمر بن أبي ربيعة كان جالساً بمنى في فناء مضربه وغلمانه حوله إذ أقبلت امرأة برزةٌ عليها أثر النعمة. فسلمت. فرد عليها السلام.

فقالت له: أنت عمر بن أبي ربيعة؟

فقال لها: أنا هو، فما حاجتك؟

قالت له: حياك الله وقربك هل لك في محادثة أحسن الناس وجهاً وأتمهم خلقاً، وأكملهم أدباً وأشرفهم حسباً؟

قال: ما أحب إليّ ذلك! قالت: على شرط. قال: قولي.

قالت: تمكنني من عينيك حتى أشدَّهما وأقودك، حتى إذا توسطت الموضع الذي أُريد حلَلتُ الشدَّ ثم أفعل ذلك بك عند إخراجك حتى أنتهي بك إلى مضربك.

قال: شأنك، ففعلت ذلك به يومين (وكانت تأتي به إلى فاطمة فتحدثه وتناجيه ثم تخرجه).

قال عمر: عندما نهضت لأخرج من مضربها أبطأت العجوز (التي

---

(١) العقد الفريد ج ٦ ص ٢٦٦.

كانت تشد عيني) وخلا لي البيت. فأخذت أنظر فإذا أن بتورٍ فيه خلوق، فأدخلتُ يدي فيه ثم خبأتُها في رُدني، وجاءت تلك العجوز فشدت عيني ونهضت بي تقودني حتى إذا صرتُ على باب المضرب أخرجتُ يدي فضربتُ بها على المضرب، ثم صرت إلى مضربي فدعوتُ غلماني فقلت: أيكم يقفني على باب مضرب عليه خلوق كأنه أثر كفٍّ فهو حرٌّ وله خمسمائة درهم. فلم ألبث أن جاء بعضهم فقال: قم. فنهضت معه فإذا أنا بالكفِّ طريةً وإذا المضرب مضرب فاطمة بنت عبد الملك بن مروان.

فأخذت في أهبة الرحيل، فلما نَفِرت نفرتُ معها. فبصُرت في طريقها بقبابٍ ومضرب وهيئة جميلة فسألتْ عن ذلك فقيل لها: هذا عمر بن أبي ربيعة. فساءها أمره وقالت للعجوز التي كانت ترسلها إليه: قولي له نشدتك الله والرحم أن تصحبني ويحك ما شأنك وما الذي تريد؟ انصرف ولا تفضحني وتُشط بدمك.

فسارت العجوز إليه فأدت إليه ما قالت فاطمة، فقال: لستُ بمنصرفٍ أو توجه إليَّ بقميصها الذي يلي جلدها، فأخبرتها ففعلت ووجهت إليه بقميص من ثيابها، فزاده ذلك شغفاً، ولم يزل يتبعهم ولا يخالطهم حتى إذا صاروا على أميال من دمشق انصرف وقال في ذلك:

ضاق الغداة بحاجتي صدري ... ويئستُ بعد تقارب الأمر
وذكرتُ فاطمة التي عُلِّقتها ... عَرضاً فيا لحوادث الدهر[1]

وله أشعار كثيرة في فاطمة بنت عبد الملك يتغزل ويشبب بها ويذكر لقائها[2].

وأما زوجة عبد الملك وهي عاتكة بنت يزيد فكان الغريض يغنيها أبياتاً فأمرت له بخمسة آلاف درهم وثياب عدنية وغير ذلك من الألطاف[3].

فهذا بيت عبد الملك وهذا حال حرمه وناموسه.

---

(١) الأغاني ج ١ ص ١٩٠ـ ١٩٥. بولاق ج ١ ص ٧٦.
(٢) الأغاني ج ٢ ص ٣٥٨ بولاق ج ٢ ص ١٢٨.
(٣) الأغاني ج ٣ ص ٣٢٢ بولاق ج ٣ ص ١٠٥.

وكان عبد الملك ولوعاً بجمع الجواري من أطراف البلاد ومختلف الأصقاع وينفق من بيت المال في ذلك المبالغ الطائلة.

فالخليفة يريد إشباع غريزته الجنسية بمختلف الأجناس.

ذكر محمد بن واسع الهيتي: أن عبد الملك بن مروان بعث كتاباً إلى الحجاج بن يوسف الثقفي يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف: أما بعد فإذا ورد عليك كتابي هذا وقرأته فسيّر لي ثلاث جوار مولدات أبكار يكون إليهن المنتهى في الجمال واكتب لي بصفة كل جارية منهن ومبلغ ثمنها من المال.

فلما ورد الكتاب على الحجاج دعا النخاسين وأمرهم بما أمره عبد الملك. فأعدوا له ثلاثة إحداهن قيمتها ثلاثون ألف درهم والأخرى ستون ألف درهم والثالثة ثمانون ألف درهم[1].

فكان قصر عبد الملك يحوي أمثال هذه الجواري الكثير وبعد التجارب الطويلة والممارسة الكثيفة والتحقيقات الممعنة تمخضت التجارب عن هذه الحكمة: عن خالد بن محمد القرشي قال: قال عبد الملك بن مروان: من أراد أن يتخذ جارية للتلذذ فليتخذها بربرية ومن أراد أن يتخذها للولد فليتخذها فارسية ومن أراد أن يتخذها للخدمة فليتخذها رومية[2].

ومع هذه الكثرة من الجواري فإنه كان يحسد الناس على الجماع.

فعن مجالد قال: كان عبد الملك شديد الشغف بالنساء، فلما أسنَّ ضعف عن الجماع وازداد غرامه بهن. فدخل إليه يوماً أيمن بن خُريم. فقال له: كيف أنت؟ فقال: بخير يا أمير المؤمنين.

قال: كيف قوّتُك؟ قال: كما أحب ولله الحمد. ثم قال: إني لأفترع العذراء ولا يقعدني عنها الكبر ولا يمنعني منها الحَصَر ولا يرويني منها الغُمَر ولا ينقضي مني الوطر. فغاظ عبد الملك قوله وحسده، فمنعه العطاء

---

(١) المستطرف ج ٢ ص ١٦٦.

(٢) تاريخ السيوطي ص ٢٢١.

وحجبه وقصده بما كَرِه حتى أثر ذلك في حاله فاحتالت له زوجته ودخلت على زوجة عبد الملك وشكت لها قلة إتيان أيمن لها. فأخبرت عبد الملك، فأعاد عطائه وبره[1].

وهاج عرق النسا بعبد الملك في ليلةٍ فوجه إلى بديح المغني.

فما كان بأسرع من أن طلع بديح فقال عبد الملك: كيف رقيتك من عرق النسا؟

قال: أرقى الخلق يا أمير المؤمنين.

فمدّ رجله فَتَفلّ عليها بديح ورقاها مراراً، فقال عبد الملك: الله أكبر وجدتُ والله خَفاً، يا غلام أدع فلانة حتى تكتب الرُقية، فأنا لا نأمن هيجها بالليل فلا نَذْعُر بديحاً.

فلما جاءت الجارية. قال بديح: يا أمير المؤمنين، امرأته الطلاق إن كتبتها حتى تعجل حبائي فأمر له بأربعة آلاف درهم. فلما صار المال بين يديه قال: وامرأته الطلاق إن كتبتها أو يصير المال إلى منزلي، فأمر به فحُمل إلى منزله. فلما أحرزه قال: يا أمير المؤمنين امرأته الطلاق إن كنت قرأت على رجلك إلا أبيات نصيب:

إلا إن ليلى العامرية أصبحت على النأي مني ذنب غيري تَنقم

قال: ويلك ما تقول؟

قال: امرأته الطلاق إن كان رقاك إلا بما قال.

قال: فأكتمها عليّ.

قال: وكيف ذاك وقد سارت بها البُردُ إلى أخيك بمصر، فطفق عبد الملك ضاحكاً يفحص برجليه[2].

البيت الخامل:

قد ذكرنا فيما سلف نبذاً عن بني أمية ونسب مروان وما انطوت عليه

---

(١) الأغاني ج ٢٠ ص ٣٠٧.

(٢) الأغاني ج ١٥ ص ١٧٥ بولاق ج ١٤ ص ١٠.

هذه الشجرة من لؤم وخبث. وعبد الملك كان يشعر بهذا النقص والعيب فكان يحاول بشتىٰ الوسائل أن يرفع من شأن بيته ومن خمول ذكره.

فعن مصعب الزبيري عن أشياخه أن عبد الملك بن مروان قال:

يا معشر الشعراء تشبهوننا مرة بالأسد الأبخر ومرة بالجبل الأوعر ومرة بالبحر الأجاج، ألا قلتم كما قال أيمن بن خريم في بني هاشم:

نهاركم مكابدةٌ وصومٌ ... وليلُكُم صلاة واقتراء
وليتم بالقرآن وبالتزكي ... فأسرع فيكمُ ذاك البلاء
بكىٰ نجدٌ غداة غدٍ عليكم ... ومكة والمدينة والجواء
وحق لكل أرض فارقوها ... عليكم لا أبا لكم البكاء
أأجعلكم وأقواماً سواءً ... وبينكم وبينهم الهواء
وهم أرض لأرجلكم وأنتم ... لأرؤسهم وأعينهم سماء[1]

وقال يوماً لعبد الله بن عبد الأعلىٰ الشاعر الشيباني: من أكرم العرب؟ أو من خير الناس؟

قال: من يُحب الناس أن يكونوا منه ولا يُحب أن يكون من أحد، يعني بني هاشم.

فقال: من ألأم الناس؟

قال: من يحب أن يكون من غيره ولا يُحب غيره أن يكونوا منه[2].

أي بني أمية لورود ذمهم في الحديث الشريف.

وكان يُعير عبد الملك بالزرقاء وهي إحدىٰ أمهاته المعروفات بالبغاء.

وقد عيّر الحسين بن علي عليه السلام بها مروان، وكان عمرو بن الوليد بن عقبة يفتخر بأمهاته ويهجو عبد الملك. فمن قوله:

فعدد مثلهن أبا ذبابٍ ... ليعلم ما تقول ذوو العقولِ
فما الزرقاء لي أماً فأخزىٰ ... ولا لي في الأزراق من سبيلِ

---

(١) الأغاني ج ٢٠ ص ٣١٠.
(٢) عيون الأخبار ج ١ ص ٢٢٨.

يعني بأبي الذباب عبد الملك[1].

ودخلت بثينة على عبد الملك بن مروان فقال لها: أنت بثينة جميل؟

قالت: نعم يا أمير المؤمنين. قال: ما الذي رأى فيك جميل حتى لهج بذكرك من بين نساء العالمين؟

قالت: الذي رأى فيك الناس فجعلوك خليفتهم[2].

وكان عبد الملك يتخوف من انتشار أخبار بني أمية بين الناس وشيوعها على نطاق واسع مما يؤدي إلي قيام ثورات على نظام الحكم الأموي فكان يأمر بإحراق كتب المثالب.

وقد دخل بعض الناس على عبد الملك بن مروان فقال له: هل عندك كتاب زياد في المثالب؟ فتلكأ.

فقال له: لا بأس عليك وبحقي إلا جئتني به، فمضى فجاء به.

فقال له: اقرأ عليَّ، فقرأه وجعل عبد الملك يتغيظ ويعجب مما فيه ثم تمثل قول الشاعر:

وأجرأ من رأيت بظهر غيبٍ ... على عيب الرجال أولو العيوبِ

ثم أمر بالكتاب فأحرق[3].

وذكر الواقدي ان عبد الملك قال: «يا أهل المدينة أنا أحق الناس أن يلزم الأمر الأول، وقد سالت علينا أحاديث من قبل هذا المشرق ولا نعرفها ولا نعرف منها إلا قراءة القرآن فالزموا ما في مصحفكم الذي حملكم عليه الإمام المظلوم وعليكم بالفرائض التي جمعكم عليها الإمام المظلوم»[4].

ولو كان باستطاعته إحراق السنة لأحرقها لكن السنة الشريفة كانت في صدور المؤمنين والمجاهدين من أعلام الأمة وأمنائها.

---

(١) الأغاني ج ١ ص ٣٤ بولاق ج ١ ص ١٨.

(٢) ثمرات الأوراق ص ٦٩ في حاشية المستطرف.

(٣) الأغاني ج ٢٠ ص ٧٨.

(٤) البداية والنهاية لابن كثير ج ٩ ص ٦٣.

وروى أن عبد الله بن ظبيان دخل على عبد الملك بن مروان فقال له عبد الملك: ما هذا الذي يقول الناس؟

قال: وما يقولون؟ قال: يقولون انك لا تشبه أباك.

قال: والله لأنا أشبه به من الماء بالماء والغراب بالغراب ولكن أدلك على من لم يشبه أباه، قال: من هو؟

قال: من لم تنضجه الأرحام ولم يولد لتمام ولم يشبه الأخوال والأعمام، قال: ومن هو؟

قال: ابن عمي سويد بن منجوف، وإنما أراد عبد الملك بن مروان وذلك أنه ولد لستة أشهر[1].

قضاء عبد الملك:

عندما يُحدثنا التاريخ عن المرافعات التي كانت ترفع إلى السلاطين والأمراء نجد أن الحدود التي أمر بها الله عز وجل يراد لها التعطيل وذلك لأمرٍ يستحسنه السلطان. فمثلاً:

أخذ عبد الملك بن مروان سارقاً فأمر بقطع يده: فأنشد السارق

يدي يا أمير المؤمنين أعيذها ... بعفوك أن تلقى مكاناً يَشينُها
فلا خير في الدنيا وكانت حبيبةً ... إذا ما شمالي فارقتها يمينُها

فعفا عنه عبد الملك[2].

والعجب ممن ذكر هذا الخبر في حلم عبد الملك.

فهل هذا هو الحلم؟ وهل هذا محل الحلم؟

وكان الشعبي على قضاء عبد الملك فدخل عليه رجل في مجلس القضاء ومعه امرأة وهي من أجمل النساء. فاختصما إليه فأدلت المرأة بحجتها وقرّبت بيّنتها، فقال للزوج: هل عندك من مدفع فأنشأ يقول:

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٢١٧.

(٢) عيون الأخبار ج ١ ص ٩٩، المستطرف ص ١٩٣، وذكرها الماوردي في الاحكام السلطانية.

فُتن الشعبي لما رفع الطرف إليها
فتنته بدلال وبخطّي حاجبيها
قال للجلواز قربها وأحضر شاهديها
فقضى جوراً على الخصم ولم يقض عليها

قال الشعبي: فدخلت على عبد الملك بن مروان فلما نظر إلي تبسَّم وقال:

فتن الشعبي لما رفع الطرف إليها

ثم قال: ما فعلت بقائل هذه الأبيات؟

قلت: أوجعته ضرباً يا أمير المؤمنين بما انتهك من حرمتي في مجلس الحكومة وبما افترى به علي.

فقال له عبد الملك: أحسنت[1].

هلاكه:

عندما نزل به الموت أدرك أن هذه اللذة التي فعل ما فعل من أجلها قد فقدت، وأنه غداً واقفٌ بين يدي العزيز الجبّار الذي سوف يسأله عما فعل.

عندها أيقن بالموت وبالحساب والكتاب وأدرك أن ملكه زائل وجعل ينشد:

لعمري لقد عُمرت في الدهر برهة ودانت لي الدنيا بوقع البواتر
فأضحىٰ الذي قد كان مما يسرني كلمح مضىٰ في المزمنات الغوابر
فيا ليتني لم أُعنَ بالملك ساعة ولم أله في لذاتِ عيش نواضر
وكنت كذى طمرين عاش ببلغةٍ من الدهر حتى زار ضنك المقابر[2]

وقال الشعبي: دخلت على عبد الملك بن مروان في علته التي مات فيها.

---

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٦٠.
(٢) تاريخ السيوطي ص ٢٢٠.

فقلت: كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ فقال: أصحبت كما قال عمرو بن قميئة:

كأني وقد جاوزت تسعين حجةً ... خلعت بها عنّي عنان لجامِ
رمتني بناتُ الدهر من حيث لا أرىٰ ... فكيف بمن يرمىٰ وليس برامِ
فلو أنّها نبلٌ إذاً لاتقيتُها ... ولكنما أرمىٰ بغير سهامِ
وأهلكني تأميل يوم وليلةٍ ... وتأميلُ عام بعدذاك وعام[1]

وذكر السيوطي أن عَبد الملك لما أيقن بالموت قال: والله لوددت أني كنت منذ ولدت إلى يومي هذا حمالاً[2].

وقيل إنه لما احتضر سمع غسالاً يغسل الثياب فقال: ما هذا؟

فقالوا: غسال، فقال: يا ليتني كنت غسالاً أكسب ما أعيش به يوماً بيوم ولم آل الخلافة.

فقال الغسال: الحمد لله الذي جعلهم يتمنون ما نحن فيه ولا نتمنى ما هم فيه.

وقيل انه جعل يندب ويضرب بيده على رأسه ويقول: وددت أني اكتسبت قوتي يوماً بيوم واشتغلت بعبادة ربي عز وجل وطاعته[3].

ولما بلغ سعيد بن المسيب قوله قال: الحمد لله الذي جعلهم عند موتهم يفرون إلينا ولا نفر إليهم.

وقيل لسعيد بن المسيب: ان عبد الملك بن مروان قال: قد صرت لا أفرح بالحسنة أعملها ولا أحزن على السيئة أرتكبها.

فقال سعيد: الآن تكامل موت قلبه.

---

(١) الأغاني ج ١٨ ص ١٤٣ بولاق ج ١٦ ص ١٦٥.
(٢) تاريخ السيوطي ص ٢١٨.
(٣) البداية والنهاية لابن كثير ج ٩ ص ٦٧ـ ٦٨.

الوليد بن عبد الملك

٨٦ـ ٩٦هـ

الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص.

بويع له بالخلافة بعهد من أبيه في شوال سنة ٨٦هـ.

وكان أبواه يترفانه، فشب بلا أدب، وكان لا يحسن العربية وكان طويلاً أسمر به أثر الجدري أفطس الأنف سائله وكان إذا مشىٰ يتبختر وكان دميماً.

وقد روى أن عبد الملك أراد أن يعهد إليه ثم توقف لأنه لا يحسن العربية فجمع للوليد جماعة من أهل النحو عنده فأقاموا سنة وقيل ستة أشهر، فخرج يوم خرج أجهل مما كان.

فقال عبد الملك: قد أجهد وأعذر[١].

فهذا كان مبلغ علمه وفهمه.

قالوا: كان الوليد لحاناً كما جاء من غير وجه، وقد خطب يوماً فقرأ في خطبته: «يا ليتها كانت القاضية» فضم التاء من ليتها.

فقال عمر بن عبد العزيز: يا ليتها كانت عليك وأراحنا الله منك[٢].

قال أبو الزناد: كان الوليد لحاناً، قال على منبر المسجد النبوي: يا أهلُ المدينة بضم أهل[٣].

---

(١) و (٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ٩ ص ١٦١ـ ١٦٤.

(٣) تاريخ السيوطي ص ٢٢٣.

وشكا أعرابي صهره للوليد فقال الوليد: ما شأنك؟ بفتح النون.

فقال الأعرابي: أعوذ بالله من الشين.

فقال سليمان بن عبد الملك: أمير المؤمنين يقول ما شأنك؟ بالضم.

فقال الأعرابي: ختني ظلمني، فقال الوليد: من ختنَك؟ بالفتح فقال الأعرابي: إنما ختنني الحجام ولست أريد ذا.

فقال سليمان: أمير المؤمنين يقول من ختنُك بالضم.

فقال: هذا وأشار إلى صهره[1].

وكان عبد الملك فصيحاً وعرف اللحن في ابنه فقال: إنك لا تصلح للولاية على العرب وأنت تلحن ووكل به من يعلمه فخرج أجهل مما دخل[2].

وقال عبد الملك يوماً لرجل من قريش: إنك لرجل لولا أنك تلحن.

فقال: وهذا ابنك الوليد يلحن، فقال عبد الملك: لكن ابني سليمان لا يلحن.

فقال الرجل: وأخي أبو فلان لا يلحن[3].

الجبّار العنيد:

قال الواقدي: كان الوليد جباراً ذا سطوة شديدة لا يتوقف إذا غضب، لجوجاً كثير الأكل والجماع مطلاقاً.

يقال أنه تزوج ثلاثاً وستين امرأة غير الاماء[4].

وقال ابن جرير: عندما رجع الوليد من دفن أبيه صعد على منبر

---

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ١٤٢.
(٢) تاريخ ابن الوردي ج ١ ص ٢٤٣.
(٣) البداية والنهاية لابن كثير ج ٩ ص ١٦٤.
(٤) البداية والنهاية لابن كثير ج ٩ ص ١٦٥.

دمشق. فقال مما قال: أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فإن الشيطان مع الفرد، أيها الناس من أبدىٰ لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه ومن سكت مات بدائه. ثم نزل إلى ما كان من دواب الخلافة فحازه وكان جباراً عنيداً[1].

وقال: خطب الوليد على منبر رسول الله ﷺ يوم الجمعة عام حج وقد صف له جنده صفين من المنبر إلى جدار مؤخر المسجد وفي أيديهم الجرزة وعُمد الحديد على العواتق.

فصعد المنبر ثم جلس فأذن المؤذنون ثم سكتوا، فخطب الخطبة الأولىٰ وهو جالس ثم قام فخطب الخطبة الثانية[2].

وما هذا السلوك إلا سلوك المتجبرين وقد قال تعالى: **﴿واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد﴾**[3].

وقد قال رسول الله ﷺ: «يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صورة الذرّ يطأهم الناس لهوانهم على الناس»[4].

وقد قال علي عليه السلام: «إياك والتجبر على عباد الله، فإن كل متجبر يقصمه الله»[5].

لكن الوليد ورث هذه الصفة عن آبائه وأجداده الذين تجبروا في الأرض فقصمهم الله عز وجل وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وخطب الوليد يوماً وقال في خطبته: أني والله ما أنا بالخليفة المستضعف، يعني عثمان ولا بالخليفة المداهن، يعني معاوية ولا بالخليفة المأبون، يعني يزيد.

قال أبو اسحق النظام: أما والله لولا نسبك هذا المستضعف وسببك

---

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٢١٤.
(٢) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٢٤٤.
(٣) ابراهيم ١٥.
(٤) تنبيه الخواطر ص ١٦٤.
(٥) غرر الحكم.

من هذا المداهن لكنت منها أبعد من العيوق، والله ما أخذتها بوراثة ولا سابقة ولا قرابة ولا بدعوىٰ شورى ولا بوصية[1]. «أي الخلافة كانت أبعد شيءٍ منك».

ومما زاد في تجبّر الوليد أنه أقرّ على العراق الحجاج بن يوسف وولىٰ المدينة عثمان بن حيان وولىٰ مصر قرة بن شريك وكان هو على الشام.

فقال عمر بن عبد العزيز في ذلك: امتلأت الأرض والله جوراً[2].

وسمع عمر بن عبد العزيز خصياً للوليد بن عبد الملك واقفاً على قبر الوليد وهو يقول: يا مولاي ماذا لقينا بعدك؟

فقال له عمر: أما والله لو أذن له في الكلام لأخبر أنه لقي بعدكم أكثر مما لقيتم بعده[3].

وكان الوليد ولىٰ المدينة المنورة لعثمان بن حيان بعدما عزل عنها عمر بن عبد العزيز.

فأخذ عثمان بن حيان رياح بن عبيد الله ومنقذ العراقي فحبسهم وعاقبهم ثم بعث بهم في جوامع إلى الحجاج بن يوسف ولم يترك بالمدينة أحداً من أهل العراق تاجراً ولا غير تاجر وأمر بهم أن يخرجوا من كل بلد.

قال الراوي: فرأيتهم في الجوامع (الأغلال).

وخطب عثمان بن حيان في المدينة وقال: «أنا وجدناكم أهل غش لأمير المؤمنين من قديم الدهر وحديثه وقد ضوىٰ إليكم من يزيدكم خبالاً أهل العراق هم أهل الشقاق والنفاق هم والله عش النفاق وبيضته التي تفلقت عنه، والله ما جربت عراقياً قط إلا وجدت أفضلهم عند نفسه الذي يقول في آل أبي طالب ما يقول وما هم لهم بشيعة وأنهم لأعداء لهم ولغيرهم ولكن لما يريد الله من سفك دمائهم فإني والله لا أُوتى بأحد آوىٰ أحداً منهم أو

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٥٨

(٢) تاريخ السيوطي ص ٢٢٣.

(٣) العقد الفريد ج ٣ ص ١٦.

إكراه منزلاً ولا أنزله إلا هدمت منزله وأنزلت به ما هو أهله» وكان ينادي المنادى: «برئت الذمة ممن آوىٰ عراقياً»[1].

فهذا عثمان بن حيان كان بالمدينة وخالد بن عبد الله القسرى كان بمكة وهو من أكفر الخلق وأخبثهم وله ترجمة سوف أذكرها. والوليد كان في الشام.

ذكر ابن عساكر أنه دخل زياد بن حارثة التميمي يوم الجمعة إلى مسجد دمشق وقد أخرت الصلاة. فقال: والله ما بعث الله نبياً بعد محمد ﷺ أمركم بهذه الصلاة في هذا الوقت.

قال: فأخذ فأدخل الخضراء فقطع رأسه وذلك في زمن الوليد بن عبد الملك[2].

فهل بعد هذا التجبر والتكبر ظلمُ وعدوان فحق لعمر بن عبد العزيز أن يقول: ملئت الأرض والله جوراً.

وقال الوليد يوماً لبعض ولاته في وفدة وفدها عليه: هل لك في الشراب؟

فقال: يا أمير المؤمنين لا خلاف لما أمرت ولكن أنا أمنع أهل عملي منه وأكره أن أمنعهم عن شيء ولا أمتنع منه وقد قال تعالى: ﴿**أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم**﴾[3][4].

والولد على سرِّ أبيه وهذا الفرع من ذلك الأصل ﴿**كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار**﴾[5].

ولما دخل الوليد بن عبد الملك المدينة المنورة غدا إلى المسجد ينظر إلى بنائه فأُخرج الناس منه فما ترك فيه أحد وبقي سعيد بن المسيب ما يجترىء أحدٌ من الحرس أن يخرجه وما عليه إلا ريطتان ما تساويان إلا خمسة دراهم في مصلاه، فقيل له: لو قمت، قال: والله لاأقوم حتى يأتي الوقت الذي كنت أقوم فيه، فقيل له: لو سلمت على أمير المؤمنين؟

---

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٢٥٨.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ٩ ص ١٦٦.

(٣) المستطرف ج ٢ ص ٢٣٠.

(٤) البقرة ٤٤

(٥) ابراهيم ٢٦

قال: والله لا أقوم إليه.

قال: عمر بن عبد العزيز فجعلت أعدل بالوليد من ناحية المسجد أن لا يرى سعيداً حتى يقوم. فحانت من الوليد نظرة إلى القبلة. فقال: من ذلك الجالس؟ أهو الشيخ سعيد بن المسيب؟

فجعل عمر: يقول نعم يا أمير المؤمنين ومن حاله ومن حاله ولو علم بمكانك لقام فسلم عليك وهو ضعيف البصر.

قال الوليد: قد علمت حاله ونحن نأتيه فنسلم عليه فدار في المسجد حتى وقف على القبر الشريف ثم أقبل حتى وقف على سعيد. فقال: كيف أنت أيها الشيخ؟

فوالله ما تحرك سعيد ولا قام. فقال بخير والحمد لله، فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله؟

قال الوليد: خير والحمد لله[1].

فهذا حال الوليد مع العبّاد والزهاد وأهل الصلاح هذا حالهم معه.

وهذه السيرة الخشنة التعسفية مع الأمة دفعت الناس إلى الفرار من البلاد الكبيرة إلى الأرياف وإلى ثغور البلاد والجهاد في سبيل الله تحرزاً من الوقوع في قبضة ولاة الجور.

ففتحت البلاد في تلك الفترة واتسعت رقعة الدولة الإسلامية أكبر اتساع لها بهذا السبب. وإلا فالوليد لم يكن من أهل الجهاد والحرب والدفاع عن الدين. فهو من القاعدين في قصره متنعم بالجواري والمغنين والمطربين وتنهمر عليه غنائم الحرب من جميع الجهات والأطراف.

وبهذه الحروب خَلُصَ من كثير من المعارضين والناقمين على سيرته وسيرة ولاته في البلاد.

وقال المدائني: جلس الوليد بن عبد الملك على المنبر يوم الجمعة حتى اصفرت الشمس، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين إن الوقت لا

---

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٢٤٤.

ينتظرك وإن الرب لا يعذرك. قال: صدقت. ومن قال مثل مقالتك فلا ينبغي له أن يقوم مثل مقامك من ههنا.

من أقرب الحرس إليه يقوم فيضرب عنقه؟[1].

وكما قال الشاعر فيه:

ترجو الوليد وقد أعياك والده وما رجاؤك بعد الوالد الولدا[2]

وذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد أن رسول الله ﷺ كان يكتب إلى أصحابه وأمراء جنده من محمد رسول الله إلى فلان وكذلك كانوا يكتبون، حتى ولي الوليد بن عبد الملك فعظم الكتاب وأمر أن لا يكاتبه الناس بمثل ما يكاتب به بعضهم بعضاً.

فجرت به سُنة الوليد إلى يومنا هذا[3].

وهذا مما يوقفك على عظيم تجبره وطغيانه.

بيت الرذيلة:

ما كان يخلو بيتٌ من بيوت خلفاء وأمراء بني أمية من تلك الرذائل التي حرمها الله وشدد عليها وحرم الاقتراب منها. فمن تلك البيوت بيت الوليد بن عبد الملك.

روي أن زوجته أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان استأذنته في الحج فأذن لها وهو يومئذ خليفة. فقدمت مكه ومعها من الجواري ما لم يُر مثله حُسناً، وكتب الوليد يتوعد الشعراء جميعاً إن ذكرها أحدٌ منهم أو ذكر أحداً ممن معها.

وقدمت فتراءت للناس وتصدىٰ لها أهل الغزل والشعر ووقعت عينها على وضّاح اليمن فهويته[4].

---

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٤٢.

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٠٧.

(٣) العقد الفريد ج ٤ ص ٧.

(٤) الأغاني ج ٦ ص ٢١٨ بولاق ج ٦ ص ٣٧.

وكان وضّاح جميلاً حسن المنظر فعشقته وكانت تُرسل إليه فيدخل إليها ويقيم عندها (في الشام) فإذا خافت وارته في صندوق عندها وأقفلت عليه.

فأُهدي للوليد جوهر له قيمة فأعجبه واستحسنه، فدعا خادماً له فبعث به معه إلى أم البنين وقال: قل لها: أن هذا الجوهر أعجبني فآثرتكِ به. فدخل الخادم عليها مفاجأة ووضاح عندها فأدخلته الصندوق وهو يرىٰ فأدى إليها رسالة الوليد ودفع إليها الجوهر، ثم قال: يا مولاتي، هبيني منه حجراً، فقالت: لا يا ابن اللخناء ولا كرامة.

فرجع إلى الوليد فأخبره بما رأىٰ، فقال: كذبت يا ابن اللخناء. وأمر به فوجئت عنقه، ثم لبس نعليه ودخل على أم البنين وهي جالسة في ذلك البيت تمتشط وصف له الخادم الصندوق الذي أدخلته فيه، فجلس عليه ثم قال لها: يا أم البنين: ما أحب إليك هذا البيت من بين بيوتك، فلم تختارينه؟

فقالت: أجلس فيه وأختاره لأنه يجمع حوائجي كلها. فأتناول منه كما أريد من قرب. فقال لها: هبي لي صندوقاً من هذه الصناديق؟

قالت: كلها لك يا أمير المؤمنين. قال: ما أريدها كلها وإنما أريد واحداً منها. فقالت له: خذ أيها شئت.

قال: هذا الذي جلست عليه، قالت: خذ غيره. فإن لي فيه أشياء أحتاج إليها، قال: ما أريد غيره. قالت: خذه. فدعا بالخدم وأمرهم بحمله، فحمله حتى انتهىٰ به إلى مجلسه فوضعه فيه ثم دعا عبيداً له فأمرهم فحفروا بئراً في المجلس عميقة، فنحيّ البساط وحُفرت إلى الماء. ثم دعا بالصندوق فقال: يا هذا إنه بلغنا شيء إن كان حقاً فقد كفّيناك ودفناك ودفنا ذكرك وقطعنا أثرك إلى آخر الدهر وإن كان باطلاً فأنا دفنا الخشب وما أهون ذلك.

ثم قذف به في البئر وهيل عليه التراب وسُويت الأرض ورد البساط إلى حاله وجلس الوليد عليه. ثم ما رؤي بعد ذلك اليوم لوضّاح أثر في الدنيا إلى هذا اليوم.

قال الراوي: وما رأت أم البنين لذلك أثراً في وجه الوليد حتى فرق الموت بينهما[1].

وهذا مما يشير إلى أنه كان يفقد الغيرة التي يحبها الله تعالى في المؤمن ففي هذه المواطن يحب الله ذلك المؤمن الذي يظهر غيرته وحميته على عرضه وناموسه وشرفه.

وفي الحديث الشريف: «الغناء رقية الزنا» فبعد ما كان يجمع السلطان في داره المغنين والمطربين والشعراء من مختلف البلاد القريبة والبعيدة وتقام في داره الحفلات الغنائية والسهرات الليلية على أعذب أصوات المغنين والجواري، فقد ذكر أبو الفرج: أنه كتب الوليد إلى عامل مكة في أشخاص ابن سريج، فأشخصه إلى دمشق وغناه وأشار الوليد إلى بعض الخدم فغطوه بالخلع ووضعوا بين يديه كيساً من الدنانير وبدراً من الدراهم[2]. وأعطى حكم الوادي بعدما أطربه بغنائه ألف دينار وعقد من الجوهر وما كانت عليه من ثياب وحماره الخاص[3].

فبعد كل هذا الاختلاط مع المغنين والشعراء لا عجب أن عشقت زوجته وضاح اليمن.

ولقد قال رسول الله ﷺ: عفّوا تعف نساؤكم.

حماقة:

منارة الاسكندرية من المباني العجيبة التي بناها ذو القرنين. قيل إنها كانت مبنية بحجارة منهدمة مغموسة في الرصاص فيها نحو من ثلثمائة بيت صغير، تصعد الدابة بحملها إلى كل بيت، وللبيوت طاقات تطل على البحر ويقال إن طولها كان ألف ذراع وفي أعلاها تماثيل من نحاس وكان بأعلاها مرآة من الحديد الصيني عرضها سبعة أذرع. كانوا يرون فيها المراكب

---

(١) الأغاني ج ٦ ص ٢٢٥ بولاق ج ٦ ص ٣٩.
(٢) الأغاني ج ١ ص ٢٩٧ بولاق ج ١ ص ١١٧.
(٣) الأغاني ج ٦ ص ٢٨١ بولاق ج ٦ ص ٦٥.

بجزيرة قبرص. وقيل كانوا يرون فيها من يخرج من البحر من جميع بلاد الروم، فإن كانوا أعداء تركوهم حتى يقربوا من المدينة فإذا مالت الشمس للغروب أداروا المرآة مقابلة الشمس واستقبلوا بها السفن فيقع شعاعها بضوء الشمس على السفن فتحرق في البحر ويهلك كل من فيها وكانت الروم تؤدي الخراج ليأمنوا بذلك من إحراق السفن ولم تزل كذلك إلى زمن الوليد بن عبد الملك.

قال المسعودي: قيل إن ملكاً من الروم تحيل على الوليد وأظهر أنه يريد الإسلام وأرسل إليه تحفاً وهدايا وأظهر له بواسطة حكماء كانوا عنده أن ببلاده دفائن وأرسل بذلك قسيسين من خواصه وأرسل معهم أموالاً، قيل إنهم حفروا بقرب المنارة ودفنوا تلك الأموال.

وقالوا للوليد: أن تحت المنارة كنوزاً لا تنفذ وبأزائها خبيئة بها كذا وكذا ألف دينار، فأمرهم باستخراج ما بالقرب من المنارة فإن كان ذلك حقاً استخرجوا ما تحت المنارة بعد هدمها فحفروا واستخرجوا ما دفنوه بأيديهم فعند ذلك، أمر الوليد بهدم المنارة واستخراج ما تحتها، فهدموها فلم يجدوا تحتها شيئاً وهرب أولئك القسيسون فعلم الوليد أنها مكيدة عليه فندم على ذلك غاية الندم ثم أمر ببنائها بالآجر ولم يقدروا أن يرفعوا إليها تلك الحجارة فلما أتموها نصبوا عليهما المرآة كما كانت، فصدئت ولم يروا فيها شيئاً مثل ما كانوا يرون أولاً وبطل إحراقها فندموا على ما فعلوا وفاتهم من جهلهم وطمعهم نفعٌ عظيم[1].

ومن هذا الخبر تقف على حمقه وجهله وطمعه الذي فوّت المصلحة الكبيرة على الإسلام والمسلمين.

---

(١) المستطرف ج ٢ ص ١٤٢.

سليمان بن عبد الملك

٩٦ـ ٩٩هـ

رقىٰ عرش الخلافة بعد هلاك أخيه الوليد بن عبد الملك بوصية من أبيه عبد الملك.

وامتاز عهده بإصلاح بعض المفاسد التي حدثت أيام الوليد.

فسليمان كان على نقيض أخيه الوليد في أمور عديدة منها: أنه كان ناقماً ولاية الحجاج على العراق وكان كارهاً ومبغضاً له، وقد توعده وهدده في كتبٍ بعثها إليه بعزله والانتقام منه، لكن الله عز وجل لم يمهل الحجاج إلي ولاية سليمان بل أخذه أخذ عزيز مقتدر في آخر ولاية الوليد.

وكان سليمان كذلك ناقماً على عثمان بن حيان الذي ولاه الوليد المدينة المنورة وأغرمه مبالغ طائلة أداها عنه يزيد بن المهلب فأعفاه سليمان.

وعزل سليمان أمراء الأمصار الذين ولاهم الوليد وولىٰ غيرهم، والسبب في ذلك أن الوليد كان يريد أن يولي ابنه ولاية العهد. فغضب سليمان من ذلك وتوعد الشعراء والولاة الذين زينوا للوليد خلعه. فحدث التغيير بهذا السبب.

فولىٰ يزيد بن المهلب العراق بعدما عزل قتيبة بن مسلم عن خراسان وموسى بن نصير عن المغرب وما طالت أيامه طويلاً بل هلك في سنته الثالثة.

مجالس اللهو:

قال الجاحظ: قعد سليمان بن عبد الملك يوماً للمظالم وعرضت عليه القصص فمرت قصة فيها مكتوب «ان رأي أمير المؤمنين أعزه الله أن يخرج إلي جاريته فلانة حتى تغنيني ثلاث أصوات فعل إن شاء الله تعالىٰ.

فاغتاظ سليمان لذلك وأمر من يأتيه برأسه ثم أردفه رسولاً آخراً أن يدخل به إليه، فلما دخل قال: ما حملك على ما صنعت؟

قال: الثقة بحلمك والاتكال على عفوك. فأمره بالقعود حتى لم يبق أحد من بني أمية إلا خرج، ثم أمر بالجارية فأخرجت ومعها عود، فقال لها: غني ما يقول لك؟ فقال الفتىٰ: غني

تألق البرق نجدياً فقلت له يا أيها البرق إني عنك مشغول

فغنته فقال لسليمان: أتأمر لي برطل فأتى به فشربه ثم قال لها: غني

حبذا رجعها إلينا يداها في يدي درعها تحل الأزارا

فغنته فقال لسليمان: أتأمر لي برطل، فأتى به فشربه ثم قال: غني

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل وإن كنت أزمعت صرمي فاجملي

فغنته فقال لسليمان: أتأمر لي برطل، فما استتم شربه حتى صعد على الفور على قبة لسليمان فرمىٰ بنفسه على دماغه فمات. فقال سليمان: إنا لله وإنا إليه راجعون أتراه الأحمق ظن أني أخرج إليه جاريتي وأردها إلى ملكي، يا غلمان خذوا بيد هذه الجارية وانطلقوا بها إلى أهله إن كان له أهل وإلا فبيعوها وتصدقوا بثمنها عليه، فلما انطلقوا بها نظرت إلى حفيرة في دار سليمان اتخذت للمطر فجذبت نفسها من أيديهم ثم قالت:

من مات عشقاً فليمت هكذا لا خير في عشق بلا موت

فرمت بنفسها في الحفيرة فماتت[1].

ما كان يخلو بيت خليفة وسلطان من هذه المجالس التي ليس فيها

---

(١) ثمرات الأوراق في حاشية المستطرف ص ٩٢.

ذكرٌ لله عز وجل ولا خير للأمة والأمير فيها بل كانت مرتعاً للشيطان وحزبه مع ندماء السوء وأحاديث الباطل والسفاهة.

ذكروا أن رجلاً دخل على سليمان بن عبد الملك وكان على رأسه وصيفةٌ روقةٌ فنظر إليها الرجل.

فقال سليمان: أأعجبتك؟ قال: بارك الله لأمير المؤمنين فيها.

فقال سليمان: هات سبعة أمثالٍ في الأُست وخُذها.

فقال الرجل: «صَرّ عليه الغزو استه» قال: واحد، قال: «أستُ البائن أعلم» قال: اثنان، قال: «است لم تعود المجمر تحترق» قال: ثلاثة قال: «الحُر يعطي والعبد ييجع بأسته» قال: أربعة، قال: «استي اخبثي» قال: خمسة قال: «عاد سلاها في استها» قال: ستة قال: «لا ماءك أبقيت ولا حرك أنقيت» قال: ليس هذا من ذلك.

قال: أخذتُ الجار بالجار كما يفعل أمير المؤمنين، قال: خذها. وكان سليمان يأخذ الوليَّ والجارَ بالجارِ[1].

فهذا مبلغ علم الخليفة أن يسأل عن الأمثال في الاست وكأنهُ قد أغلق باب العلم إلا في هذا الموضوع ولا أدري هل كان شوق سليمان إلى الاسم أو المسمى في الأمثال؟!

وكانت له مجالس مع المغنين والمخنثين في العلن والخفاء.

وقيل كان أحد المغنين وهو الدلال ظريفاً جميلاً حسن البيان وكان سليمان قد رق له حين خُصي، فوجه إليه مولىً له وقال له: جئني به سراً، فنفذ المولىٰ إليه وأعلمه ما أمره به وأمره بالكتمان وحذره أن يقف على مقصده أحد، فوصل الشام فدعا به سليمان ليلاً وقال له: غنِ وأمر له بدفٍ فغنىٰ، فقال له سليمان: أحسنت وأجملت وأمر له بصلة سنية، فأقام عنده شهراً يشرب على غنائه[2].

---

(١) عيون الأخبار ج ٣ ص ١٣٠.

(٢) الأغاني ج ٤ ص ٢٨٥ بولاق ج ٤ ص ٦٦.

وكان ينفق آلاف الدنانير والدراهم على هؤلاء المغنين والمخنثين والشعراء كل ذلك من بيت مال المسلمين وكأن الله عز وجل أعده لهذه الأمور.

فقد ذكر أبو الفرج الاصفهاني أن سليمان أعطى مائة ألف دينار لسعيد بن خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد لأنه وهب لموسىٰ شهوات جارية قيمتها عشرة آلاف درهم بعدما أنشد فيه موسىٰ شهوات أبيات[1].

ومن مجالس سليمان التي تنبأك عن مجونه وخلاعته أنه قال يوماً لعدي بن الرقاع: أنشدني قولك في الخمر:

كميت إذا شجت وفي الكأس وردة لها في عظام الشاربين دبيب
تريك القذىٰ من دونها وهي دونه لوجد أخيها في الاناء قطوب

فأنشده. فقال سليمان: شربتها ورب الكعبة.

قال عدي: والله يا أمير المؤمنين لئن رابك وصفي لها قد رابني معرفتك بها، فتضاحكا وأخذ في الحديث[2].

يا لها من فضيحة كبيرة سوّد بها صفحته ولعمري إن كان تضاحك وغطاها أمام السامعين إلا أنها لا تنطلي على الكرام الكاتبين ولا تخفىٰ على من لا يخفىٰ عليه شيءٌ في السماوات والأرض.

مع المخنثين:

من الأوامر التعسفية التي أمر بها سليمان هو أمره بإخصاء المغنين والمخنثين.

ونحن لم نجد عقوبة في الشرع الإسلامي من هذا النمط.

نعم نحن نعلم أن الغناء حرام والحضور في مجالس اللهو والغناء محرم، لكن لم نجد أن عقوبة الغناء أو الحضور في تلك المجالس هي الإخصاء.

---

(١) الأغاني ج ٣ ص ٣٥٤ بولاق ج ٣ ص ١١٩.
(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٢٠.

خاصة وان الإخصاء يعد مثلة وهي محرمة بتاتاً في الشريعة الإسلامية، إذ لا تجيز الشريعة الإسلامية إخصاء الإنسان بأي حال من الأحوال، لا بل حتى الحيوان، إذ ورد في الحديث الشريف أن رجلاً خصىٰ حصانه في إحدى الغزوات مما دفع النبي ﷺ إلى تعنيفه وتأنيبه. وقد قال رسول الله ﷺ: إياكم والمثلة ولو بالكلب. (راجع ذلكم رسول الله ـ حقوق الحيوان).

فأي شرع كان يجيز له أن يقدم على إتلاف عضوٍ من أعضاء إنسان آخر وحرمانه من اللذة المشروعة ومن الإنجاب هذا في الوقت الذي كان الخليفة هو نفسه يحضر مجالس الغناء واللهو الخاصة به والتي تقام في قصره من دون أي تحرج في ذلك ونحن نسأل كما يتساءل القرآن الكريم: **﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كَبُرَ مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾**[1].

وقد قيل إن السبب الذي دعا سليمان لإخصاء المخنثين والمغنين هو أن جاريته كانت تصب الماء على يديه وهي تسمع الغناء فكان يومىء إليها بأن تصب الماء وهي لاهية بالسماع فأمر بالمغني أن يخصىٰ وكتب في إخصاء جميع المخنثين.

وقيل إن الذي هاج سليمان على ما صنعه بالمخنثين أنه كان مستلقياً على فراشه في الليل وجارية إلى جنبه وعليها غلالةٌ ورداء معصفران وعليها وشاحان من ذهب وفي عنقها فصلان من لؤلؤ وزبرجد وياقوت وكان سليمان بها مشغوفاً وفي عسكره رجل يقال له سمير الأيليّ يغني، فلم يفكر سليمان في غنائه شغلاً بها وإقبالاً عليها وهي لاهية عنه لا تجيبه مصغية إلى الرجل حتى طال ذلك عليه فحول وجهه عنها مغضباً وسمع الغناء فلم يشك أنها تهوى سميراً فوجه إليه من وقته من أحضره وحبسه ودعا لها بسيف ونطع وأراد أن يقتلها، فجعلت تعتذر إليه فرق لها، ولم تطب نفسه بتخلية سمير سوياً فخصاه وكتب في المخنثين بمثل ذلك[2].

---

(١) الصف ٢، ٣.

(٢) الأغاني ج ٤ ص ٢٧٤ بولاق ج ٤ ص ٦١ـ ٦٢.

وقيل إنه كتب بإحصاء المخنثين في المدينة ليعرفهم فيوفد إليهم من يختار منهم فظن الوالي أنه يريد الإخصاء فخصاهم.[1].

وذكر ابن جرير أن سليمان كان في متنزه له ومعه حُرمه، فسمع في بستان آخر صوت رجل يغني فدعا صاحب شرطته، فقال: عليّ بصاحب الصوت، فأتى به فلما مَثل بين يديه قال له: ما حملك على الغناء وأنت إلى جنبي ومعي حرمي؟ أما علمت أن الرماك إذا سمعت صوت الفحل حنت إليه؟ يا غلام جُبَّه، فَجُبَّ الرجل فلما كان في العام المقبل رجع سليمان إلى ذلك المتنزه، فجلس مجلسه الذي فيه، فذكر الرجل وما صنع به، فقال لصاحب شرطته عليّ بالرجل الذي كنا جببناه، فأحضره فلما مثل بين يديه، قال له: إما بعتَ فوفيناك وإما وهبت فكافأناك قال: فوالله ما دعاه بالخلافة ولكنه قال له: يا سليمان الله الله إنك قطعت نسلي فذهبتَ بماء وجهي وحرمتني لذتي ثم تقول إما وهبت فكافأناك وإما بعت فوفيناك لا والله حتى أقف بين يدي الله[2].

ويبدو أن الرجل كان مصاباً بشهوة جامحة في إخصاء الآخرين وتعذيبهم بذلك والتلذذ من هذا المنظر، كأنه يحكي عن غريزة كامنة في أعماقه تقوم على حسد الناس على قواهم الجنسية ومحاولة حرمانهم منها.

فقد سمع سليمان مغنياً في عسكره فقال اطلبوه؟ فجاؤا به فقال: أعد علي ما غنيت به؟

فغنىٰ فقال سليمان لأصحابه: كأنها جرجرة الفحل في الشوك وما أظن أنثىٰ تسمع هذا إلا صبت إليه ثم أمر به فخصي[3].

القسوة:

نعم كان سليمان بن عبد الملك تعسفياً عنيفاً شديد السطوة لا تأخذه

---

(١) المصدر السابق.

(٢) تاريخ الطبري ج ٦ ص ٤٢٩٣

(٣) المستطرف ج ٢ ص ١٥٠ والعقد الفريد ج ٦ ص ٢٠ـ ٤٠.

رأفة ولا رحمة ولا شفقة على أحد، بخلاف ما كان يأمر به رسول الله ﷺ أمته من الرحمة والشفقة واللين والعطف على الآخرين، وهو رسول الرحمة والإنسانية إلى البشرية جمعاء.

فمن أخباره التي تبين لك مدىٰ عنفه وقساوة قلبه ما ذكره ابن قتيبة: ان سليمان بن عبد الملك مرّ بالمجذومين في طريق مكة فأمر بإحراقهم وقال: لو كان الله يريد بهؤلاء خيراً ما ابتلاهم هذا البلاء[1].

أي منطق هذا الذي يأمر بإحراق المجذومين؟ بعدما كان الاسلام يشدد ويحث على إعانة المحتاجين وعيادة المريض وإكرامه ومساعدته؟ نعم هذا منطق من لم يسمع بالاسلام ولا بالإنسانية أبداً. إنه منطق الغاب، منطقٌ يأكل القوي فيه الضعيف.

وكم بين منطق هذا الطاغية ومنطق الإسلام العظيم الذي يقول على لسان نبيه الأكرم ﷺ: «لا تطيلوا النظر إلى أهل البلاء (المرضى والمجذومين) لأن ذلك يؤذيهم»!!

(راجع ذلكم رسول الله ـ وصايا أخلاقية).

وأتى سليمان بحروري فقال له سليمان: هيه، فقال الحروري: وماذا أقول؟ يا فاسق بن الفاسق. فقال سليمان: عليّ بعمر بن عبد العزيز. فلما جاء. قال: اسمع مقالة هذا، فأعادها الحروري، فقال سليمان لعمر: ماذا ترىٰ عليه؟ فسكت، قال: عزمت عليك لتخبرني بماذا ترىٰ عليه؟ قال: أرى عليه أن تشتمه كما شتمك، قال: ليس الأمر كذلك، فأمر به سليمان فضربت عنقه[2].

وهذا نموذج آخر تعرف به مدىٰ وحشية الرجل وتعطشه للدماء. فبعدما اطلع على الحكم الشرعي أصرّ على قتل الرجل وكما يقول القرآن الكريم: ﴿**وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم**﴾[3].

---

(١) عيون الأخبار ج ٤ ص ٦٩.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٤٠.

(٣) البقرة ٢٠٦.

وعن رؤبة بن العجاج قال: حج سليمان بن عبد الملك وحج الشعراء معهم وحججت معهم. فلما كان بالمدينة راجعاً تلقوه بنحو من أربعمائة أسير من الروم. فقعد سليمان وأمر بضرب أعناقهم[1].

لربما كان الأسرىٰ يستحقون القتل. أنا لا أعلم ما هي ظروف وملابسات أسرهم. ولكن أتساءل أما تذكّر سليمان بن عبد الملك عندما أمر بضرب أعناقهم أنه من أبناء الطلقاء الذين خاطبهم رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» وكان فيهم جده الحكم بن أبي العاص. أم نسي هذه الواقعة؟

مأكل الخليفة:

لعلك سمعت الحديث القائل: «ما شبع النبي ﷺ من خبز برّ ثلاثة أيام متواليه منذ بعثه الله تعالىٰ إلى أن قبضه الله»[2].

ولعلك قرأت كتاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إلى عامله على البصرة يقول فيه: «ألا وأن إمامكم قد اكتفىٰ من دنياه بطمريه ومن طعمه بقرصيه».

وفي الحديث الشريف عن الرضا عليه السلام قال رسول الله ﷺ: «أتاني ملك فقال يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول إن شئت جعلت لك بطحاء مكة ذهباً قال فرفع رأسه إلى السماء وقال: يا رب اشبع يوماً فأحمدك وأجوع يوماً فأسئلك»[3].

فهذا رسول الله ﷺ وهذه سيرته الشريفة ولكن تعال إلى هذا الرجل لترىٰ العُجاب وما عشت أراك الدهر عجباً.

قيل: كان سليمان مغرىً بالنساء والأكل، قيل: أكل مرة سبعين رمانة وجدياً وست دجاجات وكثيراً من الزبيب ثم نام وانتبه فأتوه بالغداء فأكل على عادته[4].

---

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٣٠٥.
(٢) و (٣) سفينة البحار ص ١٩٢ ج ١.
(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٢٦.

وذكر الخطّابي عن الديراني أنه قال: إني لأعرف الطعام الذي يأكله سليمان. قال: لما استخلف سليمان قال لي: لا تقطع عني ألطافك التي كنت تلطفني بها قبل أن أُستخلف، فأتيته بزنبيلين أحدهما بيضٌ والآخر تينٌ. فقال: لقمنيه، فجعلت أقشر البيضة وأقرنها بالتينة حتى أكل الزنبيلين[1].

وقال الأصمعي: كان سليمان بن عبد الملك شرهاً نهماً وكان من شرهه أنه إذا أتى بالسفود وعليه الدجاج السمين المشوي لا يصبر إلى أن يبرد ولا أن يؤتىٰ بمنديل، فيأخذ بكمه فيأكل واحدة واحدة حتى يأتي عليها.

فقال الرشيد: ويحك يا أصمعي ما أعلمك بأخبار الناس إني عُرضت عليّ جباب سليمان فرأيت فيها آثار دهن فظننته طيباً حتى حدثتني ثم أمر لي بجبةٍ منها فكنت إذا لبستها أقول: هذه جُبة سليمان بن عبد الملك[2].

وقال الشمردل وكيل آل عمرو بن العاص: قدم سليمان بن عبد الملك الطائف فدخل هو وعمر بن عبد العزيز وابنه أيوب بستاناً لعمرو، قال: فجال في البستان ساعة ثم قال: ناهيك بمالكم هذا مالاً لولا جِرارٌ فيه. فقلت: يا أمير المؤمنين، إنها ليست بجرار ولكنها جُرُبُ الزبيب فجاء حتى ألقىٰ صدره على غُصن، ثم قال: ويلك يا شمردل: أما عندك شيء تطعمني؟

قلت: بلىٰ والله إن عندي لجدياً تغدو عليه بقرة وتروح أخرىٰ، قال: عجل به، فأتيته به كأنه عُكّة وتشمر فأكل ولم يدعُ ابنه ولا عمر حتى أبقىٰ فَخِذاً، فقال يا أبا حفص هلم، قال: أني صائم، ثم قال: ويلك يا شمردل: أما عندك شيء؟

فقلت: بلى والله دجاجات ستٌ كأنهن رئلان النعام فأتيته بهن، فكان يأخذ رِجل الدجاجة حتى يُعري عظمها ثم يلقيها بفيه حتى أتى عليهن ثم قال: ويلك أما عندك شيء؟

فقلت: بلىٰ والله إن عندي لحريرة كقُراضَة الذهب، فقال: اعجل بها،

---

(١) عيون الأخبار ج ٣ ص ٢٢٨.

(٢) المستطرف ج ١ ص ١٨٠.

فأتيته بعُسٍّ يغيب فيه الرأس، فجعل يَتَلقَّمُها بيده ويشرب، فلما فرغ تجشأ كأنه صاح في جُبٍّ، ثم قال: يا غلام أفرغت من غدائنا؟ قال: نعم، قال: وما هو؟

قال نِيِّف وثمانون قدراً، قال: فأتني بها قدراً قدراً، فأتاه بها وبقناع عليه رُقاق، فأكثر ما أكل من قدرٍ ثلاث لُقم وأقلُ ما أكل لقمةٌ ثم مسح يده واستلقىٰ على فراشه وأذن للناس ووضعت الخوّانات فجعل يأكل مع الناس[1].

والواقع فإنك حينما تقرأ مثل هذه القصة تذهب بك المخيلة إلى أنك تقرأ سيرة فيل من فيلة الهند أو حوت من حيتان المحيط وليس سيرة رجل تسنم عرش خلافة المسلمين!

كيف يمكن أن يكون هذا الإنسان الذي همته في إملاء بطنه بأنواع الطعام، وإني لأظن أن له بطناً كجهنم إذا قيل لها هل امتلأت فتقول هل من مزيد، ولو كان هذا الرجل اليوم في إحدى الدول الافريقية لأحدث فيها أزمة اقتصادية.

وقد قال علي بن أبي طالب عليه السلام: «من كانت همته بطنه فقيمته ما يخرج من بطنه»!

وقيل إن أعرابياً حضر سفرة سليمان بن عبد الملك فلما أتي بالفالوذج جعل يسرع فيه، فقال سليمان: أتدري ما تأكل؟

فقال: بلى يا أمير المؤمنين إني لأجد ريقاً هنيئاً ومزدرداً ليناً وأظنه الصراط المستقيم الذي ذكره الله في كتابه، فضحك سليمان وقال: أزيدك منه يا أعرابي فإنهم يذكرونه أنه يزيد في الدماغ، قال: كذبوك يا أمير المؤمنين لو كان كذلك لكان رأسك مثل رأس البغل[2].

ضحية التخمة:

عن سحيم بن حفص قال: نظرتْ إلى سليمان جارية له يوماً فقال: ما تنظرين. فقالت:

---

(١) العقد الفريد ج ٤ ص ٢٠٢ وعيون الأخبار ج ٣ ص ٢٢٧.

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ١٩١.

أنت خير المتاع لو كنت تبقىٰ غير أن لا بقاء للإنسان
ليس فيما علمته فيه عيبٌ كان في الناس غير أنك فانِ
فنفض عمامته[1].

فكأن الموت لم يكتب عليه ولم يعلم أن الموت لا يفرق بين ملك وسوقة.

قال المفضل بن المهلب دخلت على سليمان بدابق يوم جمعة فدعا بثياب فلبسها، فلم تعجبه فدعا بغيرها بثياب خضر سوسية بعث بها يزيد بن المهلب، فلبسها واعتم وقال: يا ابن المهلب أعجبتك؟

قلت: نعم، فحسَّر عن ذراعيه ثم قال: أنا الملك الفتىٰ. فصلىٰ الجمعة ثم لم يجمّع بعدها.

وقال بعض أهل العلم أن سليمان لبس يوماً حلة خضراء وعمامة خضراء ونظر في المرآة فقال: أنا الملك الفتىٰ فما عاش بعد ذلك أسبوعاً[2].

وذكر ابن عبد ربه أن سبب هلاك سليمان بن عبد الملك أن نصرانياً أتاه وهو بدابق بزنبيل مملوء بيضاً وآخر مملوء تيناً، قال: قشروا فجعل يأكل بيضة وتينة حتى أتىٰ على الزنبيلين، ثم أتوه بقصعة مملوءة مخاً بسكر فأكله. فأتخم فمرض فمات[3].

وكم الفرق بين من يموت بالتخمة وبين من كان يقول: «أحب أن ألقىٰ الله وأنا خميص البطن» أو يقول: «لألف ضربة بالسيف أحب إليّ من ميتة علىٰ فراش»؟!

---

(١) و (٢) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٣٠٥.

(٣) العقد الفريد ج ٤ ص ٢٠٢.

عمر بن عبد العزيز

٩٩ـ ١٠١هـ

تولىٰ الخلافة عقب سليمان بن عبد الملك وبوصية منه. واشتهر بين الناس بالسيرة المحمودة والعدل. ولعل ذلك يعود لكونه أعقب عدداً من السلاطين الذين ساروا بسيرة الجبابرة والطغاة في الحكم، فبعد معاوية ويزيد وعبد الملك والوليد وسليمان الذين أذاقوا الناس ألوان العذاب والجور والظلم والحيف والكبت والدكتاتورية وسنوا البدع وأشاعوا الظلم وغيروا السنة، فبعد هؤلاء جاء عمر بن عبد العزيز، فأزال بعض البدع ورد بعض المظالم إلى أصحابها ولم يردها كلها.

فهو في الواقع عندما جاء بعد أولئك رفع الكبت الشديد عن الناس وسيرته كانت بالنسبة إلى سيرة الذين كانوا قبله محمودة، فالانفراج الذي حدث للناس بعد أولئك السلاطين كان أمراً مهماً وكانت بشرى للناس.

لكن عمر بن عبد العزيز في الواقع لم يغير الأمور التي كانت قبله تغييراً جذرياً بل كان تغييره نسبياً.

فمثلاً بني مروان كانوا يحوزون من الأموال والأراضي التي اغتصبوها أيام السلاطين السابقين ما يقدر بثلث أموال الأمة، فتركها عمر بن عبد العزيز في أيديهم خوفاً منهم.

روى اسماعيل بن أبي حكيم. قال: قال عمر بن عبد العزيز يوماً لحاجبه: لا تدخلن عليّ اليوم إلا مروانياً. فلما اجتمعوا قال: يا بني

مروان، إنَّكم قد أعطيتم حظاً وشرفاً وأموالاً، وإني لأحسب شطر أموال هذه الأمة أو ثلثيها في أيديكم، فسكتوا، فقال: ألا تجيبوني؟

فقال رجل منهم: فما بالك؟ قال: إني أريد أن أنتزعها منكم، فأردَّها إلى بيت مال المسلمين. فقال رجل منهم: والله لا يكون ذلك حتى يُحال بين رؤوسنا وأجسادنا، والله لا نكفُر أسلافنا ولا نُفقِر أولادنا.

فقال عمر: والله لولا أن تستعينوا عليّ بمن أطلب هذا الحق له لأضرعت خدودكم! قوموا عني. وفي قولٍ إني أخاف الفتنة[1].

والسيرة المحمودة كانت تقتضي استرجاع ما في أيديهم ورده إلى بيت المال. وأن لا تأخذه في الله لومة لائم.

وكان يقتضي أن يعاقبهم ويعاقب ولاتهم الذين ساروا بسيرة الجور والظلم في الناس. إلا أنه تركهم على حالهم فاستطاعوا الرجوع إلى السلطة مرة أخرىٰ وبسطوة أشد وأقسىٰ من السابق.

هذا مضافاً إلى أن الناس الذين ظُلِموا أيام السلاطين السابقين لم يستطيعوا من استيفاء حقوقهم وأموالهم وأراضيهم المغصوبة، وكذلك لم يستطيعوا من إنكار أعمال الحكام السابقين أو ذكرهم بسوء أو كشف حقائقهم ومثالبهم ومظالمهم. والقرآن الكريم يقول: **﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم﴾**[2].

وفضلاً عن ذلك، فإن عمر بن عبد العزيز أقرّ يزيد بن عبد الملك على ولاية العهد، ويزيد كان معروفاً بصاحب اللهو واللذات عند الناس وقد أنكر كثيرٌ من الناس إقرار عمر على يزيد بن عبد الملك ولياً للعهد[3].

وقد أشار إلى هذه الحقائق بعض أصحاب التاريخ منهم الجاحظ الذي كان يفسق عمر بن عبد العزيز لهذه الأمور[4].

---

(١) العقد الفريد ج ٤ ص ٢٠٦ وشرح نهج البلاغة ج ١٧ ص ١٠٣.

(٢) النساء ١٤٨.

(٣) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٣١١.

(٤) شرح نهج البلاغة ج ٢٠ ص ٣٢.

ونقل الجاحظ عن المنصور العباسي أنه إذا ذكر بني أمية كان يقول: «كان عبد الملك جباراً لا يبالي ما صنع، وكان الوليد مجنوناً، وكان سليمان هُمه بطنه وفرجُه وكان عمر أعور بين العميان»[1].

وقال الجاحظ: ولقد قدَّم المنصور عليهم عمر بن عبد العزيز بقوله: «أعور بين العميان وزعمتم أنه كان ناسكاً ورعاً تقياً، فكيف وقد جلد خُبَيب بن عبد الله بن الزبير مائة جلدةٍ وصب على رأسه جَرّة من ماء بارد في يوم شاتٍ، حتى كُزّ فمات، فما أقرّ بدمه ولا خرج إلى وليه من حَقِّه، ولا أعطى عقلاً ولا قوَداً، ولا كان خبيب ممن أتت عليه حدود الله وأحكامه وقصاصه؛ فيقال: كان مطيعاً بإقامتها واحتسبوا الضرب كان أدباً وتعزيراً فما عذره في الماء البارد في الشتاء على أثر جلد شديد.

وقد بلغه أن سليمان بن عبد الملك يوصي، فجاء حتى جلس على طريق من يجلس عنده أو يدخل إليه، فقال لرجاء بن حيوة في بعض من يدخل ومن يخرج: نشدتك الله أن تذكرني لهذا الأمر، أو تشير بي في هذا الشأن؛ فوالله ما لي عليه من طاقة! فقال له رجاء: قاتلك الله؛ ما أحرصك عليها.

ولما جاء الوليد بن عبد الملك بنعي الحجاج؛ قال له الوليد: مات الحجاج يا أبا حفص؟

فقال: وهل كان الحجاج إلا رجلاً منا أهل البيت! وقال في خلافته: لولا بيعةٌ في أعناق الناس ليزيد بن عاتكة لجعلت هذا الأمر شورى بين صاحب الأعوص اسماعيل بن أمية بن عمرو بن سعيد الأشدق وبين أحمس قريش القاسم بن محمد بن أبي بكر وبين سالم بن عبد الله بن عمر؛ فما كان عليه من الضرر والحرج وما كان عليه من الوَكن والنقص أن لو قال: بين علي بن العباس وعلي بن الحسين بن علي!، وعلىٰ أنه لم يرد التيمي ولا العدوي وإنما دبر الأمر للأموي، ولم يكن عنده أحدٌ من هاشم يصلح للشَّورى، ثم دبر الأمر ليبايع لأخيه أبي بكر بن عبد العزيز من بعده حتى عوجل بالسمّ.

---

(١) شرح نهج البلاغة ج ١٥ ص ٢٥٣.

وقال الجاحظ: وكان أعظم خلق الله قولاً بالجبر حتى يتجاوز الجهمية، ويُربى على كل ذي غاية وكان يصنع بذلك الكُتُب، مع جهله بالكلام وقلة اختلافه إلى أهل النظر.

وقال له شوذب الخارجي: لم لا تلعن رَهطك وتذكر أباك إن كانوا عندك ظلمة فجرة؟

فقال عمر: متى عهدك بلعن فرعون! قال: مالي به عهد. قال: أفيسعك أن تمسك عن لعن فرعون. ولا يَسَعُني أن أمسك عن لعن آبائي! فرأى أنه قد خصمه وقطع حجته، وكذلك يظنه كل من قصر عن مقدار العالم وجاوز مقدار الجاهل، وأي شبه لفرعون بآل مروان وآل أبي سفيان! هؤلاء قومٌ لهم حزبٌ وشيعة وناسٌ كثيرٌ يدينون بتفضيلهم وقد اعتورتهم الشُبهة في أمرهم، وفرعون على خلاف ذلك، وضده لا شيعة له ولا حزب ولا نسل ولا موالى ولا صنائع ولا في أمره شُبهة، ثم إن عمر ظنين في أمر أهله فيحتاج إلىٰ غسل ذلك بالبراءة منهم، وشوذب ليس بظنين في أمر فرعون، وليس الإمساك عن لعن فرعون والبراءة منه مما يعرفه الخوارج، فكيف استويا عنده!

وأضاف الجاحظ قائلاً:

وكان عمال أهله على البلاد عماله وأصحابه والذي حسن أمره وشبه على الأغنياء حاله، أنه قام بعقب قوم قد بَدّلوا عامة شرائع الدين وسنن النبي ﷺ وكان الناس قبله في الظلم والجور والتهاون بالإسلام في أمر صغر في جنبه عاينوا منه، وألفوه عليه، فجعلوه بما نقص من تلك الأمور الفظيعة في عداد الأئمة الراشدين وحسبك من ذلك أنهم كانوا يلعنون علياً عليه السلام على منابرهم، فلما نهىٰ عمر عن ذلك عُدَّ محسناً، ويشهد لذلك قول كُثير فيه:

وَليتَ فلم تشتُم علياً ولم تُخف بَرياً ولم تتبع مقالة مجرمِ

وهذا الشعر يدل على أن شتم علي عليه السلام قد كان لهم عادة، حتى مدح من كف عنه.

ولما ولي خالد بن عبد الله القسري مكة ـ وكان إذا خطب بها لعن علياً

والحسن والحسين عليهم السّلام ـ قال عبيد الله بن كثير السهمي:

لعن الله من يَسُبُّ علياً ... وحُسَيناً من سُوقَةٍ وإمامِ
أيسبُّ المطهرونَ جدوداً ... والكرامُ الاباء والاعمامِ
يأمن الطيرُ والحمامُ ولا ... يأمن آلُ الرسولِ عند المقامَ
طبت بيتاً وطاب أهلك أهلاً ... أهلُ بيت النبي والإسلام
رحمةُ الله والسلام عليهم ... كلما قام قائمٌ بسلامِ

انتهى كلام الجاحظ[1].

وقال الشريف الرضي في ذلك:

يا ابن عبد العزيز لو بكت العين ... فتىً من أميةٍ لَبَكيتُك
غير أني أقول إنك قد طبت ... وإن لم يَطِبْ ولم يَزكُ بيتُكْ
أنت نزهتنا عن السب والقذف ... فلو أمكن الجزاءُ جَزَيتُك[2]

أعمال غير مرضية:

من الأمور المسلّمة أنه لم تكن كل أعمال عمر بن عبد العزيز مرضية عند الله وعند الناس وقد وردت في التاريخ أخبارٌ تدل على ذلك.

منها ذكر علي بن محمد بن سليمان. قال: حدثني أبي قال: حضرت المهدي العباسي وقد جلس للمظالم، فتقدم إليه رجل من آل الزبير فذكر ضيعة اصطفاها عن أبيه بعض ملوك بني أمية، ولا أدري الوليد أم سليمان، فأمر أبا عبيد الله أن يخرج ذكرها من الديوان العتيق، ففعل، فقرأ ذكرها على المهدي وكان ذلك أنها عُرضت على عدة منهم لم يروا ردّها منهم عمر بن عبد العزيز. فقال المهدي العباسي: يا زبيري هذا عمر بن عبد العزيز وهو منكم معشر قريش كما علمتم لم ير ردها. قال: وكل أفعال عمر ترضىٰ؟ قال: وأي أفعاله لا ترضىٰ؟ قال: منها أنه كان يفرض للسقط من بني أمية في خرقة في الشرف من العطاء ويفرض للشيخ من بني هاشم في ستين. قال المهدي: يا معاوية أكذلك كان يفعل عمر؟ قال: نعم.

---

(١) شرح نهج البلاغة ج ١٥ ص ٣٥٤ـ ٣٥٦.
(٢) شرح نهج البلاغة ج ٤ ص ٦٠.

قال: أردد على الزبيري ضيعته[1].

ومنها قال ابراهيم بن ميسرة قلت لطاووس: هو المهدي (يعني عمر بن عبد العزيز) قال: هو مهدي وليس به، إنه لم يستكمل العدل كله.

وقال: ما رأيت عمر بن عبد العزيز ضرب أحداً في خلافته، غير رجل واحد تناول من معاوية، فضربه ثلاثة أسواط[2].

وكان عمر بن عبد العزيز يبالغ في التنعيم فكان الذين يعيبونه لا يعيبونه إلا بالافراط في التنعيم والاختيال في المشية[3].

وذكر أبو الفرج أن أول من دونت له من الخلفاء صنعة في الغناء عمر بن عبد العزيز. فإنه ذُكر عنه أنه صنع في أيام امارته على الحجاز سبعةَ ألحان يذكر سُعَاد فيها كلها.

وعن عاتكة بنت شُهدة عن أمها شهدة عن كَردَم قال:

طرح عليّ عمر بن عبد العزيز لحنه:

عَلِقَ القلبُ سُعادا ... عادتِ القلب فعادا
كلّما عُوتب فيها ... أو نُهي عنها تمادىٰ
وهو مشغوف بسُعدى ... قد عَصى فيها وزادا

قال كردم: وكان عمر أحسن خلق الله صوتاً وكان حسن القراءة للقرآن[4].

وله صوت آخر في سعاد:

ألا يا دينَ قلبُك من سُليمى ... كما قد دين قلبُك من سُعَادَا
هما سَبَتا الفؤاد وأصبتاه ... ولم يُدرك بذلك ما أرادا

إلى آخره[5]

---

(١) تاريخ الطبري ج ٦ ص ٣٩٩.
(٢) تاريخ السيوطي ص ٢٣٧ والبداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ١٣٩.
(٣) تاريخ السيوطي ص ٢٢٩.
(٤) الأغاني ج ٩ ص ٢٥٠ بولاق ج ٨ ص ١٥٠.
(٥) الأغاني ج ٩ ص ٢٦٨ بولاق ج ٨ ص ١٥٨.

يزيد بن عبد الملك

١٠١ ـ ١٠٥ هـ

أمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية.

وهو الخليفة المستهتر صاحب اللهو واللذات، أعقب عمر بن عبد العزيز في الخلافة بعدما قتل مسموماً، وقيل إن الذي قتله يزيد بن عبد الملك، وكان عمر دبر الأمر ليبايع لأخيه أبي بكر بن عبد العزيز، إلا أنه عوجل بالسم[١].

وقال ابن الماجشون: «أقام يزيد بن عبد الملك أربعين يوماً يسير بسيرة عمر بن عبد العزيز ثم عدل عن ذلك[٢] ليوهم الناس بسيرته وليستتب له الأمر.

والظاهر أن يزيد بن عبد الملك كان يبطن العداء لعمر بن عبد العزيز ولولاته وعماله الذين ساروا بسيرته.

فالناس بعد عمر بن عبد العزيز كانوا يظهرون نكرهم واستيائهم وبغضهم لعبد الملك وللوليد ولسليمان ولعامة بني أمية، مما كان يمس بكرامة يزيد بن عبد الملك وبالتالي يحرض الناس عليه، فهو ابن عبد الملك وهو همن يسير بسيرته وسيرة اخوانه، مضافاً إلى أنه كان صاحب لهو وطرب والناس قد تعودوا على سيرة عمر بن عبد العزيز. الأمر الذي دفع يزيد إلى

---

(١) شرح نهج البلاغة ج ١٥ ص ٢٥٤.

(٢) تاريخ السيوطي ص ٢٤٧.

إحداث تغيير في سياسته الداخلية، فأقدم على عزل ولاة عمر وعماله[1] في البلاد وكتب إليهم:

«أما بعد فإن عمر كان مغروراً غررتموه أنتم وأصحابكم وقد رأيت كتبكم إليه في انكسار الخراج والضريبة، فإذا أتاكم كتابي هذا فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده، وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولىٰ أخصبوا أم أجدبوا، أحبوا أم كرهوا أحيوا أم ماتوا والسلام»[2].

الاستهتار والمجون:

اشتهر يزيد بن عبد الملك بالاستهتار والمجون والخلاعة. فهو صاحب حبابة وسلامة، وله أخبار كثيرة مع هاتين الجاريتين. وقد فشا أمره بين الناس حتى بلغ من أمره أنه كان لا يخرج إلى الصلاة بل يعتكف عند جواريه.

وكان يأخذ منه الغناء مأخذاً عظيماً فيطرب لسماعه طرباً شديداً وهو في حالة السكر فيفقد شعوره وإرادته وعقله في تلك الحالة.

وكانت تصدر منه أفعالٌ قبيحة وشنيعة لا تليق بأي إنسان عاقل ناهيك عن خليفة المسلمين.

وبلغ به الأمر إلى حدٍ انتقصه حتى رجال بني أمية. منهم مسلمة بن عبد الملك وغيره.

وهذه بعض أخباره:

مع حبابة:

حج يزيد بن عبد الملك في أيام سليمان بن عبد الملك فاشترىٰ حبابة، وكان اسمها العالية بأربعة آلاف دينار من عثمان بن سهل بن حنيف. فقال سليمان: هممتُ أن أحجر على يزيد فرد يزيد حبابة فاشتراها رجل من أهل مصر.

---

(١) الأغاني ج ٤ ص ٢٥٥ بولاق ج ٤ ص ٥٣.

(٢) العقد الفريد ج ٤ ص ٢٠٩.

فقالت سعدة ليزيد: يا أمير المؤمنين هل بقي من الدنيا شيء تتمناه بعد؟

قال: نعم حبابة، فأرسلت سعدة رجلاً فاشتراها بأربعة آلاف دينار، فصنعتها حتى ذهب عنها كلال السفر فأتت بها يزيد، فأجلستها من وراء الستر. فقالت: يا أمير المؤمنين أبقي شيء من الدنيا تتمناه؟

قال: ألم تسأليني عن هذا مرة فأعلمتك؟!

فرفعت الستر وقالت: هذه حبابة وقامت وخلّتها عنده، فحظيت سعدة عند يزيد وأكرمها وحباها وسعدة امرأة يزيد وهي من آل عثمان بن عفان[1].

وكان يزيد بن عبد الملك يقول: ما يَقرُّ عيني ما أُوتيت من أمر الخلافة، حتى اشترىٰ سلاّمة وحبابة. فلما اجتمعتا عنده قال: أنا الآن كما قال الشاعر:

فألقت عصاها واستقر بها النوىٰ كما قرّ عيناً بالاياب المسافرُ[2]

وكان يتغنىٰ بحبابة بشعره ويطرب لذلك، فحكي أنه طرب يوماً فأخذ وسادة فصيرها على رأسه وقام يدور في الدار ويرقص ويصيح «السمك الطري أربعة أرطال عند بيطار حبان» حتى دار الدار كلها ثم جلس مجلسه وأنشد:

أبلغ حبابة أسقى رَبعَهَا المطر ما للفؤاد سوى ذكراكم وَطَرُ
إن سار صبحي لم أملَل بذكركم أو عرَّسوا فهمومُ النفس والفِكَرُ[3].

فهل هذا مقام خليفة رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين؟ أو مقام سكير خمير اتبع الشيطان، كما قال علي عليه السلام: اتخذوا الشيطان لأمرهم مِلاكاً واتخذهم له أشركاً فباض وفَرَّخ في صُدُورهم ودَبَّ ودرج في حجورهم، فنظر بأعيُنِهم ونطق بألسنَتِهم فركب بهم الزَّلَلَ وزين لهم الخَطَلَ، فعل من قد شَركه الشيطان في سلطانه ونطق بالباطل على لسانه[4].

---

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٣٧٥.
(٢) الأغاني ج ٨ ص ٣٤٦ بولاق ج ٨ ص ٦.
(٣) الأغاني ج ١٥ ص ١٣٧ و ج ٩ ص ٢٧٤ بولاق ج ٨ ص ١٦١.
(٤) نهج البلاغة خطبة ٧.

وكانت حبابة تحظىٰ عند يزيد بمنزلة عظيمة، فبعدما أخذت بمجامع قلبه صار الأمر والنهي لها. وكانت تصدر الأوامر عن رأيها، فهي صاحبة القرار، وما نال ابن هبيرة ولاية العراق إلا عن رأيها، فعملت له في ذلك حتى وليها[1].

وكانت إذا غنت طرب يزيد وقال لها: أطير؟

فتقول له: فألىٰ من تدع الناس؟ فيقول: إليكِ!![2].

وذكر عمر بن شبة أن مسلمة بن عبد الملك أقبل علىٰ يزيد يلومه في الالحاح على الغناء والشُرب وقال له: إنك وليت بعقب عمر بن عبد العزيز وعدله، وقد تشاغلت بهذه الأَمة (حبابة) عن النظر في الأمور والوفود ببابك وأصحاب الظلامات يصيحون. وأنت غافل عنهم. فقال: صدقت والله. وأعتبه وهم بترك الشرب. ولم يدخل على حبابة أياماً، قال: ومكث جمعةً لا يرىٰ حبابة ولا يدعو بها، فلما كان يوم الجمعة قالت لبعض جواريها: إذا خرج أمير المؤمنين إلى الصلاة فأعلميني؟ فلما أراد الخروج أعلمتها، فتلقته والعود في يدها وجعلت تغنيه فعدل إليها وقال: قبح الله من لامني فيك. يا غلام مُر مسلمة أن يصلي بالناس. وأقام معها يشرب وتغنيه وعاد إلى حاله[3].

وذكر أبو الفرج أن يزيد بن عبد الملك نزل ببيت رأسٍ بالشام ومعه حبابة فقال: زعموا أنه لا تصفوا لأحدٍ عيشةٌ يوماً إلى اللَيل إلا يكدرها شيءٌ عليه، وسأجرب ذلك.

ثم قال لمن معه: إذا كان غداً فلا تخبروني بشيء ولا تأتوني بكتاب وخلا هو وحبابة، فأُتيا بما يأكلان. فأكلت رمانةً فشرقت بحبةٍ منها فماتت. فأقام لا يدفنها ثلاثاً حتى تغيرت وأنتنت وهو يشمُّها ويرشفها. فعاتبه على ذلك ذووه وقرابته وصديقه وعابوا عليه ما يصنع، وقالوا: قد صارت جيفةً

---

(١) الأغاني ج ١٥ ص ١٢٧.

(٢) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٣٧٥ والأغاني ج ١٥ ص ١٤٠.

(٣) الأغاني ج ١٥ ص ١٢٨ والعقد الفريد ج ٦ ص ٤٩.

بين يديك! حتى إذن لهم في غسلها ودفنها، وأمر فأخرجت في نطع وخرج معها لا يتكلم حتى جلس على قبرها، فلما دفنت قال: أصبحت والله كما قال كثير:

فإن يَسلُ عنك القلبُ أو يدع الصبا فباليأس يَسلو عنك لا بالتجلُّدِ
وكلُّ خليلٍ رآني فهو قائلٌ من أجلك هذا هامة اليوم أو غدِ

فما أقام إلا خمس عشرة ليلة حتى دفن إلى جنبها.

وجزع عليها في بعض أيامه فقال: أنبشوها حتى أنظر إليها.

وروى المدائني: أنه اشتاق إليها بعد ثلاثة أيام من دفنه إياها فقال: لا بد من أن تُنبش فنُبشت وكُشف له عن وجهها وقد تغير تغييراً قبيحاً، فقيل له: يا أمير المؤمنين: اتق الله ألا ترىٰ كيف صارت؟ فقال: ما رأيتها قط أحسن منها اليوم، أخرجوها، فجاء مسلمةُ ووجوه أهله، فلم يزالوا به حتىٰ أزالوه عن ذلك ودفنوها وانصرف فكمد كمداً شديداً حتى مات، فدفن إلى جانبها.

وعن عبد الله بن عروة بن الزبير قال: خرجت مع أبي إلى الشام في زمن يزيد بن عبد الملك، فلما ماتت حبابة وأخرجت لم يستطع يزيد الركوب من الجزع ولا المشي، فحمل على منبرٍ على رقاب الرجال، فلما دفنت قال: لم أصلِّ عليها، انبشوا عنها. فقال له مسلمة: نشدتك الله يا أمير المؤمنين إنما هي أمةٌ من الاماء وقد واراها الثرىٰ! فلم يأذن للناس بعد حبابة إلا مرةً واحدة.

قال: فوالله مااستتم دخول الناس حتى قال الحاجب: أجيزوا رحمكم الله، ولم ينشب يزيد أن مات كمداً[1].

منتهى الطرب والميوعة:

قال يزيد بن عبد الملك يوماً لمعبد: يا أبا عباد، إني أريد أن أخبرك

---

(١) الأغاني ج ١٥ ص ١٤٣- ١٤٥ وتاريخ الطبري ج ٥ ص ٣٧٥ والعقد الفريد ج ٤ ص ٢١١.

عن نفسي وعنك فإن قلتُ فيه خلاف ما تعلم فلا تتحاشى أن تردَّه علي، فقد أذنت لك.

قال: يا أمير المؤمنين لقد وضعك ربك بموضع لا يعصيك إلا ضالٌ ولا يرد عليك إلا مخطىء، فقال يزيد: إن الذي أجده في غنائك لا أجده في غناء ابن سريج، أجدُ في غنائك متانةً وفي غنائه انخناثاً ولياناً.

قال معبد: والذي أكرم أمير المؤمنين بخلافته وارتضاه لعباده وجعله أميناً على أمة نبيه ﷺ، ما عدا صفتي وصفة ابن سريج وكذا يقول ابن سريج وأقول، لكن إن رأىٰ أمير المؤمنين أن يُعلمني هل وضعني ذلك عنده فعل. قال: لا والله ولكنّي أوثِر الطلب على كل شيء. قال: يا سيدي فإذا كان ابن سريج يذهب إلى الخفيف من الغناء وأذهب أنا إلى الكامل التام، فأغربُ أنا ويشرق هو، فمتى نلتقي؟ قال: أفتقدر أن تحكي رقيق ابن سريج؟ قال: نعم فصنع من وقته لحناً من الخفيف في:

إلا لله قـــــــــــــومٌ و لـــدت أخـــتُ بـــنـــي سَـــهـــم

الأبيات الأربعةَ

فغناه، فصاح يزيد: أحسنت والله يامولاي، أعد فداك أبي وأمي فأعاد، فرد عليه مثل قوله الأول، فأعاد. ثم قال: أعد فداك أبي وأمي فأعاد، فاستخفه الطَّرَبُ حتى وَثَبَ وقال لجواريه أفعلن كما افعل وجعل يدور ويدرن معه وهو يقول:

يـــــا دار دوريـــــنـــــي يـــا قـــرقـــر امـــســـكـــيني

آلـــيـــت مـــنـــذ حـــيني حـــقـــاً لـــتـــصـــرمـــيني

قال: فلم يزل يدور كما يدور الصبيان ويدرن معه، حتى خرَّ مغشياً عليه ووقعن فوقه ما يعقل ولا يعقلن، فابتدره الخدم فأقاموه وأقاموا من كان على ظهره من جواريه وحملوه وقد جاءت نفسه أو كادت[1].

ودخل نصيب على يزيد بن عبد الملك ذات يوم، فأنشده قصيدة

---

(١) الأغاني ج ١ ص ٦٨ بولاق ج ١ ص ٣٣.

امتدحه بها فطرب لها يزيد واستحسنها فقال له: أحسنت يا نصيب، سلني ما شئت، فقال يدك يا أمير المؤمنين بالعطاء أبسط من لساني بالمسألة.

فأمر به فملىء فمه جوهراً، فلم يزل به غنياً حتى مات[1].

وذكر صاحب العقد الفريد: أن يزيد أخرج إحدىٰ جواريه تغني ثلاث أصوات لشاب طلب منها ذلك على أن يشرب على كل صوت رطل من الخمرة، فأخرجها يزيد وجلسوا على كراسي من ذهب، فغنت الجارية الأصوات الثلاثة والشاب يشرب الأرطال الثلاثة حتى سقط مغشياً عليه فحركوه فإذا به ميت[2].

هذه كانت مجالس يزيد بن عبد الملك وهؤلاء كانوا قرنائه وجلسائه أمثال معبد ونصيب وحبابة وسلاّمة وقد قال القرآن الكريم: **﴿ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾**[3].

وغُنيَّ يزيد بن عبد الملك ببيتين لأبي الطمحان القيني فطرب لهما طرباً شديداً وقال: لله درَّ قائلهما من هو؟

فقال المغني: أبو الطمحان القيني وهو بالباب يا أمير المؤمنين، قال: ما أعرفه، فقال له بعض جلسائه: هو صاحب الدير يا أمير المؤمنين، قال: وما قصّة الدير، قال: قيل لأبي الطمحان ما أيسر ذنوبك؟

قال: ليلة الدير. قيل له: وما ليلة الدير؟

قال: نزلت ذات ليلة بدير نصرانية فأكلت عندها طفيشلا[4] بلَحم خنزير وشربت من خمرها وزينت بها وسرقت كساءها ومضيت فضحك يزيد وأمر له بألفي درهم[5].

---

(١) الأغاني ج ١ ص ٣٧٠ بولاق ج ١ ص ١٤٧.
(٢) المستطرف ج ٢ ص ١٦٥ والعقد الفريد ج ٦ ص ٤٣.
(٣) الزخرف ٣٦.
(٤) مرق لحم الخنزير.
(٥) العقد الفريد ج ٦ ص ٣٠.

قتل الأسرىٰ:

من أبسط حقوق الأسرىٰ في الاسلام هو مراعاة سلامتهم وصحتهم والاعتناء بطعامهم، وقد أكد الرسول الكريم ﷺ، بأقواله وأفعاله ذلك، وسيرته شاهدة على ما نقول.

ألم يذكر القرآن الكريم: **﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيرا، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا﴾**[1]. وقد نزلت في أهل بيت النبي ﷺ وهم علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السّلام. وقد أطعموا في اليوم الثالث أسيراً وظلوا ثلاثة أيام جياع، فنزل القرآن يشهد بفضلهم.

ألم يقف رسول الله ﷺ في مكة خطيباً بعد الفتح يخاطب أهل مكة وفيهم جد يزيد بن عبد الملك وقال لهم اذهبوا فأنتم الطلقاء.

هذه كانت سيرة رسول الله ﷺ وأهل بيته وتعاليم الإسلام وعلى ذلك عشرات الشواهد.

أما يزيد بن عبد الملك فيأمر بقتل الأسارىٰ الذين يشهدون الشهادتين وهم ثلاثة مائة إنسان كانوا أسروا في قتال يزيد بن المهلب[2].

وقتل في مجلسه تسعة من أحداث آل المهلب أمر بضرب رقابهم[3].

وصار قتل الأسارىٰ من بعده سنة للولاة والسلاطين الآخرين الأمر الذي أدخل الوهن على المسلمين في العالم، فانطبع الإسلام في أذهان الأمم الأخرىٰ أنه دين العنف والقسوة واللارحمة. وطالما جاء المستشرقون وعابوا ذلك علىٰ الإسلام.

وكان سعيد بن عمرو الحرشي والي خراسان في عهد يزيد بن عبد الملك قاتل أهل السغد وقتل أسراهم، فكان يختم في عنق الرجل ويخرج من

---

(١) الانسان ٨، ٩.

(٢) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٣٤٥.

(٣) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٣٤٨.

حائط إلى حائط فيُقتل وكانوا ثلاثة آلاف ويقال سبعة آلاف ثم اصطفىٰ أموالهم وذراريهم فأخذ منه ما أعجبه ثم قسم الأموال[1].

وغضب يزيد بن عبد الملك على أحد ولاته وهو ابن الضحاك وكان واليه على المدينة فجعل يزيد يضرب بخيزارن في يديه وهو يقول: لقد اجترأ ابن الضحاك هل رجل يسمعني صوته من العذاب وأنا على فراشي.

قيل له عبد الواحد بن عبد الله، قال: فدعا بقرطاس فكتب بيده إلى عبد الواحد بن عبد الله النضري وهو بالطائف: سلام عليك أما بعد فإني وليتك المدينة فإذا جاءك كتابي هذا فأهبط وأعزل عنها ابن الضحاك وأغرمه أربعين ألف دينار وعذبه حتى أسمع صوته وأنا علىٰ فراشي[2].

ولعل ابن الضحاك كان مستحقاً للعقاب لكن الذي أريد أن أبينه مدىٰ قسوة يزيد وعنفه وشدة بطشه في هذا الأسلوب من العقاب.

وفي الحديث: «والغضب شعبة من الجنون فإن صاحبه يندم فإن لم يندم فجنونه مستحكم».

---

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٣٦٥.

(٢) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٣٦٧.

هشام بن عبد الملك

١٠٥ ـ ١٢٥ هـ

ولد هشام بن عبد الملك في العام الذي قتل فيه مصعب بن الزبير سنة ٧٢هـ.

وأمه عائشة بنت هشام بن اسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي، وكانت حمقاء أمرها أهلها أن لا تكلم عبد الملك حتى تلد وكانت تثني الوسائد وتركب الوسادة وتزجرها كأنها دابة وتشتري الكندر فتمضغه وتعمل منه تماثيل وتضع التماثيل على الوسائد وقد سمت كل تمثال باسم جارية وتنادي يا فلانه ويا فلانه، فطلقها عبد الملك لحمقها وسار عبد الملك إلى مصعب فقتله. فلما قتله بلغه مولد هشام فسماه منصوراً يتفاءل بذلك وسمته أمه باسم أبيها هشام فلم ينكر ذلك عبد الملك وكان هشام يكنى أبا الوليد[1].

أعقب أخاه يزيد بن عبد الملك في تولي الأمور، وكان يزيد يدبر الأمر لابنه الوليد، إلا أن الوليد كان صغيراً، فلما شب تأسف يزيد على استخلاف هشام وكان يقول للوليد: لعن الله من جعل هشام بيني وبينك.

واستمر عهد هشام عشرون سنة وكان يعتبر عهده أواخر عزّ الدولة الأموية، فمن بعده دب الخلاف في أرجاء الدولة وتحطمت على أثر ثورات قامت في أغلب البلاد.

---

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٣٧٦ والعقد الفريد ج ٤ ص ٢١٢.

وعرف هشام بن عبد الملك بالبخل والجبن من بين أخوته وأقرانه، وكان أحمق أحول ورث الحماقة من أمه.

ولما بلغه موت يزيد بن عبد الملك خر أصحابه سجوداً فرحاً لموته[1].

وكان خبيث السيرة ظالماً متجبراً. أنظر إلى نصيحته لولده:

عن الهيثم بن عدي قال: كان سعيد بن هشام بن عبد الملك عاملاً لأبيه على حمص. وكان يرمىٰ بالنساء والشراب. فقدم حمصيٌ على هشام وكتب له في رقعة:

أبلغ إليك أمير المؤمنين فقد ... أمددتنا بأمير ليس عنينا
طوراً يخالف عمراً في حليلته ... وعند ساحته يسقي الطلا دينا

فأشخصه هشام، فلما قدم عليه علاه بالخيزرانة وقال: يا ابن الخبيثة تزني وأنت ابن أمير المؤمنين؟ ويلك أعجزت أن تفجر فجور قريش؟ أو تدري ما فجور قريش، لا أم لك؟ قتل هذا وأخذ مال هذا، لا تلي لي عملاً حتى تموت[2].

حماقته:

إليك بعض النماذج من أخباره التي تنبىء عن حمقه وجهله وعدم معرفته.

قال حماد الأبح: قال هشام بن عبد الملك لغيلان: ويحك يا غيلان قد أكثر الناس فيك فنازعنا بأمرك فإن كان حقاً أتبعناك وإن كان باطلاً نزعتَ عنه؟ قال: نعم، فدعا هشام ميمون بن مهران ليكلمه.

فقال له ميمون: سل فإن أقوىٰ ما يكون إذا سألتم؟

قال غيلان: أشاء الله أن يُعصىٰ؟

---

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٢٤٩.
(٢) العقد الفريد ج ٤ ص ٢١٣.

فقال له ميمون: أفعصي الله كارهاً؟ فسكت. فقال هشام: أجبه، فلم يجبه، فقال له هشام: لا أقالني الله إن أقلته وأمر بقطع يديه ورجليه[1].

وظن هشام أنه أفحمه بسؤاله لكن هشام كان يجهل أن الأمر معلول للإرادة والإرادة معلولة للحب والنهي معلول لعدم الإرادة وهي معلولة للكراهة والبغض.

وقد قال تعالىٰ: **﴿سَيَقُولُ الذينَ اشركوا لو شاءَ اللّهُ ما أَشركنَا ولا آباؤنا ولا حَرَّمنَا من شيءٍ كذلك كذَّب الذين من قبلِهم حتى ذاقوا بأسَنَا قل هل عندكم من علم فتُخرجُوه لنا إن تتبعون إلا الظَّنَّ وإن أنتم إلاَّ تخرُصُونَ﴾ ﴿قل فللّه الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾**[2].

وقد بين الله تعالى أنه لم يضطر عباده على الإيمان والشرك ولم يشأ منهم ذلك بالمشية التكوينية حتى يكونوا مجبرين، بل أذن لهم في الإيمان وخلافه وهذا الإذن هو رفع المانع التكويني وهو اختيار العباد وقدرتهم على جانبي الفعل والترك، وهذا الأمر لا ينافي الأمر التشريعي بترك الشرك والمعصية مثلاً بل هو الأساس الذي يبتني عليه الأمر والنهي[3].

وقدم هشام بن عبد الملك حاجاً إلى بيت الله الحرام، فلما دخل الحرم قال: ائتوني برجل من الصحابة؟ فقيل: يا أمير المؤمنين قد تفانوا. قال: فمن التابعين؟ فأتى بطاووس اليماني، فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم بأمرة المؤمنين ولم يكنه وجلس إلى جنبه بغير إذنه وقال: كيف أنت يا هشام؟

فغضب هشام من ذلك غضباً شديداً حتى هم بقتله.

فقيل له: أنت يا أمير المؤمنين في حرم الله وحرم رسول الله ﷺ. لا يكون ذلك،

فقال: يا طاووس ما حملك على ما صنعت؟

---

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٥١٦.

(٢) الانعام ١٤٨ـ ١٤٩.

(٣) تفسير الميزان ج ٧ ص ٣٦٧.

قال: وما صنعت؟ قال: خلعت نعليك بحاشية بساطي ولم تسلم بيا أمير المؤمنين ولم تكنني وجلست بإزائي بغير إذني وقلت يا هشام كيف أنت؟

فقال له طاووس: أما خلع نعلي بحاشية بساطك فإني أخلعهما بين يدي رب العزة في كل يوم خمس مرات ولا يعاتبني ولا يغضب عليّ. وأما قولك لم تسلم عليّ بأمرة المؤمنين فليس كل مؤمن راضياً بأمرتك فخفت أن أكون كاذباً وأما قولك لم تكنني فإن الله عز وجل سمىٰ أنبياءه فقال يا داود ويا يحيىٰ ويا عيسىٰ وكنىٰ أعدائه فقال تبت يدا أبي لهب، وأما قولك جلست بازائي فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام.

فقال له هشام: عظني؟

فقال له: إني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: «إن في جهنم حيات وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته» ثم قام فخرج[1].

ما أروع هذا الموقف من طاووس اليماني! وأيم الحق. إنه لو وزن بالجبال لرجح عليها، ولقد قال الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله: أعظم الجهاد كلمة حق عند إمام جائر.

وكان هشام يبغض أهل البيت عليهم السّلام ولا جرم فهو من الشجرة الملعونة في القرآن وهم الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وقد قال الشاعر:

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسودِ
لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طيب عرف العودِ

وقد حج هشام بن عبد الملك فزاحمه الناس في الطواف، فوقف ينتظر

---

(١) ثمرات الأوراق ص ٨٧ في حاشية المستطرف.

خفة الزحام. فرأى علي بن الحسين عليه السلام يطوف بالبيت والناس يفرجون له. فقال: من هذا؟

فقال الأبرش الكلبي: ما أعرفه.

فقال الفرزدق: لكني أعرفه. فقال: من هو؟ فقال الفرزدق:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيتُ يعرفه والحلُّ والحرمُ
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقيُّ الطاهرُ العلمُ
هذا ابن فاطمةٍ إن كنت جاهلَه ... بجدِه أنبياء الله قد ختموا
وليس قولك من هذا بضائره ... العربُ تعرف من أنكرت والعجم
إذا رأته قريشٌ قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
يغضي حياءً ويُغضىٰ من مهابته ... فما يُكلَّمُ إلا حين يَبتسم
يكاد يُمسكه عِرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم

إلى آخرها...

فغضب هشام على الفرزدق فحبسه بين مكة والمدينة فقال:

أتحبسني بين المدينة والتي ... إليها قلوب الناس يهوي منيبُها
يقلبُ رأساً لم يكن رأس سيد ... وعيناً له حولاء باد عيوبُها[1]

وكان هشام أحولاً قبيح المنظر، أنشده أبو النجم أرجوزته في وصف الابل التي أولها:

«الحمد لله الوهوب المجزل» فلم يزل هشام يصفق بيديه استحساناً لها، حتى بلغ قوله في صفة الشمس: «فهي على الأفق كعين الأحول» فسكت أبو النجم فقال له هشام: أجز البيت، فقرأه.

فغضب هشام وأمر بوجأ رقبته وإخراجه وكان هشام أحولا[2].

وقيل إن هشام استعرض الجند، فتقدم رجل حمصي بفرس كلما قدمه يتأخر، فقال له هشام: ما هذا؟

---

(١) الأغاني ج ٢١ ص ٣٧٦.

(٢) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٥١٩ وعيون الأخبار ج ٤ ص ٥٨ والعقد الفريد ج ١ ص ١٧٣.

قال: يا سيدي فرس فاره ولكنه شَبَهَك ببيطارٍ كان يعالجه فنفر[1].

يخضمون مال الله:

وصف الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبته الشقشقية بني أمية بقوله: «يخضمون مال الله خضم الابل نبتة الربيع» وهي كناية عن نهب بيت مال المسلمين والسرقة منه.

وهذه كانت عادة حكامهم وشيمتهم، لكن بعضهم كان يسرف في السرقة إسرافاً عظيماً وهشام من أولئك.

قال أصبغ بن الفرج: لم يكن في بني مروان من ملوكها أعطر ولا ألبس من هشام. خرج حاجاً فحمل ثياب طهره على ستمائة جمل ودخل المدينة بها[2].

فالله أعلم كم كانت تحمل هذه الجمال من الملابس، هذا والخليفة خارج إلى بيت الله الحرام وقد فرض الله عز وجل على المحرم لبس ثوبي الإحرام فقط، فماذا كان يفعل بهذه الملابس؟ أنا لا أعلم.

وقد قال تعالىٰ: **﴿ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾**.

وقيل إن هشام بن عبد الملك ترك بعد موته اثنىٰ عشر ألف قميص وشيٍ (١٢,٠٠٠) وعشرة آلاف تكةَ حرير (١٠,٠٠٠).

وترك بعد وفاته أحد عشر ألف ألف دينار (١١,٠٠٠,٠٠٠ دينار).

ولم تأت دولة بني العباس إلا وجميع أولاده فقراء لا مال لواحد منهم وبين دولة بني العباس ووفاة هشام سبع سنين[3].

وكانت أملاك هشام الخاصة تصل إلى حد الملايين فقد ذكر في تاريخ

---

(١) المستطرف ص ١٧٢.
(٢) العقد الفريد ج ٤ ص ٢١٢.
(٣) المستطرف ج ٢ ص ٤٧.

الطبري أن هشام كتب إلى خالد بن عبد الله واليه على العراق: لا تبيعن من الغلات شيئاً حتى تباع غلات أمير المؤمنين حتى بلغت الكيلجة درهماً[1].

وكانت تبلغ غلة خالد بن عبد الله عشرين ألف ألف، فكيف بغلة هشام التي كانت تباع قبل جميع الغلات.

وقال مَحذم (كاتب يوسف بن عمرو والي العراق): بعثني يوسف بن عمرو بياقوتة حمراء تخرج طرفاها من كفي ولؤلؤٌ حبه أعظم ما يكون من اللؤلؤ، فدخلت عليه، فدنوت منه فلم أر وجهه من طول السرير وكثرة الفرش، فتناول الحجر والحبة.

فقال هشام: اكتب معك بوزنهما، قلت: يا أمير المؤمنين هما أجل عن أن يكتب بوزنهما، من أين يوجد مثلهما، قال: صدقت.

وكانت الياقوته للرائقة جارية خالد بن عبد الله اشترتها بثلاثة وسبعين ألف دينار (٧٣٠٠٠ دينار)[2].

ولكن هل نفعه هذا المال وهذه الجواهر وهذه الملابس عندما نزل به الموت؟

كلا، لم ينفعه كل ذلك، بل لم يجدوا له حتىٰ كفناً يكفن به ولم يجدوا له حتى أناءً يسخن له فيه الماء.

وكما قال تعالى: **﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾**[3].

فذكر ابن جرير: عندما مات هشام خرج عياض من السجن، فختم أبواب الخزائن وأمر بهشام فأنزل عن فرشه، فما وجدوا له قمقماً يسخن له فيه الماء حتى استعاروه ولا وجدوا كفناً من الخزائن فكفنه غالب مولىٰ هشام.

---

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٤٧٧.

(٢) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٥١٩.

(٣) الشعراء ٨٨.

وكتب الوليد بن يزيد إلى العباس بن الوليد بن عبد الملك: أن يأتي الرصافة فيحصي ما فيها من أموال هشام وولده ويأخذ عماله وحشمه إلا مسلمة بن هشام فإنه كتب إليه أن لا يعرض له ولا يدخل منزله فإنه كان يكثر أن يكلم أباه في الرفق به ويكفه عنه.

فقدم العباس الرصافة، فأحكم ما كتب به إليه الوليد، وكتب إلى الوليد بأخذ بني هشام وحشمه وإحصاء أموال هشام.

فقال الوليد بن يزيد:

ليت هشاماً كان حياً يرىٰ ... مِحلَبهُ الأوفر قد أترعا
ليت هشاماً عاش حتى يرىٰ ... مكياله الأوفر قد طبعاً
كِلناه بالصاع الذي كاله ... وما ظلمناه به إصبعا
وما أتينا ذاك عن بدعةٍ ... أحَلَهُ الفرقان لي أجمعا[1]

هذا كان جزاءه في الدنيا وأما الآخرة فالله عز وجل يقول: ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضةَ ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يوم يُحمىٰ عليها في نار جهنم فتُكوىٰ بها جباهُهُم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتُم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون**﴾[2].

البخيل:

كان هشام بن عبد الملك معروفاً بالبخل والجبن وقد ورد ذكره في البخلاء في كتب الأدب والتاريخ ونقلت عنه أخبار كثيرة تشير إلى بخله ولؤم نفسه.

وما اجتمعت هذه الصفة والجبن في إنسان إلا وفتحت له بابَ مساوىء الأخلاق.

وقد قال رسول الله ﷺ: «البخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، قريب من النار»[3].

---

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٥٢٦ والأغاني ج ٧ ص ١٨ بولاق ج ٦ ص ١٠٩.
(٢) التوبة ٣٥.
(٣) بحار الأنوار ج ٧٣ ص ٣٠٨.

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام: «البُخلُ جامع لمساوىء العيوب وهو زمام يقاد به إلى كل سوء»[1].

وكان هشام فضلاً عن بخله في ماله كان يبخل على المسلمين بحقهم في بيت المال فيمنعهم العطاء أو ينقصهم، ويدخله في بيت ماله.

عن الأصمعي قال: دخل أعرابي على هشام بن عبد الملك فقال له: عظني يا أعرابي؟

فقال: كفىٰ بالقرآن واعظاً، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم، ويل للمطففين الذين إذا إكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين**﴾[2]. ثم قال: يا أمير المؤمنين هذا جزاء من يطفف في الكيل والميزان فما ظنك بمن أخذه كله[3].

وكان بعض بني مروان يعيبونه بالبخل ويقولون له: أتطمع في الخلافة وأنت بخيل جبان[4].

وأتىٰ هشاماً محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر فقال له هشام: مالك عندي شيء ثم قال: إياك أن يغرك أحد فيقول لم يعرفك أمير المؤمنين، اني قد عرفتك أنت محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر، فلا تقيمن وتنفق ما معك فليس لك عندي صلة، فالحق بأهلك[5].

وذكر ابن جرير عن مولىٰ لهشام قال: بعث معي مولىٰ لهشام كان على بعض ضياعه بطيرين ظريفين. فدخلت إليه وهو جالس على سرير في عرصة الدار.

فقال: أرسلهما في الدار، قال: فأرسلتهما فنظر إليهما. فقلت: يا أمير المؤمنين جائزتي؟

---

(١) نهج البلاغة الحكم ٣٧٨.

(٢) سورة المطففين ١ـ ٦.

(٣) العقد الفريد ج ٣ ص ١٤٩.

(٤) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٥١٧.

(٥) تاريخ الطبري ج٥ ص ٥١٨

قال: ويلك وما جائزة طيرين.

قلت: ما كان، قال: خذ أحدهما فغدوت في الدار عليها. فقال: مالك؟

قلت: اختار خيرهما. قال: أتختار أيضاً خيرهما وتدع شرهما لي دعهما ونحن نعطيك أربعين درهماً أو خمسين درهماً[1]. (وفي مروج الذهب أعطاه درهمين).

وذكر ابن عبد ربه: من البخلاء هشام بن عبد الملك. قال خالد بن صفوان: دخلت على هشام فأطرفته وحدثته. فقال: سل حاجتك؟

فقلت: يا أمير المؤمنين تزيد في عطائي عشرة دنانير، فأطرق حيناً وقال: فيم ولم وبم؟ ألعبادة أحدثتها أم لبلاء حسن أبليته في أمير المؤمنين، ألا لا يا صفوان ولو كان لكثر السؤال ولم يحتمله بيت المال.

فقلت: وفقك الله يا أمير المؤمنين وسددك فأنت والله كما قال أخو خزاعة:

إذا المال لم يوجب عليك عطاءه صنيعة قربى أو صديق توافقه
منعت وبعض المنع حزم وقوة ولم يستلبك المال إلا حقائقه

فقيل لخالد بن صفوان: ما حملك على تزيين البخل له.

فقال: أحببت أن يمنع غيري فيكثر لومه[2].

وقد قال تعالى في كتابه الكريم: **﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾**[3].

والملفت في هذا الخبر أن هشاماً هو الذي ابتدره وقال سل حاجتك ولكن كما قال عليٌ عليه السلام: ليس لبخيل حبيب!.

---

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٥١٧.

(٢) العقد الفريد ج ٦ ص ١٣٧.

(٣) النساء ٣٧

مقتل زيد بن علي عليه السلام:

هو زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وأمه أم ولد.

قام ثائراً في وجه الدولة الأموية تأسياً بجده الحسين بن علي عليه السلام واختار الشهادة والقتل في سبيل الله على الحياة مع الظالمين.

ولا شك أن الدواعي التي بعثته إلى إعلان الثورة، كانت دواعي إصلاحية كما يظهر من قراءة التاريخ. فعندما بايعه أهل الكوفة كانت البيعة على الدعوة إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وجهاد الظالمين والدفع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين وتقسيم الفيء ونصرة أهل البيت عليهم السّلام[1].

وروي في كشف الغمة عن زيد بن علي أنه قال: شهدت هشاماً ورسول الله صلى الله عليه وآله يُسب عنده فلم ينكر ذلك ولم يغيره، فوالله لو لم يكن إلا أنا وآخر لخرجت عليه[2].

وقيل إن السبب في خروجه أنه خاصم عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي في صدقات علي عليه السلام فتنازعا عند والي المدينة وهو خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم. فسرَّ خالد لاختلافهما وجمعهما ليفصل بينهما فقال زيد لعبد الله: لا تعجل يا أبا محمد، أعتق زيد ما يملك إن خاصمك إلى خالد أبداً. ثم أقبل على خالد فقال له: أجمعتَ ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله لأمر ما كان يجمعهم عليه أبو بكر ولا عمر، فقال خالد: أما لهذا السفيه أحدٌ يكلمه.

فتكلم رجلٌ من الأنصار من آل عمرو بن حزم، فقال: يا ابن أبي تراب ويا ابن حسين السفية! أما ترىٰ عليك لوالٍ حقاً ولا طاعة!

فقال زيد: اسكت أيها القحطاني فإنا لا نجيب مثلك! فقال الانصاري: ولم ترغب عني فوالله إن لخيرٌ منك وأبي خير من أبيك وأمي خير من أمك!

---

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٤٩٢.

(٢) سفينة البحار ص ٥٧٧ نقله عن كشف الغمة للشيخ بهاء الدين علي بن عيسىٰ الأربلي فرغ من تأليفه سنة ٦٧٨هـ.

فتضاحك زيد وقال: يا معشر قريش، هذا الدين قد ذهب. أفذهبت الأحساب! فتكلم عبد الله بن واقد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب. فقال: كذبت أيها القحطاني، والله لهو خيرٌ منك نفساً وأباً وأماً ومحتداً، وتناوله بكلام كثير وأخذ كفاً من الحصا، فضرب به الأرض، وقال: إنه والله ما لنا على هذا من صبر وقام.

فقام زيد أيضاً، وشخص من فوره إلى هشام بن عبد الملك، فجعل هشام لا يأذن له وزيد يرفع إليه القصص وكلما رفع إليه قصة كتب هشام في أسفلها: أرجع إلى أرضك. فيقول زيد: والله لا أرجع إلى ابن الحارث أبداً.

ثم أذن له بعد حبسٍ طويل وهشام في مكان عالٍ، فرقىٰ زيد إليه وقد أمر هشام خادماً له أن يتبعه حيث لا يراه زيد ويسمع ما يقول. فصعد زيد ـ وكان بادناً ـ فوقف في بعض الدرجة، فسمعه الخادم، وهو يقول: ما أحب الحياة إلا من ذلّ. فأخبر الخادم هشاماً بذلك. فلما قعد زيد بين يدي هشام وحدثه حلف له على شيء، فقال هشام: لا أصدقك، فقال زيد: إن الله لا يرفع أحداً عن أن يرضى بالله ولم يضع أحداً عن أن يرضىٰ بذلك منه.

فقال له هشام: إنه بلغني أنك تذكر الخلافة وتتمناها ولست هناك لأنك ابن أَمة.

فقال زيد: إن لك جواباً، قال: تكلم، قال: إنه ليس أحد أولىٰ بالله ولا أرفع درجة عنده من نبيّ ابتعثه وهو اسماعيل بن ابراهيم وهو ابن أَمة قد اختاره الله لنبوته وأخرج منه خير البشر.

. فقال هشام: ما يصنعُ أخوك البقرة؟

فغضب زيد، حتى كاد يخرج من إهابه، ثم قال: سماه رسول الله ﷺ الباقر وتسميه أنت البقرة! لشدَّ ما اختلفتما لتخالفته في الآخرة كما خالفته في الدنيا فيرد الجنة وترد النار.

فقال هشام: خذوا بيد هذا الأحمق المائق، فأخرجوه، فأخذ الغلمان بيده فأقاموه، فقال هشام: احملوا هذا الخائن الأهوج إلى عامله، فقال زيد: والله لئن حملتني إليه لا أجتمع أنا وأنت حَيّين. وليموت الأعجل مِنّا.

فأخرج زيد وأشخص إلى المدينة ومعه نفر يسيرونه حتى طردوه عن حدود الشام، فلما فارقوه عدل إلى العراق فدخل الكوفة وبايع أهلها، فأعطاه البيعة أكثر أهلها، والعامل عليها وعلى العراق يومئذ يوسف بن عمر الثقفي. فكان بينهما من الحرب ما هو مذكور في كتب التواريخ، وخذل أهل الكوفة زيداً وتخلف معه ممن تابعه نفر يسير وأبلى بنفسه بلاءً حسناً وجهاداً عظيماً، وعندما حذره بعض الناس القتل تمثل بأبيات عنترة

بَكَرَت تخوفُني الحتوف كأنني ... أصحبت عن غرض الحتوف بمعزلِ
فأجبتها إن المنية منهل ... لا بد أن أسقىٰ بذاك المنهل
إن المنية لو تمثل مُثِّلت ... مثلي إذا نزلوا بضيق المنزلِ
فاقني حياءك لا أبالك واعلمي ... أني امرؤ سأموت إن لم أقتلِ

وقاتل قتال الأبطال حتى أتاه سهم غرب فأصاب جانب جبهته اليسرىٰ فثبت في دماغه فحين نزع منه مات عليه السلام[1].

ودفن في نهر يعقوب فيما قيل وكان أصحابه قد سكّروا النهر ثم حفروا له في بطنه فدفنوه في ثيابه ثم أجرواعليه الماء. ثم إن رجلاً دلهم على موضع قبره فاستخرجوه فقطعوا رأسه وصلبوا جسده ثم أمروا بحراسته لئلا ينزل فمكث يحرس زماناً، ومكث البدن مصلوباً حتى مات هشام ثم أمر به الوليد فأنزل وأحرق[2].

وهكذا قتل زيد شهيداً مظلوماً صابراً مجاهداً وهو الذي كان يسمىٰ حليف القرآن لعبادته وزهده وقراءته للقرآن وعلمه.

وذكر في مقاتل الطالبيين عن جرير بن حازم قال: رأيت النبي صلى الله عليه وآله في المنام وهو متساند إلى جذع زيد بن علي عليه السلام وهو مصلوب وهو يقول للناس: أهكذا تفعلون بولدي[3].

---

(١) شرح نهج البلاغة ج ٣ ص ٢٨٥ وتاريخ الطبري ج ٥ ص ٤٨٢ والعقد الفريد ج ٤ ص ٢٣٤.

(٢) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٥٠٥.

(٣) مقاتل الطالبيين ـ زيد بن علي.

إذا دخلوا قرية أفسدوها:

القرآن الكريم يذكر عن لسان بلقيس حقيقة ثابتة ثبوتاً تاريخياً وهي: **﴿قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعَلُوا أَعزةَ أَهلها أذلةً وكذلك يفعلون﴾**[1].

وكذلك فعل بنو أمية فعندما سقطت الكوفة بيد معاوية ولىٰ عليها زياد بن أبيه وعلى المدينة مروان فأفسدوا فيها. وكذلك فعل يزيد فولىٰ العراق عبيد الله بن زياد وفعل بأهل الحجاز ما فعل حين ولىٰ مسلم بن عقبة على جيش الحرة. وكذلك فعل عبد الملك حين ولىٰ الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق وهكذا كلما جاء سلطان جديد فعل كما فعل سلفه.

وهشام بن عبد الملك سار على هذه السيرة بعدما ولى خالد بن عبد الله القسري على العراق وهو من سوف تعرفه.

وعزل هشام عن المدينة ومكة والطائف عبد الواحد بن عبد الله وولىٰ ذلك كله خاله ابراهيم بن هشام بن اسماعيل المخزومي[2].

ومن الواضح لم تكن هذه التعديلات الإدارية بدافع إصلاحي فالولاة لم يكونوا أصحاب كفاءات في المجتمع بل التغيير كان بدافع القرابة أو ما نسميه اليوم بالواسطة والتاريخ يشهد بذلك فمثلاً خطب ابراهيم بن هشام خال هشام بن عبد الملك وهو والي المدينة وأمير الحاج، في منىٰ في سنة ١١٠هـ فقال سلوني فأنا ابن الوحيد، لا تسألون أحداً أعلم مني؟ فقام إليه رجل من أهل العراق فسأله عن الأضحية أواجبة هي أم لا؟

فما درىٰ أي شيء يقول له فنزل من على منبره[3].

وهكذا كان بقية الولاة والأمراء وعلى هذه فقس ما سواها.

وصلىٰ هشام بن عبد الملك على جنازة سالم بن عبد الله بن عمر ورأىٰ

---

(١) النمل ٣٤.

(٢) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٣٧٩.

(٣) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٣٩٧.

في الناس كثرة. فضرب عليهم بعث أربعة آلاف. فسمي عام الأربعة آلاف[1].

وهذا الأسلوب اتبعه بنو أمية في التخلص من المعارضين والناقمين على سياساتهم وهو ضرب البعوث على أهل المدن للجهاد.

ومن الطبيعي فالذين يخرجون إلى الجهاد كانوا من أشراف الناس ومن أهل الهمم العالية وأهل الإيمان والجهاد، ووجود أمثال هؤلاء في البلاد والمدن يسبب في إشعال الثورات ضد أولئك السلاطين، وبالنتيجة فهو يهدد الخليفة تهديداً مباشراً.

والقيادة في أيام الدولة الأموية كانت مشغولة في القصور بين الخدم والحشم والجواري والسهرات الليلة والحفلات الغنائية على أعذب أصوات المغنين القادمين من أطراف البلاد.

فقد ذكر أبو الفرج أن هشام بعث كتاباً إلى المدينة يطلب حماد الراوية وأعطاه خمسمائة دينار وراحلة، فلما دخل عليه أنشده أبيات شعر فطرب هشام واستحسنها ثم أعطاه جاريتين في أذني كل واحدة منهما حلقتان من ذهب فيهما لؤلؤتان تتواقدان وأقام عنده مدة فوصله بمائة ألف درهم[2].

وغنا حنين المغني لهشام بيتين من الشعر وهو في طريق مكة فأعطاه هشام مائتي دينار[3].

ومن المعلوم أن هذه الأمور كانت منافية لتعاليم الإسلام ولسيرة المصطفى ﷺ وأهل بيته عليهم السلام مما كان يثير أصحاب الهمم العالية والجهاد والسابقة للنهوض بوجه الحكم الأموي المستهتر بالدين والقيم الإنسانية.

لذلك كانت تأتي هذه البعوث تلبية لرغبة هشام وأمثال هشام.

---

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٣٧٩.

(٢) الأغاني ج ٦ ص ٧٦ بولاق ج ٥ ص ١٦٧.

(٣) الأغاني ج ٢ ص ٣٤٢ بولاق ج ٢ ص ١٢١.

الوليد بن يزيد بن عبد الملك

١٢٥ـ ١٢٦هـ

أجمع أرباب التاريخ والأدب وعلماء الأمة على كفر الوليد وزندقته وانحرافه عن الإسلام والقرآن الكريم. فقد ألحد في الدين وارتكب المحرمات وتطاول على الله والأنبياء ولم يبق محرّماً إلا وفعله مع العلم أن الفترة التي قضاها في الحكم كانت تقريباً سنة إلا أنه في هذه الفترة أظهر من الزندقة والإلحاد ما لم يظهره فرعون ونمرود.

والعجب ليس من الوليد فهو فرع من الشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار وهو ابن يزيد صاحب حبابة وسلامة. وكما قال القرآن الكريم: **﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون﴾**[1].

لكن العجب ممن سماه أمير المؤمنين واعتبره خليفةَ رسول رب العالمين واعتبر طاعته واجبة على المسلمين.

لكن كما ذكرنا في مقدمة الكتاب. كان الانحراف عن الاسلام الصحيح والابتعاد عن تعاليم الرسول الكريم وأهل بيته الطيبين الطاهرين الذين بذلوا جهدهم لتطهير الأرض من هذه الشجرة الخبيثة، هو السبب في إصدار أمثال هذه الفتاوى الزائفة التي توجب طاعة الوليد بن يزيد وتعتبره من أولياء أمور المسلمين.

---

(١) القصص ٤١.

وقد قال تعالى: ﴿يوم ندعو كلَّ أُناس بإمامهم﴾[1].

وإليك بعض أخباره التي تنبىء عن كفره وزندقته وإلحاده في الدين.

ولي العهد:

عندما كان الوليد ولياً للعهد شاعت أخباره بين الناس وعرفه الخاص والعام وظهر منه من التهتك ما حمل الناس على الإنكار والاستياء منه ومن بني أمية.

وكان هشام بن عبد الملك مُكرماً للوليد بن يزيد. وكان عبد الصمد بن عبد الأعلىٰ مؤدِّباً للوليد وكان فيما يقال زنديقاً فحمل الوليد على الشراب والاستخفاف بدينه، فاتخذ الوليد ندماء وشرب الخمر وتهتك، وولاه هشام موسم الحج في سنة عشرة ومائة (١١٠هـ) فرأى الناس منه تهاوناً واستخفافاً بدينه وأمر مولاه عيسىٰ فصلىٰ بالناس وبعث إلى المغنين فغنوه وفيهم ابن عائشة فغناه، فنعر الوليد نعرةً أذنّ لها أهل مكه (أي سمعها) وأمر لابن عائشة ألف دينار وخلع عليه عدة خلع[2].

وتمادى الوليد في الشراب وطلب اللذات وأفرط فقال له هشام: ويحك يا وليد والله ما أدري أعلى الإسلام أنت أم لا؟ ما تدع شيئاً من المنكر إلا أتيته غير متحاشٍ ولا مستترٍ به.

وكما يقول المثل: «ويلٌ لمن كفره نمرود». فكتب إليه الوليد:

يا أيها السائل عن ديننا ... نحن على دين أبي شاكر
نشربها صرفاً وممزوجةً ... بالسخن أحياناً وبالفاتر

فغضب هشام على ابنه مسلمة وكان يكنىٰ أبا شاكر وقال له: يعيرني بك الوليد وأنا أرشحك للخلافة فالزم الأدب واحضر الجماعة وولاه الموسم فأظهر النسك والوقار[3].

---

(١) الاسراء ٧١.

(٢) الأغاني ج ٢ ص ٢٣٩ بولاق ج ٢ ص ٧٨.

(٣) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٥٢١.

وقال هشام لأبي الزبير يا نسطاس أترىٰ الناس يرضون بالوليد إن حدث بي حدث؟ قال: بل يطيل الله عمرك يا أمير المؤمنين.

قال: ويحك لا بد من الموت، أفترىٰ الناس يرضون بالوليد؟

قال: يا أمير المؤمنين إن له في أعناق الناس بيعة. فقال هشام: لئن رضي الناس بالوليد ما أظن الحديث الذي رواه الناس: «إن من قام بالخلافة ثلاثة أيام لم يدخل النار» إلا باطلاً[1].

والحديث هذا كان من مخلفات العهد الأول للدولة الأموية حيث إن السياسة كانت تريد إضفاء الطابع الشرعي علىٰ أعمالها فاخترعت هذا الحديث وغيره في وجوب الطاعة للسلطان.

وبعث الوليد بن يزيد إلى هشام بن عبد الملك روايته فأنشده قوله:

أنا الوليد أبو العباس قد علمت ... عليا مَعدّ مدى كَرّي وإقدامي

فقال هشام: والله ما علمت له معدٌّ كراً ولا إقدام. إلا أنه شرب مرة مع عمه بكار بن عبد الملك فعربَد عليه وعلى جواريه فإن كان يعني ذلك بكَرّه وإقدامه فعسىٰ[2].

وعندما أتته الخلافة وجاءه نعي هشام قال: والله لأتلقّينّ هذه النعمة بسَكرة قبل الظهر ثم أنشأ يقول:

طاب يومي ولذّ شرب السُّلاَفة ... إذا أتاني نعيٌ من الرّصافة
وأتانا البريدُ ينعىٰ هشاماً ... وأتانا بخاتم للخلافة
فاصطبحنا من خمر عانة صرِفاً ... ولهونا بقينة عَزّافة

ثم حلف ألا يبرح موضعه حتى يُغَنَّى في هذا الشعر ويشرب عليه، فغنّى فيه وشرب وسكر ثم دخل فبويع له بالخلافة.

وقال عمر بن شبه في خبر: وسمع صياحاً، فسأل عنه فقيل له: هذا من دار هشام يبكيه بناته. فقال:

---

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٥٢٤.

(٢) الأغاني ج ٧ ص ١١ بولاق ج ٦ ص ١٠٦.

إني سمعتُ بليلٍ ... ورا المُصلّى بِرَنّه
إذا بنات هشامٍ ... ينْدُبنَ والدهُنه
ينْدِبن قرماً جليلاً ... قد كان يعضدُهُنه
أنا المخنث حقاً ... إن لم أنيكنّهُنّه[1]

أعلن شرب الخمر:

بعث الوليد بن يزيد إلى جماعة من أهله لما ولي الخلافة، فقال: أتدرون لم دعوتكم؟ قالوا: لا، قال: ليَقُل قائلكم، فقال رجل منهم:

أردت يا أمير المؤمنين أن تُرِينا ما جدد الله لك من نعمه وإحسانه، فقال: نعم ولكني

أشهد الله والملائكة الأبرار ... والعابدين أهل الصلاح
أنني أشتهي السّماع وشرب ... الكأس والعض للخدود الملاح
والنديم الكريم والخادم الفاره ... يسعى عليّ بالأقداح

ثم قال: قوموا إذا شئتم[2].

وحدث الزبير بن بكار عن عمه قال: أرسلت إلى الوليد جفنةٌ مملوءةٌ قوارير فرعونية لم يُرَ مثلها قط. فلما أمسينا صببنا فيها الشراب في ليلة أربع عشرة، حتى إذا استوىٰ القمر على رؤوسنا وصار في الجفنة قال الوليد: من أي منزلةٍ القمر الليلة؟

فقال بعضهم: من الحمل وقال بعضهم: من كذا وكذا من منازل القمر، فقال بعض جلسائه: القمر في الجفنة، قال: قاتلك الله، أصبت ما في نفسي لتشربنّ الهفتجنة. قال الراوي فسأل أبي عن الهفتجنة، فقال: شربٌ كانت الفرس تشربه سبعة أسابيع، فشربَ تسعةً وأربعين يوماً[3].

في بركة الخمرة:

لما استخلف الوليد بن يزيد كتب إلى عامله بالمدينة يأمره بأشخاص

---

(١) الأغاني ج ٧ ص ١٦ بولاق ج ٦ ص ١٠٩.
(٢) الأغاني ج ٧ ص ٢٢ بولاق ج ٦ ص ١١٢.
(٣) الأغاني ج ٧ ص ٦١ بولاق ج ٦ ص ١٣٠.

عطرد المغني، قال عطرد: فأقراني العامل الكتاب وزودني نفقةً واشخصني إليه.

فدخلت على الوليد وهو جالس في قصره على شفير بركةٍ مرصصةٍ مملوءةٍ خمراً ليست بالكبيرة ولكنها يدور الرجل فيها سباحةً، فوالله ما تركني أسلّم عليه حتى قال: اعطرد؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين. قال: لقد كنت إليك مشتاقاً يا أبا هارون، غني:

«حيِّ الحمول بجانب العزلِ»

قال: فغنيته إياه، فوالله ما أتممتُه حتى شق حُلّة وشيٍ كانت عليه، لا أدري كم قيمتها، فتجرد منها كما ولدته أمه وألقاها نصفينِ ورمىٰ نفسه في البركة فنهل منها حتى تبينت ـ علم الله ـ فيها أنها قد نقصت نقصاناً بيناً.

وأُخرج من البركة وهو كالميت سُكراً، فاضجع وغُطّي، فأخذت الحُلةَ وقمت، فوالله ما قال لي أحدٌ: دعها ولا خذها. فانصرفت إلى منزلي متعجباً مما رأيت من ظرفه وفعله وطربه.

ولما كان من غدٍ جاءني رسوله في مثل الوقت فأحضرني، فلما دخلت عليه، قال لي: يا عطرد. قلت: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: غنني

«أيذهب عمري هكذا لم أنل بها مجالس تشفي قرح قلبي من الوجد»

فغنيته إياه.

فشق حُلةَ وشيٍ كانت تلتمع عليه بالذهب التماعاً احتقرتُ والله الأولىٰ عندها، ثم ألقى نفسه في البركة فنهل منها حتى تبينت ـ علم الله ـ نقصانها وأخرج منها كالميت سكراً وألقي وغُطّي فنام وأخذت الحلة، فوالله ما قال لي أحد: دعها ولا خذها، وانصرفت فلما كان اليوم الثالث جاءني رسوله، فدخلت إليه وهو في بهوٍ قد ألقيت ستورُهُ، فكلمني من وراء الستور وقال: يا عطرد، قلت لبيك يا أمير المؤمنين، قال: كأني بك الآن قد أتيت المدينة فقمت في مجلسها ومحفلها وقعدت وقلت: دعاني أمير المؤمنين، فدخلت عليه، فاقترح عليّ فغنيته وأطربته فشق ثيابه وأخذت سَلَبَه وفعل وفعل والله يا ابن الزانية، لئن تحركت شفتاك بشيء مما جرىٰ فبلغني لأضربن عنقك،

ثم نادىٰ: يا غلام أعطه ألف دينار، وقال: خذها وانصرف إلى المدينة. فقلت: إن رأىٰ أمير المؤمنين أن يأذن لي في تقبيل يده ويزودني نظرة منه وأغنيه صوتاً، فقال: لا حاجة بي ولا بك إلى ذلك فانصرف، قال عطرد: فخرجت من عنده وما علم الله أني ذكرت شيئاً مما جرىٰ حتى مضت من دولة بني هاشم مدة[1].

وقال الوليد بن يزيد يوماً: لقد اشتقت إلى معبد، فوجه البريد إلى المدينة، فأتى بمعبد وأمر الوليد ببركةٍ قد هُيئت له فملئت بالخمر والماء وأتي بمعبد فأمر به فأجلس والبركة بينهما وبينهما ستر قد أُرخي، فقال له غنيني يا معبد:

لهفي على فتية ذل الزمان لهم فما أصابَهُم إلا بما شاؤوا
(الأبيات)

قال: فغناه إياه.

فرفع الوليد الستر ونزع ملاءةً مطيبة كانت عليه وقذف نفسه في تلك البركة، فنهل فيها نهلةً ثم أتي بأثواب غيرها وتلقوه بالمجامر والطيب ثم قال غنني:

يا ربعُ مالك لا تجيب متيماً قد عاج نحوك زائراً ومسلماً

قال: فغناه، فدعا له بخمسة عشر ألف دينار (١٥,٠٠٠ دينار) فصبها بين يديه، ثم قال: انصرف إلى أهلك واكتم ما رأيت[2].

وعن أبي الزناد قال: كنا عند الوليد فجلس بعد العشاء وقال: اسقني فجاؤا بإناء مغطىٰ وجاء ثلاث جوار فصفقن بين يديه بيني وبينه ثم شرب وذهبن فتحدثنا واستسقىٰ، فصنعن مثل ما صنعن أولاً، قال: فما زال على ذلك يتحدث ويستسقي ويصنعن مثل ذلك حتى طلع الفجر فأحصيتُ له سبعين قدحاً[3].

---

(١) الأغاني ج ٣ ص ٣٠٧ بولاق ج ٣ ص ٩٨.
(٢) الأغاني ج ١ ص ٥٢ بولاق ج ١ ص ٢٦.
(٣) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٥٥٧ والأغاني ج ٧ ص ١٢ بولاق ج ٦ ص ١٠٦.

يقبّل عورة المغني ابن عائشة:

عن صاحب ستر الوليد بن يزيد قال: رأيت ابن عائشة عنده وقد غناه:

إني رأيت صبيحة النفر حوراً نفين عزيمة الصبر

قال: فطرب الوليد حتى كفر وألحد وقال: يا غلام اسقنا بالسماء الرابعة. وكان الغناء يعمل فيه عملاً ضلّ عنه من بعده، ثم قال: أحسنت والله يا أميري: أعد بحق عبد شمس، فأعاد ثم قال: أحسنت والله يا أميري، أعد بحق أمية، فأعاد ثم قال: أعد بحق فلان، أعد بحق فلان حتى بلغ من الملوك نفسه، فقال: أعد بحياتي، فأعاده، قال: فقام إليه فأكب عليه فلم يبق عضواً من أعضائه إلا قبّله وأهوىٰ إلى هَنِه فجعل ابن عائشة يضم فخذيه عليه. فقال: والله العظيم لا تريم حتى أقبله فأبداه له فقبل رأسه، ثم نزع ثيابه فألقاها عليه وبقي مجرداً إلى أن أتوه بمثلها ووهب له ألف دينار وحمله على بغلة وقال: اركبها بأبي أنت وانصرف فلقد تركتني على مثل المقلي من حرارة غنائك.

فركبها على بساطه وانصرف[1].

وكتب الوليد بن يزيد إلى يوسف بن عمر: أما بعد فإذا قرأت كتابي هذا فسرح إليّ حماد الراوية على ما أحب من دواب البريد وأعطه عشرة آلاف درهم يتهيأ بها.

فلما حضر حماد عند الوليد قال له غنني، فجعل يغني فطرب الوليد وقال: يا سبرة أو يا أبا سبرة، أسقني بزب فرعون فأتاه بقدح معوجٍّ فسقاه به عشرين مرة[2].

يأمر بقتل نديمه:

لما انهمك الوليد على شربه ولذاته ورفض الآخرة وراء ظهره وأقبل على القصف والعسف مع المغنين مثل مالك ومعبد وابن عائشة وذويهم،

---

(١) الأغاني ج ٢ ص ٢٢٦ بولاق ج ٢ ص ٧٢.

(٢) الأغاني ج ١ ص ٢١٠ بولاق ج ٢ ص ٦٥.

كان نديمه القاسم بن طويل العبادي أديباً ظريفاً شاعراً.

فغناه معبد ذات يوم شعراً، فاستحسنه الوليد وأعجب به وطرب عليه وجعل يشرب إلى أن غلب عليه السكر، فنام في موضعه، فانصرف ابن الطويل، فلما أفاق الوليد سأل عنه، فعَرف انه انصرف؛ فغضب وقال وهو سكران لغلام كان واقفاً على رأسه يقال له سَبرة: جئني برأسه فمضىٰ الغلام حتى ضرب عنقه وأتاه برأسه فجعله في طست بين يديه، فلما رآه أنكره وسأل عن الخبر فعرفه، فاسترجع وندم على ما فرط منه وجعل يقلب الرأس بيده ثم رثاه بأبيات[1].

ثنوي زنديق:

عن العلاء البندار قال: كان الوليد زنديقاً وكان رجل من كلب يقول بمقالته مقالة الثنوية، فدخلت على الوليد يوماً وذلك الكلبيُّ عنده وإذا بينهما سفطٌ قد رفع رأسه عنه، فإذا ما يبدو لي منه حريرٌ أخضر. فقال: أدن يا علاء فدنوت فرفع الحريرة فإذا في السَّفط صورة إنسان وإذا الزئبقُ والنوشادر قد جُعلا في جفنه فجفنُه يَطرف كأنه يتحرك فقال: يا علاء هذا ماني، لم يبتعث الله نبياً قبله ولا يبتعث نبياً بعده. فقلت: يا أمير المؤمنين: اتق الله ولا يغرّنك هذا الذي ترىٰ عن دينك. فقال له الكلبي: يا أمير المؤمنين: ألم أقل لك: إن العلاء لا يحتمل هذا الحديث[2].

وذكر في مروج الذهب أبيات له:

تلعّب بالخلافة هاشمي ... بلا وحي أتاه ولا كتاب
فقل لله يمنعني طعامي ... وقل لله يمنعني شرابي

مجلس الشراب على الكعبة:

ذكر ابن جرير أنه توفي يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد ابن خمسة عشر سنة وولىٰ هشام وهو للوليد مكرم معظم مقرب، فلم يزل ذلك من أمرهما

---

(١) الأغاني ج ٧ ص ٦٥ بولاق ج ٦ ص ١٣٢.
(٢) الأغاني ج ٧ ص ٧٢ بولاق ج ٦ ص ١٣٥.

حتى ظهر من الوليد بن يزيد مجون وشرب الخمرة وكان حمله على ذلك فيما حدثني أحمد بن زهير عن علي بن محمد بن جويرية بن اسماء وإسحاق بن أيوب عن عبد الصمد بن عبد الأعلىٰ الشيباني وكان مؤدب الوليد. قال: اتخذ الوليد ندماء، فأراد هشام أن يقطعهم عنه فولاه الحج سنة ١١٩هـ فحمل معه كلاباً في صناديق، فسقط منها صندوق فيما ذكر علي بن محمد عن البعير وفيه كلب فأجالوا على الكرّي السياط فأوجعوه ضرباً وحمل معه قبة عملها على قدر الكعبة ليضعها على الكعبة وحمل معه خمراً وأراد أن ينصب القبة على الكعبة ويجلس فيها، فخوفه أصحابه وقالوا: لا نأمن الناس عليك ولا علينا معك، فلم يحركها وظهر للناس منه تهاون بالدين واستخفاف به وبلغ ذلك هشاماً فطمع في خلعه والبيعة لابنه مسلمة بن هشام[١].

لوّاط وزنّاء بالمحارم:

قال الذهبي: اشتهر الوليد بالخمر والتلوط فخرجوا عليه لذلك.

ونقم عليه الناس لانتهاك ما حرم الله وشرب الخمر ونكاح أمهات أولاد أبيه. وأراد الحج ليشرب فوق ظهر الكعبة[٢].

وذكر أبو الفرج أن الوليد بن يزيد خرج من مقصورة له إلى مقصورة فإذا ببنت له، معها حاضنتُها، فوثب عليها فافترعها، فقالت له الحاضنة: انها المجوسية. قال: اسكتي[٣].

وروي عن سليمان بن يزيد بن عبد الملك قال يوماً: لعن الله الوليد أخي فإنه كان فاجراً والله لقد أرادني على أن يفعل بي، فقال له قائل: اسكت فوالله لئن كان همّ لقد فعلَ[٤].

---

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٥٢١ وتاريخ السيوطي ص ٢٥٠.

(٢) تاريخ السيوطي ص ٢٥١.

(٣) الأغاني ج ٧ ص ٦١ بولاق ج ٦ ص ١٣٠.

(٤) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٥٥٥ وعيون الأخبار ج ٢ ص ٤٢ وتاريخ السيوطي ص ٢٥١.

وسلاّمة ممن اتهموا بها الوليد بالزنى بأمهات أولاد أبيه[1].

ومن المجبرة:

بلغ معاوية بن عمرو بن عتبة خوض الناس في أمر الوليد، فأتىٰ الوليد فقال: يا أمير المؤمنين إنك تبسط لساني بالانس بك وأكفه بالهيبة لك وأنا أسمع ما لا تسمع وأخاف عليك، ما أراك تأمن، أفأتكلم ناصحاً أو أسكت مطيعاً؟

قال: كل مقبول منك ولله فينا علم غيب نحن صائرون إليه[2].

لاعب القمار:

خرج الوليد بن يزيد حاجاً ومعه عبد الله بن معاوية، فكانا ببعض الطريق يلعبان الشطرنج. فاستأذن عليه رجلٌ من ثقيف فأذن له وستر الشطرنج بمنديل، فلما دخل سلم فسأله حاجته، فقال له الوليد: أقرأت القرآن؟ قال: لا يا أمير المؤمنين: شغلتني عنه أمور وهنات.

قال: أفتعرف الفقه؟ قال: لا، قال: أفرويت من الشعر شيئاً؟ قال: لا، قال: أفعلمت من أيام العرب شيئاً؟ قال: لا، فكشف المنديل عن الشطرنج وقال: شاهد، فقال له عبد الله بن معاوية: يا أمير المؤمنين. قال: أسكت فما معنا أحد[3].

يمزق القرآن:

دعا الوليد بن يزيد ذات ليلة بمصحف، فلما فتحه وافق ورقة فيها: **﴿واستفتحوا وخاب كل جبارٍ عنيد من ورائه جهنم ويسقىٰ من ماء صديد﴾**[4]. فقال: أسجعاً سجعاً! علقوه ثم أخذ القوس والنبل فرماه حتى مزقه ثم قال:

---

(١) الأغاني ج ٨ ص ٣٣٤ بولاق ج ٨ ص ٦.
(٢) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٥٤٤ وعيون الأخبار ج ١ ص ٩٢.
(٣) عيون الأخبار ج ٢ ص ١٢٠.
(٤) ابراهيم ١٥ـ ١٦.

أتـوعـد كـل جَـبّـار عـنـيـدِ فـهـا أنـا ذاك جـبـار عـنـيـدُ
إذا لاقـيـتَ ربَّـك يـوم حـشـر فـقـل لله مـزقـنـي الـولـيـد[1]

بيت الدعارة:

لما ولي الوليد بن يزيد لهج بالغناء وحمل المغنين من المدينة وغيرها إليه وأرسل إلىٰ أشعب فجاء، فألبسه سراويل من جلد قرد له ذنب وقال له: أرقص وغنيني شعراً يعجبني فإن فعلت فلك ألف درهم، فغناه فأعجبه فأعطاه ألف درهم.

ودخل أشعب يوماً فلما رآه الوليد كشف عن آلته وهو منعظ قال أشعب: فرأيته كأنه مزمار آبنوس مدهون ـ فقال لي:

أرأيت مثله قط؟

قلت: لا يا سيدي، قال أسجد له. قال أشعب: فسجدت ثلاثاً.

فقال: ما هذا؟ قلت: واحدة للآلة وثنتين لخصيتيك.

قال: فضحك وأمر لي بجائزة.

قال: وتكلم بعض جلسائه والمغنية تغني، فكره ذلك وأضجره.

فقال لبعض جلسائه: قم وافعل به، فقام وفعل به والناس حضور وهو يضحك.

لا أظن أنك تقرأ ـ أيها القارىء الكريم ـ في ترجمة ملوك أوربا وأباطرتها في القرون الوسطى وسيرهم من الفسق والفجور والدعارة ما تقرأه في سيرة هذا الداعر الفاجر المسمى بـ«أمير المؤمنين» و«خليفة المسلمين» والمتسلط على رقاب المسلمين!

وذكرت جارية أنه واقعها يوماً وهو سكران، فلما تنحّىٰ عنها، آذنه المؤذن بالصلاة، فحلف ألا يصلي بالناس غيرها، فخرجت متلثمةً فصلت بالناس[2].

---

(١) الأغاني ج ٧ ص ٤٩ بولاق ج ٦ ص ١٢٥.
(٢) الأغاني ج ٧ ص ٤٦ بولاق ج ٦ ص ١٢٤.

وأنشده ابن ميادة:

فضلنا قريشاً غير رهط محمد وغير بني مروان أهل الفضائل

فقال له الوليد بن يزيد: قدمت آل محمد قبلنا!

فقال: ما كنت يا أمير المؤمنين أظنه يمكن غير ذلك[1].

وعن حكم الوادي: قال: وفدت على الوليد بن يزيد مع المغنين فخرج يوماً إلينا وهو راكب على حمار وعليه دراعة وشيء وبيده عقد جوهر وبين يديه كيسٌ فيه ألف دينار. فقال من غناني فأطربني فله ما عليّ وما معي. فغنوه فلم يطرب. فاندفعت وأنا يومئذٍ أصغرهم سناً فغنيته: أبيات فرمىٰ إلي بما معه من المال والجوهر ثم دخل فلم يلبث أن خرج رسوله بما عليه من الثياب والحمار الذي كان تحته[2].

وعن خالد صامة يقول: كنت عند الوليد بن يزيد وأنا أغنيه وهو يشرب حتى سكر. ثم قال لي: هات العود، فدفعته إليه، فغنى ودعوت بطبل فجعلت أُوقع عليه وهو يضرب حتى دفع العود وأخذ الطبل، فجعل يوقع به أحسن إيقاع ثم دعا بدفٍّ فأخذه ومشىٰ به وجعل يغني أهزاج طويس حتى قلت قد عاش، ثم جلس وقد انبهر.

فقلت: يا سيدي، كنت أرى أنك تأخذ عنا ونحن الآن نحتاج إلى الأخذ عنك. فقال: اسكت ويلك فوالله لئن سمع هذا منك أحدٌ ما دمت حياً لأقتلنك. قال: فوالله ما حكيته عنه حتى قتل[3].

وأنشد الوليد في الخمرة شعراً وهو:

عَلّلاني واسقياني من شرابٍ أصبهاني
من شراب الشيخ كسرىٰ أو شراب القيروان
إن في الكأس لمسكاً أو بكفّي من سقاني
كلّلاني توجاني وبشعري غنياني

---

(١) الأغاني ج ٢ ص ٢٩٤ بولاق ج ٢ ص ١٠٢.
(٢) الأغاني ج ١٣ ص ٢٧٨ بولاق ج ١٢ ص ٨١.
(٣) الأغاني ج ٩ ص ٢٧٤ بولاق ج ٨ ص ١٦٢.

إنـمـا الـكـأس ربـيـعٌ يـتـعـاطـى بـالـبـنـان
وحُمَـيـا الـكـأس دَبـت بـين رجـلـي ولـسـانـي[1]

مع زوجته سُعدىٰ:

في مثل هذا البيت الذي ما خلا من الدعارة والفساد ومن القبائح والمحرمات. لا يمكن أن يقوم على دعامة سليمة وعلاقة شرعية. بل لا بد لهذا البيت من الانهيار والتمزق أمام كل هذه المفاسد.

فروي أن الوليد بن يزيد طلق زوجته سعدىٰ، فلما تزوجت اشتد ذلك عليه وندم على ما كان منه، فدخل عليه أشعب، فقال له: هل لك أن تبلغ سعدىٰ عني رسالة ولك عشرة آلاف درهم.

قال: أقبضنيها، فأمر له بها، فلما قبضها. قال له: هات رسالتك.

قال: أنشدها:

أسـعـدىٰ هـل إلـيـك لـنـا سـبـيـل ولا حـتـى الـقـيـامـة مـن تـلاق
بـلـى ولـعـل دهـراً أن يـؤاتـى بـمـوت مـن خـلـيـلـك أو فـراق

قال: فأتاها أشعب، فاستأذن، فأذنت له، فدخل فقالت له: ما بدا لك في زيارتنا يا أشعب فقال: يا سيدتي أرسلني إليك برسالة ثم أنشدها الشعر، فقالت لجواريها عليكن بهذا الخبيث فقال: يا سيدتي إنه دفع إليه عشرة آلاف درهم فهي لك واعتقيني لوجه الله، فقالت والله لا أعتقك أو تبلغ إليه ما أقول لك، قال: يا سيدتي فاجعلي لي جعلاً. قالت: لك بساطي هذا، قال: قومي عنه فقامت فأخذه وألقاه على ظهره وقال: هاتي رسالتك فقالت:

أتبكي على سُعدىٰ وأنت تركتها فقد ذهبت سعدى فما أنت صانع

فلما بلغه الرسالة ضاقت عليه الأرض بما رحبت وأخذته كظمة فقال لأشعب: اختر مني إحدى ثلاث إما أن أقتلك وإما أن أطرحك في هذا القصر وإما أن ألقيك إلى هذه السباع فتفترسك، فتخيّر أشعب وأطرق ملياً

---

(١) الأغاني ج ٩ ص ١٣١ بولاق ج ٨ ص ٨٨.

ثم قال: يا سيدي ما كنت لتعذب عيناً نظرت إلى سعدىٰ فتبسم وخلى سبيله[1].

وله أخبارأخرى مع سُعدى يطول ذكرها.

بيت المال:

لم يكن لبيت المال حرمة في نظر سلاطين بني أمية، فبيت المال كان يعتبر بيت مال الخليفة يهب لمن يشاء ويمنع من يشاء.

والوليد بن يزيد كان من أولئك السلاطين بل من أولئك الذين لم يروا للدين حرمة فكيف ببيت المال.

فمثلاً كتب يوسف بن عمر إلى نصر بن سيار أن يقدم معه بعياله أجمعين فلما أتى نصراً كتابه قسم على أهل خراسان الهدايا و على عماله فلم يدع بخراسان جارية ولا عبداً ولا برذوناً فارهاً إلا أعده واشترىٰ ألف مملوك وقد أعدّ خمسمائة وصيفة وأمر بصناعة أباريق الذهب والفضة وتماثيل الظباء ورؤوس السباع والأيايل وغير ذلك فلما فرغ من ذلك كله كتب إليه الوليد يستحثه فسرّح الهدايا حتى بلغ أوائلها ببيهق فكتب إليه الوليد يأمره أن يبعث إليه برابط وطنابير فقال بعض شعرائه:

أبشر يا أمين الله ... أبشر بتباشير
بإبلٍ يحمل المال ... عليها كالأنابير
بغالٌ تحمل الخمر ... حقائبها طنابير
ودَنّ البربريات ... بصوت البم والزير
وقرع الدف أحياناً ... ونفخ بالمزامير
فهذا لك في الدنيا ... وفي الجنة تحبير

ولما ولي الوليد كتب إلى نصر بن سيار يأمره أن يتخذ له برابط وطنابير وأباريق الذهب والفضة وأن يجمع له كلّ صناجة بخراسان يقدر عليها وكل بازي وبرذون فاره ثم يسير بذلك كله بنفسه في وجوه أهل خراسان[2].

---

(١) المستطرف ج ٥ ص ٢٢٨.

(٢) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٥٣٣ـ ٥٣٤.

وأعطى الوليد ليونس الكاتب ثلاثة آلاف دينار لأنه أحيا معه ليلة على الغناء والشراب[1].

وأمر الوليد للأبجر بفرس أدهم ومسرجه ولجامه وأربعمائة دينار لغنائه ببيت واحد[2]. وغناه في يومٍ فطرب وشرب وسكر وأمر له بعشرة آلاف درهم[3].

ووهب لعمر الوادي خاتم ياقوت أحمر كان البيت يلتمع من شعاعه لصوت اقترحه عليه فغناه وأعجبه وأطربه حتى سكر ونام[4].

هلاكه:

كان السبب في خروج الناس عليه وقتله هو انتهاكه للحرمات.

وكان فاسقاً شريباً للخمر وأراد الحج ليشرب فوق ظهر الكعبة فمقته الناس لفسقه وخرجوا عليه فقتل.

وقال الذهبي: اشتهر الوليد بالخمر والتلوط فخرجوا عليه لذلك[5].

وعندما أحاط القوم بالوليد جعلوا ينادون: أقتلوا اللُّوطي قتلة قوم لوط، فرموه بالحجارة، فلما سمع ذلك دخل القصر وأغلق الباب وقال:

دعوا لي سليمىٰ والطلاء وقينةً ... وكأساً الا حسبى بذلك مالا
إذا ما صفا عيش برملة عالجٍ ... وعانقتُ سلمىٰ لا أريد بدالا
خذوا ملككم لا ثبت الله ملككم ... ثباتاً يساوي ما حييتُ عفالا

ثم قال لعمر الوادي: يا جامع لذتي، غنني هذا الشعر، وقد أحاط الجند بالقصر، فقال لهم الوليد من وراء الباب ما تنقمون مني؟ فقال له يزيد بن عنبسه السكسكي ننقم عليك انتهاك ما حرم الله وشرب الخمور

---

(١) الأغاني ج ١٩ ص ١٣٣.
(٢) الأغاني ج ٣ ص ٣٤٦ بولاق ج ٣ ص ١١٥.
(٣) الأغاني ج ٣ ص ٣٤٩ بولاق ج ٣ ص ١١٧.
(٤) الأغاني ج ٧ ص ٨٨.
(٥) تاريخ السيوطي ص ٢٥١.

ونكاح أمهات أولاد أبيك واستخفافك بأمر الله ثم نزلوا من الحائط وقتلوه.

قال المدائني: ولما قتل الوليد جعل أبو محجن مولىٰ خالد القسري يدخل سيفه في است الوليد وهو مقتول وهو يقول:

لو شاهدوا حدّ سيفي حين أدخله في است الوليد لماتوا عنده كمدا[1]

ولما قتل قطعت كفه اليسرى فبعث بها إلى يزيد بن الوليد فسبقت الرأس، قدم بها ليلة الجمعة، وأتى برأسه من الغد، فنصبه للناس بعد الصلاة.

فقال يزيد بن فروة مولى بني مروان ليزيد بن الوليد: إنما تُنصب رؤوس الخوارج وهذا ابن عمك وخليفة ولا آمن إن نصبته أن ترقّ له قلوب الناس ويغضب له أهل بيته، فقال والله لأنصبنه، فنصبه على رمح ثم قال له: انطلق به في مدينة دمشق وأدخله دار أبيه.

ففعل، فصاح الناس وأهل الدار ثم رده إلى يزيد فقال: انطلق به إلى منزلك فمكث عنده قريباً من شهر ثم قال له: ادفعه إلى أخيه سليمان. وكان سليمان أخو الوليد ممن سعىٰ على أخيه، فغسل ابن فروة الرأس ووضعه في سفط وأتىٰ به سليمان، فنظر إليه سليمان. فقال: بُعداً له أشهد أنه كان شروباً للخمر ماجناً فاسقاً ولقد أرادني على نفسي، الفاسق![2] فخرج ابن فروة من الدار، فتلقته مولاة للوليد فقال لها: ويحك ما أشد ما شتمه زعم أنه أراده على نفسه. فقالت: كذب والله الخبيث ما فعل ولئن كان أراده على نفسه لقد فعل وما كان ليقدر على الامتناع منه[3].

ولما بويع مروان الحمار نبش قبر الوليد بن يزيد وصلبه[4].

---

(١) الأغاني ج ٧ ص ٧٩ بولاق ج ٦ ص ١٣٩.

(٢) أي أراد اللواط مع أخيه.

(٣) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٥٥٥.

(٤) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٥٧٠ وعيون الأخبار ج ٢ ص ٢٤٩.

يزيد بن الوليد بن عبد الملك الناقص

١٢٦ـ ١٢٦هـ

وثب على الخلافة بعدما قتل ابن عمه الوليد بن يزيد وكانت خلافته ستة أشهر.

وأمه شاهفرند بنت فيروز بن يزدجرد وأم فيروز بنت شيرويه بن كسرىٰ وأم شيرويه بنت خاقان ملك الترك وأم فيروز بنت قيصر عظيم الروم. فلهذا قال يزيد يفتخر بآبائه الكفرة الفجرة:

أنا ابن كسرىٰ وأبي مروان وقيصر جدي وجدي خاقان[١]

وقيل له يزيد الناقص لأنه نقص الناس الزيادة التي زادهموها الوليد بن يزيد في أعطياتهم وذلك عشرة عشرة دراهم، فلما قتل الوليد نقصهم تلك الزيادة ورد أعطياتهم إلى ما كانت عليه أيام هشام بن عبد الملك.

وقيل أول من سماه بهذا الإسم مروان بن محمد حيث شتمه وقال الناقص بن الوليد فسماه الناس الناقص لذلك[٢].

وامتاز عهده بكثرة الحروب التي نشبت بين أفراد الأسرة الأموية في التنازع على السلطة وراح ضحيتها المئات من الناس مما أدى إلى انتشار الخلاف في أرجاء البلاد وخروج بعض الولايات عن السلطة المركزية، وأظهر الناس استيائهم وبغضهم لبني أمية وبني مروان.

---

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٥٩٦ وتاريخ السيوطي ص ٢٥٢.

(٢) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٥٦٤.

وقيل هو أول من خرج بالسلاح في العيدين، وخرج يومئذ بين صفين من الخيل عليهم السلاح من باب الحصن إلى المصلىٰ. وقيل إنه دعا الناس إلى القول بالقدر وحملهم عليه وقرب أصحاب غيلان.

ولم يمتع يزيد بالخلافة بل مات من عامه فكانت أيامه ستة أشهر.

وعهد من بعده إلى أخيه ابراهيم بن الوليد ولم يتم له الأمر إلا أربعة أشهر قضاها في المعارك والصراع مع بني أمية على السلطة ثم تنازل عن الأمر لمروان الحمار، وقتل بعدها فيمن قتل من بني أمية في وقعة السفاح[1].

وقد أمر مروان الحمار بعد دخوله دمشق وفرار ابراهيم بن الوليد عنها بنبش قبر يزيد بن الوليد وصلبه على باب الجابية[2].

---

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٥٩٦ وتاريخ السيوطي ص ٢٥٤.

(٢) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٦٠٦.

مروان بن محمد بن مروان الحمار

١٢٧ـ ١٣٢هـ

مروان الحمار هو آخر ملوك بني أمية ولقب بالحمار لأنه كان لا يجف له لبد في محاربة الخارجين عليه، وكان يصل السير بالسير.

ولم يتهنأ بالخلافة لكثرة من خرج عليه من كل جانب منها ثورة أهل حمص وأهل دمشق وأهل فلسطين وأهل تدمر وغيرها من البلاد.

وقاتل أهل حمص عدة مرات قتل في مرة خمسمائة أو ستمائة وأمر بصلبهم حول المدينة وهدم حائطها[١].

وحاصرهم مرة أخرىٰ عند خروج سليمان بن هشام عليه وأحصي من قتلاهم يومئذ نيف على ثلاثين ألفاً بعد أن أمرهم أن لا يأتوا بأسير إلا قتلوه.

ونزل مروان على حمص فحاصرهم بها عشرة أشهر ونصب عليها نيفاً وثمانين منجنيقاً فطرح عليهم الحجارة في الليل والنهار، فلما تتابع عليهم البلاء ولزمهم الذُّل سألوه أن يؤمنهم على أن يمكنوه من أميرهم سعيد بن هشام وابنيه عثمان ومروان ومن رجل كان يسمىٰ السكسكي كان يغير على عسكرهم ومن حبشي كان يشتم مروان، فأجابهم مروان إلى ذلك.

وكانت قصة الحبشي أنه كان يشرف على الحائط ويربط في ذكره ذكرَ

---

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٦٠٨.

حمار ثم يقول: يا بني سليم يا أولاد كذا وكذا هذا لواؤكم وكان يشتم مروان، فلما ظفر به دفعه إلى بني سليم فقطعوا مذاكيره وأنفه ومثلوا به وأمر بقتل السكسكي والاستيثاق من سعيد وابنيه[1].

وما زال مروان يخوض الحروب هنا وهناك حتى خرج عليه بنو العباس وعليهم عبد الله بن علي فسار مروان لحربهم. فالتقى الجمعان بقرب الموصل، فانكسر مروان وانهزم في تلك المعركة وهي معركة الزاب.

وكان مع مروان يومئذ مائة وخمسون ألفاً وكان مع عبد الله بن علي عشرون ألفاً[2].

وفرّ مروان إلى الشام فتبعه عبد الله بن علي وفتح دمشق بعد حصار قصير وفرّ منها مروان إلى مصر فتبعه صالح بن علي فالتقيا بقرية بُوصير وقتل فيها مروان الحمار.

ولما قتل مروان الحمار قطع رأسه ووجّه به إلى عبد الله بن علي، فنظر إليه وغفل فجاءت هرة، فاقتلعت لسانه وجعلت تمضغه فقال عبد الله بن علي: لو لم يُرنا الدهر من عجائبه إلا لسان مروان في فم هرة لكفانا ذلك[3].

وعن محمد بن سليمان بن عبد الله الفوفلي قال: كنت مع عبد الله بن علي أول ما دخل دمشق دخلها بالسيف وأباح القتل فيها ثلاث ساعات ثم نبش قبور بني أمية فلم يجد في قبر معاوية إلا خيطاً أسود مثل الهباء. ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجد جمجمة وكان يجد في القبر العضو بعد العضو، إلا هشام بن عبد الملك فإنه وجده صحيحاً لم يبل منه غير أرنبة أنفه، فضربه بالسياط وهو ميت وصلبه أياماً ثم أحرقه ودق رماده ثم ذرّه في الريح[4].

---

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٦٢٠.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ١٠ ص ٤٣.

(٣) تاريخ السيوطي ص ٢٥٥.

(٤) البداية والنهاية لابن كثير ج ١٠ ص ٤٥.

وجعل عبد الله بن علي يتتبع بني أمية ويقتلهم أينما وجدوا.

وبهذا تنتهي أيام الدولة الأموية بهذا الشكل حيث انتقم الله منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ولم يخلّفوا للأمة سوىٰ المآسي والمصائب والأحزان ولم يتبعهم من هذه الدنيا سوى اللعنات والخزي والعار الأبدي.

انتهىٰ.

قم المشرفة ـ محمد مرتضىٰ القزويني

المصادر

١ ـ القرآن الكريم	
٢ ـ تفسير الميزان	العلامة الطباطبائي
٣ ـ تاريخ الطبري	ابن جرير الطبري
٤ ـ تاريخ البداية والنهاية	ابن كثير
٥ ـ تاريخ السيوطي	جلال الدين السيوطي
٦ ـ العقد الفريد	ابن عبد ربه الأندلسي
٧ ـ الأغاني	أبو الفرج الأصفهاني
٨ ـ شرح نهج البلاغة	ابن أبي الحديد المعتزلي
٩ ـ نهج البلاغة	الشريف الرضي
١٠ ـ الملل والنحل	للشهرستاني
١١ ـ صحيح البخاري	البخاري
١٢ ـ صحيح مسلم	مسل
١٣ ـ أحياء علوم الدين	الغزالي
١٤ ـ بحار الأنوار	للمجلسي
١٥ ـ تفسير الدر المنثور	السيوطي
١٦ ـ شواهد التنزيل	الحسكاني

١٧ ـ مقاتل الطالبين	أبو الفرج الأصفهاني
١٨ ـ الاختصاص	للمفيد
١٩ ـ سيرة المصطفى	هاشم معروف
٢٠ ـ وقعة صفين	المنقري
٢١ ـ عيون الأخبار	ابن قتيبة
٢٢ ـ الكامل في التاريخ	ابن الأثير
٢٣ ـ حياة الحيوان	الدميري
٢٤ ـ تاريخ ابن الوردي	ابن الوردي
٢٥ ـ دول الإسلام	للذهبي
٢٦ ـ سيرة النبي	ابن هشام
٢٧ ـ صحيح الترمذي	الترمذي
٢٨ ـ تذكرة الخواص	سبط ابن الجوزي
٢٩ ـ الاستيعاب	ابن عبد البر
٣٠ ـ سفينة البحار	للقمي
٣١ ـ المستطرف	
٣٢ ـ ثمرات الأوراق	
٣٣ ـ ذيل المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين	
٣٤ ـ تنبيه الخواطر	

الفهرس

- المقدمة ٥
- لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ٨
- بنو أمية ١٣
- جدول «الأمويون» ١٩

فصل معاوية بن أبي سفيان ٢٠

- النبي يصف معاوية ٢١
- الزندقة والإلحاد ٢٢
- قاتل البررة ٢٦

١ ـ عمار بن ياسر ٢٧
٢ ـ حجر بن عدي ٢٩
٣ ـ محمد بن أبي بكر ٣٢
٤ ـ مالك بن الحارث الأشتر ٣٣
٥ ـ عمرو بن الحمق الخزاعي ٣٤
٦ ـ الذين قتلوا في الغارات ٣٦
٧ ـ الصحابة الذين قتلوا في صفين ٣٧

- حب الجاه ٣٩
- البدع ٤٤
- التنابز والاستهزاء ٥٣

- انعدام الغيرة ٦٢
- بيوت الطرب ٧٠
- السرقات ٧٢
- الجبن ٧٦
- الصعلوك ٧٨
- من هي هند؟ ٨٠
- النهاية السوداء ٨٤
فصل يزيد بن معاوية ٨٧
- مقتل الحسين عليه السلام ٨٩
- اضطراب في الكون ٩٢
- يزيد يستقبل الأسارىٰ والرؤوس ٩٤
- واقعة الحرة ٩٧
- إحراق الكعبة ١٠٠
- خلاعة يزيد ١٠١
فصل مروان بن الحكم ١٠٤
- اللعين ١٠٦
- كفٌ يهودية ١٠٧
- مروان في نظر أخيه ١١٠
- اقرارٌ بحديث رسول الله (ص) ١١٢
- مع أهل الكوفة ١١٤
- هلاك مروان ١١٥
فصل عبد الملك بن مروان ١١٦
- دكتاتورية ١١٧
- الملك عقيم ١٢٠
- عبد الملك والخمرة ١٢٥

- بيوت الطرب ١٢٨
- البيت الخامل ١٣١
- قضاء عبد الملك ١٣٤
- هلاكه ١٣٥
فصل الوليد بن عبد الملك ١٣٧
- الجبّار العنيد ١٣٨
- بيت الرذيلة ١٤٣
- حماقة ١٤٥
فصل سليمان بن عبد الملك ١٤٧
- مجالس اللهو ١٤٨
- مع المخنثين ١٥٠
- القسوة ١٥٢
- مأكل الخليفة ١٥٤
- ضحية التخمة ١٥٦
فصل عمر بن عبد العزيز ١٥٨
- أعمال غير مرضية ١٦٢
فصل يزيد بن عبد الملك ١٦٤
- الاستهتار والمجون ١٦٥
- منتهى الطرب والميوعة ١٦٨
- قتل الأسرى ١٧١
فصل هشام بن عبد الملك ١٧٣
- حماقته ١٧٤
- يخضمون مال الله ١٧٨
- البخيل ١٨٠
- مقتل زيد بن علي عليه السلام ١٨٣

- إذا دخلوا قرية أفسدوها ١٨٦
فصل الوليد بن يزيد بن عبد الملك ١٨٨
- ولي العهد ١٨٩
- أعلن شرب الخمر ١٩١
- في بركة الخمرة ١٩١
- يقبل عورة المغني ١٩٤
- يأمر بقتل نديمه ١٩٤
- ثنوي زنديق ١٩٥
- مجلس الشراب على الكعبة ١٩٥
- لوّاط وزنّاء بالمحارم ١٩٦
- ومن المجبرة ١٩٧
- لاعب القمار ١٩٧
- يمزق القرآن ١٩٧
- بيت الدعارة ١٩٨
- مع زوجته سعدىٰ ٢٠٠
- بيت المال ٢٠١
- هلاكه ٢٠٢
فصل يزيد بن الوليد بن عبد الملك الناقص ٢٠٤
فصل مروان بن محمد بن مروان الحمار ٢٠٦